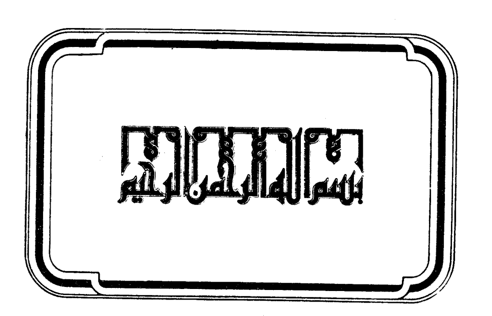
يانع الثمرات
في
تفسير سورة الذاريات

الدكتور
إبراهيم توفيق الديب
الأستاذ بجامعة الأزهر
كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة


بسم الله الرحمن الرحيم

يانع الثمرات

في

تفسير سورة الذاريات

الطبعة الثانية
١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلى القدير ، العليم الحكيم ، والصلاة والسلام على البشير النذير ، الرءوف الرحيم ، سيدنا محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

صلى الله تعالى وسلم عليه صلوات وتسليمات دائمات متلازمات إلى يوم لقاء الله .

وبعد : فهذا تفسير لسورة كريمة هى سورة الذاريات ، استقيته من عيون المراجع وأمهات كتب التفسير ومما فتح الله علىّ به .

وسورة الذاريات رصينة الألفاظ فخيمة الجمل ، عظيمة الآيات ، قوية الجرس ، غزيرة المعانى ، بديعة المبانى ، آياتها متشابكة متعانقة ، وجملها متماسكة متناسقة .

وهذه السمات والأوصاف شأن كل سورة من سور القران الحكيم :

فهو قرآن عجب فى أسلوبه ومعانيه ، ونظمه ومراميه ، يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ويحذر من الشر ومن اتباع خطوات الشيطان الرجيم ، وكله حقائق ووقائع ، ومعانيه فرائد وبدائع ، وألفاظه صادقة سامقة .

قرآن معجز بديع من رب بديع ، وكله إعجاز فى إعجاز ، وكل آية فيه بل كل جملة تقرر مضمون ما قبلها وتسلمك إلى ما بعدها ، فهو يأخذ بعضه بحجز بعض ، ويمسك بعضه برقاب بعض ، ويصدق

بعضه بعضا ، فى تسلسل عظيم ، وإحكام فخيم .

ومن يوم تنزله إلى الآن يتكلم فيه العلماء من سلف وخلف وينقبون عن أسراره وكنوزه وينهلون من فيضه الذى لا ينضب ، ويغترفون من بحره الذى لا ينفد ، ما يروى ظمأهم وغلتهم ، كل على قدر جهده وتخصصه ، فلا يضن عليهم ، وإنما يعطيهم على قدر استعدادهم وإخلاصهم ، وكلما زاده الباحثون الصادقون نظرا زادهم عطاء وفكرا ، وهداية وسناء ، وإشراقا وضياء ، وهو هو فى طرافته وجدته ، وسموقه ونضرته .

وسيظل العلماء إلى انتهاء الزمان يغوصون فى محيطه الزخار باللآلىء والدرارى من المعانى ، ويستخرجون بين الحين والحين بعض لآلئه ودراريه التى يرزقهم الله بها ويفتح عليهم بفهمها ، لأنه زخار بها ولا يحيط بأسراره ومعانيه وكنوزه ونفائسه كلها إلا الله منزله .

ومن ثم فإنه حجة على أهل كل عصر ، وعطاؤه متجدد متزايد ، ولم يشأ ربك أن تظهر وجوه إعجازه المتوافرة المتكاثرة مرة واحدة فى عصر واحد ، وإنما شاء أن تكمن فيه وجوه إعجازه وفيوض أسراره ويظهر بعضها مع كل عصر ليظل النظر فيه مستمرا ، وتظل حجيته قائمة على أهل كل عصر ، ويتحقق إعجازه على مر العصور وكر الدهور ، فهو قرآن لا تنقضى عجائبه ، ولا تنتهى غرائبه ، ولا تنفد معانيه وبدائعه ، ولا يخلق على كثرة الرد :

﴿ **ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى** ﴾ لكان هذا القرآن .

وسورة الذاريات كغيرها من سوره ثرية بالمعانى غنية بالأسرار والكنوز والنفائس :

فهى تثبت البعث والجزاء بالأدلة اليقينية القطعية ، وتذكر مسلك الكافرين وجزاءهم ، ومنحى المتقين وجزاءهم ، وتقرر وحدانية الإله واتصافه بصفات الكمال والجلال وقدرته على ما يشاء ، وتفك العقل من إساره ، وتحله من أغلاله ، وتحرره من قيوده ، وتدعوه إلى التأمل والنظر ، وتحاكمه إلى العقل والفكر ، وتهديه إلى التبصر والتفكر . وتذكر طرفا من قصص بعض المرسلين تأييدا للرسول محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى دعوته ، وتسلية له ولمن معه من المؤمنين وتثبيتا لقلوبهم ، وتبشيرا لهم بالنصر والتأييد ، وتهديدا وتخويفا لأعدائهم ، وهذا التبشير للمؤمنين والإنذار للكافرين دائمان مستمران للفريقين إلى يوم الدين .

وتقرر السورة عظمة الخالق واستحقاقه للعبادة لأنه مالك السماوات والأرض وهو الرزاق القوى المتين ، وتدعو إلى تطهير النفوس وتزكية القلوب من الشرك والضلال ، والزيغ والانحلال ، وتخليصها من أوهاق المادة وأثقال الحياة ، وتحض على التعلق بالله رب العالمين ، واللجوء إليه فى كل آونة وحين .

فهى سورة قررت أصول العقيدة ومثالية سلوك المرء فى الدنيا ، فأنعم بها وأكرم .

وها أنا أقدم إليك — أخى القارىء — تفسير هذه السورة المباركة بعد أن شرح الله صدرى لتفسيرها ، وسميته : « يانع الثمرات فى تفسير سورة الذاريات » .

ومهما قلت عن هذه السورة وأثنيت أنا وغيرى فلن نوفيها حقها ولن نحيط بأسرارها وكنوزها ، وهو شأن كل سورة من سور القرآن المجيد .

نسأل الله الكريم ، رب العرش العظيم ، الحى القيوم ، أن يزيدنا علما ، وينفعنا بما علمنا ، ويجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، وشفاء صدورنا ، وحجة وشفيعا لنا يوم لقائه ، ويجعل هذا العمل وغيره خالصا لوجهه ، ويعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته .

وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأحبابه ، آمين .

المؤلف



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم

بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾
ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ
مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾
وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ
وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾
وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ
وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ
مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ
إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ
سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ
سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ

مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾
فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ
عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ
حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾
فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا
غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ
يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ
أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ

مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾
مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾
وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ
أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا
ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ
مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا
بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ
ٱلْمَـٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾
وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾
كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ

أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾
فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ
تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا
لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن
يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾
فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا
يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى
يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

صدق الله العظيم

مقدمة بين يدى تفسير السورة الكريمة

معنى السورة

« السورة » مأخوذة من سور البلد لارتفاع رتبتها ومنزلتها كارتفاعه ، وقيل مأخوذة من غير ذلك .

وتنطق بالهمز فيقال : السؤرة ، وهو لغة فيها ، كما تنطق بدون همز .

ومعناها فى الاصطلاح :

طائفة من القرآن تتكون من آيات لها أول وآخر معروف ذات اسم توقيفى .

عدد آيات السورة وكلماتها وحروفها

وعدد آيات هذه السورة الكريمة « سورة الذاريات » ٦٠ ستون آية ، وعدد كلماتها ٣٦٠ ستون وثلاثمائة كلمة ، وقيل غير ذلك[1].

واختلف العادون فى عدد حروفها فذكر الفيروز ابادى أن عدد حروفها ١٢٨٧ سبعة وثمانون ومئتان وألف حرف ، وذكر الخازن أن عدد حروفها ١٢٣٩ تسعة وثلاثون ومئتان وألف حرف ، وقيل غير ذلك[1] .

واختلاف العادين فى عد حروفها راجع إلى اختلافهم فى طريقة العد ، وتعدد وجوه القراءات القرآنية المنزلة ، واعتبار البسملة فى العدد ، فبعضهم يعد البسملة آية من كل سورة ، وبعضهم لا يعدها

(١) أنظر بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزابادى جـ ١ ص٤٣٩ ، وغرائب القرآن للنيسابورى جـ ٢٧ ص٣ ولباب التأويل للخازن جـ ٦ ص٢٤١ .

آية من كل سورة .

وهذا المسلك من العلماء يدل على اهتمامهم الشديد بالقرآن الكريم وعلى مدى اشتغالهم به ورعايتهم له وحفاظهم عليه حتى بذل المسلمون فى سبيله المهج والأرواح والأنفس والنفائس ، وفيه كذلك حافز لقارىء القرآن على قراءته وتعليق قلبه به وتدبر معانيه وفهم آياته وتحصيل حسنات بعدد حروف ما يقرؤه بل أكثر ﴿ **والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم** ﴾[1] .

أسماء السور توقيفية

وتسمية هذه السورة باسم « الذاريات » تسمية توقيفية ، أى تتوقف على نقلها عن النبى ﷺ ، وكذلك كل أسماء السور التى اشتهرت بها توقيفية لا دخل لأحد من الخلق فى تسميتها لأن الذى سماها باسمها هو الله تعالى .

وللسورة القرآنية اسم واحد توقيفى ، وقد يكون لها إسمان أو أكثر كسورة الفاتحة ، وسورة البقرة ، وقد يسمى بعض الصحابة رضى الله تعالى عنهم وبعض التابعين رحمهم الله سورا بأسماء من عندهم وباجتهادهم هى بمثابة الأوصاف لتلك السور ، كما سمى حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنه سورة التوبة بالفاضحة ، وبسورة العذاب ، وكما سمى سفيان بن عيينة رحمه الله سورة الفاتحة بالوافية ، وهكذا نجد سورا فى القرآن المجيد وصفها بعض سلفنا الصالح رضى الله عنهم بأوصاف من عندهم وباجتهادهم ولم تشتهر هذه الأوصاف ، والعبرة باسم السورة التوقيفى المنزل من عند الله تبارك وتعالى .

تقسيم القرآن وترتيبه توقيفى

وتقسيم القرآن الكريم إلى سور ، وتقسيم السور إلى آيات ، أمر توقيفي ، وترتيب الآيات فى كل سورة أيضا توقيفى ، أما ترتيب السور

(١) سورة البقرة ٢٦١ .

ففيه خلاف بين العلماء ، والراجح أنه توقيفى كترتيب الآيات .

سورة الذاريات مكية

وسورة الذاريات مكية كلها باتفاق العلماء وإجماعهم ، نزلت بعد سورة الأحقاف ، ونزلت بعدها سورة الغاشية ، ووضعت بين سورة ق وسورة الطور بأمر من الله عز وجل وتوقيف كما علمت عن كثب ، ورقمها فى ترتيبها فى سور القرآن الحكيم ٥١ واحد وخمسون ، وهى من سور القسم الرابع وهو « المفصل » أحد أقسام القرآن الأربعة وهى : السور الطوال ، والمئون ، والمثانى ، والمفصل .

ومما يدل على أنها سورة مكية :

نزولها قبل الهجرة إلى المدينة المنورة ، وكثرة القسم فيها ، وقصر حجم السورة وحجم آياتها ، ووجود قصص الأنبياء فيها ، وتركيزها على إثبات الأصول الاعتقادية والدعوة إلى الإيمان بها وهى : التوحيد والنبوة والبعث وما يعقبه ، وكثرة ما فيها من إنذار وتخويف وتقريع وتوبيخ ، وما فى آياتها من وقع شديد تخفق له القلوب ، وألفاظ جزلة ، وجرس قوى يصخ الآذان ويقرع المسامع ، وهو المناسب لحال أهل مكة المشركين المعاندين والمتعنتين المناوئين[1] .

صلة سورة الذاريات بسورة ق صلة وثيقة

وصلة هذه السورة بالسورة التى قبلها وهى سورة ق صلة قوية ووثيقة وعلى أتم ما يكون لأن كل سورة فى القرآن تذكر بالسورة التى قبلها وتقرر ما فيها من معان ، وتوطىء للتى بعدها :

١ ـــ فسورة ق تحدثت فى صدرها عن إنكار المشركين للبعث واستبعادهم له ، وبينت أنهم فى أمر مريج .

---

(١) إقرأ بالتفصيل ما كتب هنا بإيجاز فى كتاب : « الدر النظيم فى مباحث من علوم القرآن الكريم » للمؤلف : مبحث المكى والمدنى ، ومبحث ترتيب الآيات والسور .

وسورة الذاريات تتحدث عن البعث كذلك وتؤكد وقوعه وتبين أن الكفار فى قول مختلف وتدفع إنكارهم وتدحض مزاعمهم وتكشف عن جزائهم المرير وعاقبتهم الوخيمة الأليمة .

٢ — وفى سورة ق لفت الله أنظار المشركين المنكرين للبعث إلى ما يدل على عظيم سلطانه وباهر قدرته سبحانه ، فذكر آيات تتكلم عن السماء وإحكام بنائها وما فيها من زينة الكواكب والنجوم وخلوها من العيوب والفروج ، وعن الأرض وما فيها من مد وانبساط وجبال وأنهار ونبات وثمار وحب وغير ذلك مما هو نعم ورزق للعباد والخلائق .

وفى سورة الذاريات ذكر الله تعالى هذا بإجمال فى قوله عز من قائل : ﴿ **والسماء ذات الحبك** ﴾ ، وقوله : ﴿ **وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون** ﴾ ، وقوله : ﴿ **والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ، والأرض فرشناها فنعم الماهدون ، ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** ﴾ .

٣ — وفى سورة ق أجمل الله سبحانه تكذيب بعض الأمم السابقة لرسلهم ، وأجمل عاقبتهم كقوم نوح عليه السلام ، وقوم صالح عليه السلام ، وقوم هود عليه السلام ، وفرعون ومن معه من الكافرين .

وفى سورة الذاريات ذكر الله عز وجل أحوال تلك الأمم الغابرة الكافرة وعاقبتهم بشيء من البيان والتفصيل .

٤ — واهتمت سورة ق وسورة الذاريات بإثبات وحدانية الله تعالى ووصفه بصفات الكمال والجلال ، وإثبات النبوة والرسالة ، والبعث والحشر ، كما عنيتا ببيان وعد الله ووعيده وثوابه وعقابه للمؤمنين وللكافرين .

ونلاحظ أن كلا من السورتين ختمت بما بدئت به :

فسورة ق بدئت وختمت بذكر القرآن الكريم : ﴿ **ق والقرآن المجيد** ﴾ ،.... ﴿ **فذكر بالقرآن من يخاف وعيد** ﴾

وسورة الذاريات بدئت وختمت بذكر يوم البعث والجزاء : ﴿ **إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع** ﴾ ، .... ﴿ **فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون** ﴾ .

وهذا يسمى بتناسب المطلع والمقطع ، أورد العجز على الصدر .

٥ ــ ونلاحظ كذلك أن أول سورة الذاريات مرتبط ارتباطا وثيقا بآخر سورة ق :

فالله عز وجل أخبر فى أواخر سورة ق أنه يعيد الأرواح إلى أجسادها ويبعث الخلائق ويحشرهم للحساب والجزاء ، وأقام الدليل على قدرته على ذلك ، ثم بين كيفية خروجهم من أجداثهم وسهولة حشرهم ويسره عليه ، وسلى رسوله ﷺ حتى لا يحزن لتكذيب المعاندين والكافرين به ، وبين أن عليه التبليغ والتذكير .

ولما كان الكفار مصرين على إنكارهم للبعث عاتين جامدين على موقفهم سادرين فى غيهم وضلالهم بدأ الله سورة الذاريات بالقسم بما هو معروف لهم ودليل على تأكيد مجىء البعث والجزاء وحتمية وقوعهما ونفى الريب عنهما .

فسورة الذاريات ملتحمة بسورة ق كما ترى ، وهذا شأن كل سورة فى القرآن الحكيم .

ومن يمعن النظر فى السورتين الكريمتين يمكنه أن يستخرج وجوها أخرى للتناسب بينهما والتحامهما ، ففيهما وجوه أخرى تركت ذكرها اختصارا واكتفاء بما ذكرته ، والله الموفق .

أهداف سورة الذاريات

مع عرض إجمالي لمعانيها

يمكن أن نجمل أهداف هذه السورة الكريمة فنقول وبالله التوفيق :

إنها تهدف إلى ترسيخ العقيدة الصحيحة السوية وغرس أصول الدين على أسس من التقوى واليقين ، وتشييد دعائم الإيمان ، وتجريد القلب البشرى وتخليصه من كافة العوائق وتفرغه للعبادة ، وربطه بالله طيلة الحياة ، وتوجيه الأبصار والبصائر إلى النظر والتأمل فى الآيات الدالة على قدرة الله الواحد القهار العزيز الغفار ، وتسلية رسوله محمد ﷺ وأصحابه والترويح عنهم حتى يستمروا فى المضى على درب الحق والاعتصام به ، وتحمل عنت الدعوة ومشقاتها .

بدأ الله السورة المجيدة بالقسم ببعض مخلوقاته كالرياح التى تذرو الغبار وغيره وتنثره وتسير السفن فى البحار بأمره تعالى ، والسحب التى تحمل فى ثناياها وخلالها الأمطار التى هى من أسباب الرزق ، والسفن التى تجرى بقدرة الله على سطح الماء رخاء حاملة ما ينفع الناس ، والملائكة المطهرين القائمين بأمر الله على شئون الخلق .

أقسم الله تعالى بهذه المخلوقات على حتمية وقوع البعث وسوق الناس إلى المحشر للحساب والجزاء .

ثم أقسم الله تعالى بالسماء المحكمة الخلق البديعة الصنع المزينة بتعدد

الكواكب والنجوم التى لا يعلم عددها إلا هو على تخبط آراء الكفار وتناقضهم واختلافهم واضطرابهم ، وبين حالهم فى الدنيا ومآلهم فى الآخرة حيث يعذبون فى جهنم ويصلون نارها ويذوقون نكالها ووبالها .

ثم ذكر الله الفريق المقابل للكافرين وهم المؤمنون المتقون ، فبين مآلهم فى الآخرة وحسن عاقبتهم وثوابهم وتمتعهم وتنعمهم فى الجنات والعيون بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وكل ذلك بسبب إحسانهم فى الدنيا وإقدامهم على الأعمال الخيرة الطيبة ، وتطبيقهم للمنهج الإلهى بصدق وإخلاص .

ثم وجه الله جل وعلا الأنظار إلى آيات كونية جامعة تدل على عظيم قدرته ووحدانيته :

فكشف النقاب عن آيات عظيمة موجودة فى الأرض وفى السماء وفى الإنسان ، ذلك المخلوق الصغير الحجم الكبير المعنى والدلالة ، الذى خلقه فى أحسن تقويم ، وسواه فعدله ، وأودع فيه نظائر ما فى العالم الخارجى الفسيح .

وكل آية تتضمن آيات تدل على قدرته ووحدانيته وتفرده بكل كمال وجلال ، كما تدل على رحمته بعباده وعظيم عنايته بهم .

ثم ذكر الله بعض قصص المرسلين مع أقوامهم وما حل بالطاغين من أقوامهم من الدمار والعذاب والهلاك والخراب .

وفى ذكر القصص وتكراره فى القرآن المجيد تأييد للرسول ﷺ فى دعوته ، وتصديق لرسالته ، وتسلية له وتسرية عنه وعن أصحابه الكرام البررة ، وبشارة لهم ولمن يسير على دربهم بالنصر والظفر والنجاة ، كما نصر الله المؤمنين السابقين ونجاهم ، ونذارة لأعدائهم وتخويف لهم

وترهيب ، وفيه عبر ودروس لأولى الألباب .

ثم ذكر الله ـــ جل ثناؤه وتباركت أسماؤه ـــ فى أواخر السورة ما يدل على قدرته وأنه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وعلى عدم تقصير رسوله فى تبليغ رسالته وأداء أمانته :

فقد بنى السماء بإبداع وإحكام ، وفرش الأرض بإتقان ونظام ، وخلق الأزواج على تعدد أجناسها وأنواعها ، وأمر رسوله ﷺ عليه وسلم بالاستمرار فى التذكير والمضى فى تبليغ الرسالة فإن الجن والإنس ما خلقهمإلا لعبادته ، وكفل لهم الرزق وضمنه لهم وألزم نفسه به لأن لا ينشغلوا به عما خلقهم له وهو العبادة .

ثم توعد الله الكافرين الذين ينصرفون عن الحق المبين ، ويستهزئون به بالعذاب المهين الأليم الذى يغمرهم ويغشاهم ، والويل والثبور الذى ينتظرهم يوم القيامة ويحيون فيه خالدين أبدا .

فأواخر هذه السورة العظيمة مرتبط بأوائلها ، وختامها وثيق الصلة ببدئها .

وبعد هذه المقدمة المفيدة الموجزة نبدأ بعون الله وحوله ، وتوفيقه وطوله ، فى تفسير آيات السورة الكريمة .



إثبات البعث والجزاء

قال الله تبارك وتعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾

« بسم الله الرحمن الرحيم » :

رأى العلماء في البسملة

أجمع العلماء الأجلاء على أن البسملة قرآن منزل من عند الله تعالى ، وجزء من آية فى سورة النمل وهى قوله تعالى : **﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾**[1] .

واختلفوا فى البسملة الموجودة فى أول السور وهى ١١٣ ثلاث عشرة ومائة سورة :

---

(١) سورة النمل ٣٠ .

فذهب الإمام الشافعى والإمام أحمد فى رواية عنه وغيرهما من فقهاء مكة والكوفة وقرائهما إلى أنها آية من سورة الفاتحة وغيرها من السور المذكورة فى أولها ، وهو قول كثير من الصحابة والتابعين رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

ومن أدلة الإمام الشافعى ومن معه : أن الصحابة رضى الله عنهم أجمعوا على كتابة البسملة فى المصاحف العثمانية وكانت من قبل مكتوبة فى الصحف البكرية التى نقلت مما كتب عليه القرآن بين يدى رسول الله ﷺ مع أنهم كانوا يتحرون تجريد القرآن الكريم عما ليس منه ، فكتابتها فى الصحف البكرية والمصاحف العثمانية بالإجماع دليل قوى على أنها آية من كل سورة ذكرت فى أولها .

وذهب الإمامان أبو حنيفة والأوزاعى ومن معهما من قراء المدينة والبصرة والشام إلى أنها ليست بآية من كل سورة ذكرت فى أولها ، وإنما هى آية منفردة مستقلة قائمة بذاتها أنزلت للفصل بين السور والتبرك بالابتداء بها .

وذهب المالكية إلى أنها ليست بآية من كل سورة ذكرت فى أولها ، وإنما هى مذكورة للتبرك والتيمن .

ومعنى : « بسم الله الرحمن الرحيم » :

معنى البسملة

أبتدىء عملى متبركا ومتيمنا ومستعينا بسم الله تعالى فهو المعبود بحق ، والجدير بالاستعانة به ، والمتصف بالصفات العليا ، وله الأسماء الحسنى ، واستفاضت رحمته ووسعت كل شىء ، وغمرت آلاؤه ونعمه خلقه ، وأبرأ من حولى وطولى ومما يفعله الضالون والسفهاء من خلقه الذين يبدأون أعمالهم بدون ذكر اسمه الشريف الجليل أو بذكر

اسم غير اسمه من أسماء خلقه تبارك وتعالى(١) .

﴿ **والذاريات ذروا** ﴾ :

إعــــراب والذاريات ذروا

الواو حرف قسم وجر ، وهى لا تجر إلا الظاهر ، وللقسم حرفان آخران هما : الباء والتاء ، والجار والمجرور متعلق بفعل قسم مقدر والتقدير : « أقسم بالذاريات » ، فهى جملة قسمية ، ولله سبحانه وتعالى أن يقسم بما شاء على ما شاء ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾(٢) .

أما نحن فمكلفون وليس لنا أن نقسم بما شئنا ، وإنما علينا أن نقسم — إن أردنا القسم — بالله أو بصفة من صفاته ، أى نقسم بما ورد فى الشرع ولا تجوز مخالفته .

و ﴿ **الذاريات** ﴾ : جمع ذارية من ذرى يذرو ذروا . كعدا يعدو عدوا . أو من ذرى يذرى ذريا . كرمى يرمى رميا .

و ﴿ **ذروا** ﴾ مفعول مطلق منصوب بالذاريات لأن اسم الفاعل يعمل عمل فعله .

القــــراءات المتواترة الواردة فيها

وقرأ أبو عمرو وحمزة ويعقوب الحضرمى من القراء العشرة بإدغام تاء الذاريات فى ذال ذروا ، وقرأ الباقون بلا إدغام(٣) .

واختلف العلماء فى تعيين الموصوف بالذاريات :

---

(١) إقرأ تفسير البسملة تفسيرا تحليليا فى كتاب : « إتحاف الجنان بتفسير أم القرآن » للمؤلف .

(٢) سورة الأنبياء ٢٣ .

(٣) أنظر النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى جـ ٢ ص ٣٧٧ ، وإتحاف فضلاء البشر للبناء الدمياطى ص ٣٩٩ .

رأى العلماء في المراد بالذاريات

فقال الأكثرون منهم إن المراد بالذاريات : الرياح التى تذرو التراب والقشر والتبن والمطر ووسائل اللقاح ونحو ذلك من الأشياء الخفيفة مما نعلمه وما لا نعلمه ، فإنها تبعثره وتفرقه وتنقله من مكان إلى مكان آخر وفق المشيئة الإلهية والإرادة الربانية .

وقال بعض العلماء إن المراد بالذاريات : النساء الولودات فإنهن يذرين الأولاد ويكثرن منهم ، ولا شك أن فى هذا المعنى تجوزا : بأن يشبه تتابع الأولاد وتكاثرهم ونشرهم وتفرقهم بتطاير الحبوب والقشر والغبار وغير ذلك من الأشياء الخفيفة المتطايرة بسبب الرياح بجامع مطلق النشر والتفرق والتكاثر فى كل ، والقرينة لهذا أن القسم على البعث والإعادة بعد الموت ، وهذا يدعو إلى ذكر المبدأ وهو يكون بالنساء الولودات .

وخص النساء بالذرور مع أن الرجال يشاركونهن فيه لأنهن أوعية ومحل له ، ولأنه ظاهر فيهن بخلاف الرجال .

وقال بعضهم إن المقصود بالذاريات : الأسباب التى تذرى الخلائق وتكثرهم وتفرقهم ، وفى هذا المعنى تجوز كذلك : بأن تشبه الأسباب التى تكون سببا فى البروز من العدم إلى الوجود والحياة بالرياح الذارية المفرقة للغبار والقشر ونحوهما بجامع مطلق النشر والتفرق والبث فى كل .

الرأى الراجح

والراجح أن المراد بالذاريات : الرياح لقوله تعالى فى سورة الكهف : ﴿ **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح** ﴾[1] .

---

(١) سورة الكهف ٤٥

وهذا من تفسير القرآن بالقرآن وهو أعلى رتبة فى التفسير ﴿ **ومن أصدق من الله قيلا** ﴾[1] .

ولما ثبت من غير وجه عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه أنه صعد المنبر بمسجد بالكوفة فقال للحاضرين : لا تسألونى عن آية فى كتاب الله تعالى ولا عن سنة عن رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك ، فقام ابن الكواء فقال : يا أمير المؤمنين ما معنى قوله تعالى : ﴿ **والذاريات ذروا** ﴾ ؟ قال على رضى الله تعالى عنه : الريح ، قال : « فالحاملات وقرا » ؟ قال رضى الله عنه : السحاب ، قال : ﴿ **فالجاريات يسرا** ﴾ ؟ قال كرم الله وجهه : السفن ، قال : « فالمقسمات أمرا » ؟ قال كرم الله وجهه : الملائكة .

وجاء صبيغ بن عسل التميمى إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — من قبل فسأله عنها ، فأجابه بمثل ما روى عن على رضى الله عنه.

وقد أحس عمر رضى الله عنه أن صبيغا ليس سليم الصدر ولا يسأل للعلم والاستفسار وإنما يسأل تعنتا وعنادا ولجاجا ، فعاقبه بالضرب وحال بينه وبين مجالسة الناس إلى أن تاب وأناب وأقسم بالأيمان المغلظة لأمير المؤمنين عمر أنه ما يجد فى نفسه مما كان يجد شيئا . وهذا يدل على فراسة عمر وإلهامه وشدة غيرته على الحق وانتصابه للدفاع عنه مهما كلفه ، رضى الله عن هذا الفاروق وأرضاه .

وهكذا فسرها عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر ، ومجاهد ابن جبر وسعيد بن جبير والحسن البصرى وقتادة بن دعامة وغيرهم

---

(١) سورة النساء ١٢٢ .

من الصحابة والتابعين ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، ولم يحك ابن جرير عمدة المفسرين وابن أبى حاتم غير ذلك — كما قال الحافظ ابن كثير —[1] .

وإذا جاءك التفسير عن هؤلاء فحسبك به

« فالحاملات وقرا » :

إعـــراب فالحاملات وقرا ومعناه

معطوف على ماقبله ومقسم به أيضا ، جمع حاملة أو حامل ، ويقال للمحمول : حمل كجبل ، والحمل بكسر الحاء هو المحمول ، ومنه قوله تعالى فى سورة طه عن الكافرين : ﴿ **وساءلهم يوم القيامة حملا** ﴾[2] ، والحملة جمع حامل ، ومنه حملة القرآن ، وحملة العرش .

و « وقرا »بكسر الواو مفعول به ، وهو الحمل الثقيل ، أو ماهو أعم منه ، وبفتح الواو — كما قرىء وهى شاذة — يكون مصدرا ، ويعرب مفعول مطلق من المعنى كقولك: قمت وقوفا ، وجلست قعودا ، ورجعت القهقرى . ويطلق على الثقل فى الأذن ، وعلى ذهاب السمع كله ، والوقار — كسحاب — هو الرزانة والاتزان وحسن السمت ، ومنه رجل وقور ، و « وقر » من باب : وعد يعد ، أو باب : وجل يوجل .

رأى العلماء فى المراد بالحاملات

واختلف المفسرون فى تعيين الموصوف بالحاملات :

فقال بعضهم إن المراد بالحاملات : الرياح الحاملة للسحاب ، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ **وهو الذى يرسل**

---

(1) أنظر جامع البيان عن تأويل آى القرآن لابن جرير الطبرى جـ ٢٦ ص ١٨٥ — ١٨٨ ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٤ ص ٢٣١ — ٢٣٢ .

(2) سورة طه ١٠١ .

الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾[1] .

وقال بعضهم إن المقصود بالحاملات : السحب الحاملة للماء الذى فيه حياة البشر والخلائق ، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى فى الآية السابقة عن السحاب : ﴿ ... **سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء** ﴾ ، وقوله تعالى فى سورة النور : ﴿ **ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء** ﴾[2] ، وقوله تعالى فى سورة الرعد : ﴿ **هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشىء السحاب الثقال** ﴾ [3] ، **وما ورد عن أميرى المؤمنين عمر وعلى ، وابن عباس وغيرهم من أكابر الصحابة والتابعين رضى الله تعالى عنهم وأرضاهم من تفسير الحاملات بالسحاب .**

وقول زيد بن عمرو بن نفيل :

وأسلمت نفسى لمن أسلمت ∘ له المزن تحمل عذبا زلالا

لا تعارض بين القولين

ولا تعارض بين هذا المعنى والذى قبله فالآية الكريمة تحتملهمامعا ، ويندرجان تحت عمومها ، ومع كل معنى منهما ما يؤيده ويقويه .

وقال بعضهم إن المقصود بالحاملات : النساء الحوامل ، وقيل غير ذلك مما هو مرجوح .

﴿ فالجاريات يسرا ﴾ :

---

(١) سورة الأعراف ٥٧ . (٢) سورة النور ٤٣ . (٣) سورة الرعد : ١٢ .

إعـــراب فالجاريات يسرا ومعناه

(فالجاريات) : معطوف ومقسم به أيضا ، من جرى يجرى جريا ، كرمى يرمى رميا . و « يسرا » من يسر ييسر ، واليسر بضم الياء وإسكان السين ، وينطق بضمهما معا كعنق ، ويقال : يسرا بفتح الياء والسين وبسكون السين . وكلها ألفاظ تدور حول معنى السهولة واللين ، و « يسرا » صفة لموصوف محذوف أى جريا يسرا سهلا خفيفا ، أو حال على تأويل المصدر بالمشتق أى ميسرة .

واختلف المفسرون فى تحديد الموصوف بالجاريات :

رأى العلماء فى المراد بالجاريات

فيرى بعضهم أن المقصود بالجاريات : السفن الجارية فى البحر ، فهى تجرى جريا سهلا لينا حاملة ذرية بنى آدم وما يحتاجون إليه ، وجريانها بقدرة الله — جل وعلا — وبما أودع الماء وأودع السفن وأودع الكون جميعه من خصائص تتيح هذا الجريان اليسير النافع .

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى فى سورة الشورى : ﴿ **ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ، إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره** ﴾[1] ، وقوله سبحانه فى سورة الرحمن : ﴿ **وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام** ﴾[2] ، وقوله عز وجل من قائل فى سورة الحاقة : ﴿ **إنا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية** ﴾[3] ، وما ورد عن عمر وعلى وغيرهما من الصحابة والتابعين من أن المراد بالجاريات السفن ، وسبقت الروايات فى ذلك .

ويرى بعضهم أن المراد بالجاريات : الرياح ، فهى تجرى فى مهابها ولها اتجاهاتها وصفاتها وأسماؤها ، ويقوى هذا المعنى قوله تعالى فى الآية السابقة من سورة الشورى : « إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد

---

(١) سورة الشورى ٣٢ — ٣٣ . (٢) سورة الرحمن سبحانه وتعالى ٢٤ .
(٣) سورة الحاقة ١١ .

على ظهره » : فهذا دليل على أن الريح تجرى وتدفع السفن وتسوقها ، وقوله تعالى فى سورة الأنبياء عليهم السلام : ﴿ **ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها** ﴾[1] ، وقوله سبحانه فى سورة ص عن سليمان : ﴿ **فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب** ﴾ [2] .

ويرى بعضهم أن المراد بالجاريات : الكواكب التى تجرى وتسبح فى منازلها وأفلاكها وتختلف حركتها سرعة وبطأ ، ويعاضد هذا المعنى قوله تعالى فى سورة التكوير : ﴿ **فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس** ﴾[3] .

لا تعارض بين الآراء

والآية الحكيمة تحتمل هذه المعانى العظيمة كلها وتندرج تحت عمومها ولا تنافى بينها ولكل معنى ما يؤيده ويقويه ، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن وهو أسمى درجة فى التفسير « ومن أصدق من الله حديثا »[4] .

« فالمقسمات أمرا » :

إعراب فالمقسمات أمرا ومعناه

« فالمقسمات » معطوف ومقسم به كذلك ، والمقسمات جمع مقسمة : من قسم بالتضعيف : يقال : قسم تقسيما ، ويقال : قسم يقسم قسما : بفتح القاف من باب ضرب ، فالقسم بفتح القاف مصدر ، والقسم بكسر القاف : النصيب ، والقسم بفتح القاف والسين : اليمين .

و « أمرا » يجوز أن يعرب حالا أى مأمورة بذلك ، أو مفعولا

---

(١) سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ٨١ .

(٢) سورة ص ٣٦ . (٣) سورة التكوير ١٥ ــ ١٦ .

(٤) سورة النساء ٨٧ .

به لأن اسم الفاعل يعمل عمل الفعل ، ويجوز أن يكون « أمرا » أحد الأوامر المقابلة للنواهى ، ويجوز أن يكون أحد الأمور أى الأحوال والشئون .

رأى العلماء فى المراد بالمقسمات أمرا

واختلف المفسرون والعلماء فى تعيين الموصوف بالمقسمات :

فقال بعضهم إن المراد بالمقسمات : الملائكة الذين يقسمون شئون العالم وأموره من الأمطار والأرزاق والآجال ونحو ذلك من غير تخصيص ويوزعونها حسب مشيئته تعالى .

أو يقسمون شئون العالم على أنفسهم بأن يختص كل واحد منهم بعمل معين : فجبريل عليه السلام للوحى إلى الأنبياء وللغلظة والشدة ، وإسرافيل عليه السلام صاحب النفخ فى الصور ، وميكائيل عليه السلام صاحب الرزق والرحمة، وعزرائيل عليه السلام صاحب قبض الأرواح ومعه أعوان لذلك ، ومنهم من أعمالهم تتصل بالعالم العلوى ، ومنهم من أعمالهم تتعلق بالعالم السفلى ، ومنهم حملة العرش ، ومنهم الكتبة ، ومنهم الحفظة ، ومنهم من خصهم الله تعالى بأعمال وأمرهم بوظائف وناط بهم أمورا لا نعرفها ، ولا نعرف عددهم : ﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو** ﴾[1] .

فهم يقسمون شئون الخلق والعالم وأمورهم حال كونهم مأمورين بذلك .

وقال بعض العلماء إن المقصود بالمقسمات : الرياح التى تسوق السحاب الحامل للأمطار حتى تقسمه على المواقع التى أراد الله نزولها فيها .

---

(١) سورة المدثر ﷺ ٣١ .

ولا تعارض بين الرأيين فالآية الكريمة تحتملهما معا وتشملهما بعمومها وإن كان المعنى الأول ظاهرا فيها أكثر من الثانى وتزكيه الرواية السابقة الواردة عن على بن أبى طالب وغيره من سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أجمعين .

لا تعارض بين القولين

﴿ إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع ﴾ :

معنى الوعد والوعيد

« إنما » مركبة من إن وما . ويجوز أن تكون (ما) موصولة أو مصدرية ، والوعد يكون فى الخير غالبا وإذا استعمل فى الشر ذكر الموعود به ، أما الوعيد أو الإيعاد فهو يكون فى الشر غالبا ، والمقام هنا يفيد أنه فى الشر لقوله تعالى من قبل فى ختام سورة ق : فذكر بالقرآن من يخاف وعيد[1] ، ولأن الغرض التخويف والتهويل إذ الكلام للكفار والمشركين .

معنى الصدق

والصدق : الخبر المطابق للواقع ، أى لخبر صادق ، والمراد من صدقه : تحقق وقوعه أى الأمر صدق محقق لا كذب ولا خلف فيه **﴿ وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا ﴾**[2] ، والموعود به هو البعث ونحوه أخذا بعموم الآية الكريمة .

وجملة **﴿ إنما توعدون لصادق ﴾** جواب القسم السابق .

أوجه البلاغة فى الآية

وفى هذه الآية الحكيمة من أوجه المبالغة مافيها : فهى جملة اسمية تفيد الدوام والاستمرار ، ومؤكدة بإن واللام لأنها موجهة إلى المنكرين للبعث الجاحدين للحق ، ولا ريب أن البعث أحد الأركان الثلاثة التى لابد منها فى تمام الإيمان ، وهوعقيدة ثابتة فى كل الرسالات السماوية ولا يكمل إيمان الإنسان إلا بإيمانه بالأصول الثلاثة الموجودة

(١) سورة ق ٤٥ . (٢) سورة الكهف ٥٨ .

فى سائر الرسالات وهى : التوحيد والنبوة والبعث ، ومن أوجه المبالغة أيضا أن اسم الفاعل وهو « صادق » أسند إلى الإيعاد أو الوعيد على أن (ما) مصدرية ، أو الذى توعدون به وهو البعث وغيره مما وعدهم الله به كالرزق فى الدنيا والثواب والعقاب فى الآخرة على أن (ما) موصولة ، وحق اسم الفاعل أن يسند إلى من أخبر به ، أما هنا فقد أسند إلى غير ما هو له للمبالغة فى صدقه وتحققه ، فكأن الوعد بالبعث نفسه صادق ، كما فى قوله تعالى فى سورة الحاقة عن من أخذ كتابه بيمينه : ﴿ **فهو فى عيشة راضية** ﴾[1] ، فقد أسند اسم الفاعل إلى نفس العيشة وهى الحياة للمبالغة فى رضا العيشة حتى جعلها راضية مع أنها مرضية لا راضية فإذا كانت العيشة راضية فإن صاحبها يكون راضيا من باب أولى ويكون أكثر رضا ، وكذلك هنا .

فإذا كان الموعود به صادقا فإن المخبر به يكون صادقا من باب أولى بل يكون أصدق ، فهذا إسناد مجازى أو بتعبير أوضح مجاز عقلى وهو إسناد الفعل أو مافى معناه إلى غير ماهو له بتأول ولعلاقة .

« وإن الدين لواقع » : جملة معطوفة على ماقبلها داخلة معها فى الحكم ، فالله تعالى يقسم عليها أيضا .

المراد بالدين

و « الدين » المراد به هنا : الجزاء على الخير والشر كما قال تعالى فى سورة النور : ﴿ **يوفيهم الله دينهم الحق** ﴾ الآية[2] ، ووقوعه : حصوله وحتميته .

الغرض من الآيتين

فالغرض من هذه الآية الكريمة أن العقاب وهو الجزاء للمنكرين للبعث لابد حاصل ، فأفادت الآية الأولى أن البعث كائن وواقع لا

(١) سورة الحاقة ٢١ . (٢) سورة النور ٢٥ .

ريب فيه ولابد منه ، وأفادت الآية الثانية أن الجزاء واقع حتما بعد البعث والحساب ، فهو ترتيب طبيعى ، والتعبير ب (واقع) والمراد يقع أى التعبير بالماضى فى موضع المستقبل للدلالة على تحقق الوقوع وحتميته ، لأن المعروف فى اللغة أن اسم الفاعل ليس حقيقة فى المستقبل .

الحكمة من القسم

وأقسم الله تعالى فى صدر هذه السورة الكريمة — وفى غيرها من السور — مجاراة لما تعوده العرب[1] ، إذ كانوا يحلفون فى الأمور العظيمة الشأن والمهمة ، فحلف الله لهم هنا على حتمية البعث ووقوع الجزاء مجاراة لهم حيث نزل القرآن بلغتهم ، وإقامة للحجة عليهم وخرسا لألسنتهم يوم القيامة ، ولأنهم كانوا يعتقدون أن اليمين الكاذبة تخرب الديار وتؤدى إلى الهلاك والبوار ، فحلف الله تعالى لهم ونطق محمد ﷺ بهذه الآيات البينات المشتملة على القسم إفحاما لهم وقطعا لأعذارهم لأنهم يعلمون أنه لو كان كاذبا لأصابه شؤم كذبه وناله المكروه فى وقت من الأوقات ، ومع تيقنهم بصدقه ﷺ لم يؤمنوا به عنادا وكفرا وعتوا واستكبارا ، ولأن المعهود أن المتكلم إذا استهل كلامه باليمين فإنه يحمل السامع على الإقبال عليه والانتباه له والإنصات له بهمة ونشاط ، فإذا ما أقبل عليه واستمع إليه بهذه الكيفية تمكن مضمون الكلام فى نفسه ورسخ فى قلبه ، ويكون الكلام مشتملا على المعنى منطويا على البرهان حاملا معه الدليل .

سر القسم بالأمور المذكورة

وإنما حلف الله بهذه الأمور المذكورة لبيان عظم شأنها وإظهار جلالة قدرها ولفت العقول والأنظار إليها فهى من أعظم مخلوقاته وأكبر آياته الكونية الدالة على وحدانيته وإبداعه واتصافه بصفات الكمال

(١) أنظر مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى جـ ٢٨ ص١٩٣ .

والجلال التى لا تتناهى ، وفى هذه الأشياء المقسم بها عبر وعظات بالغات تدل على سعة قدرته عز وجل فهى أمور بديعة غريبة مخالفة للطبيعة : فالرياح تثير التراب وتذروه هو وغيره ، وإلى جانب هذا تجمع الأبخرة المتفرقة التى تكون فوق المحيطات والبحار والأنهار وترفعها جهة السماء فتنعقد سحبا تحمل أبخرة ومياها، هذه الأبخرة والمياه تحملها السحب وتجرى بها إلى حيث أراد الله نزولها فيه فيصيب الله بها من يشاء ويصرفها عمن يشاء كما قال فى سورة الفرقان : ﴿ **ولقد صرفناه بينهم ليذكروا** ﴾[1] ، مع أن ذلك كله مخالف للطبيعة لأنها أجسام ومن شأن الأجسام وطبيعتها الهبوط لا الصعود .

وكذلك السفن تجرى فى الماء حاملة الناس وما يحتاجونه مما ينفعهم والماء سائل ومتحرك ومع ذلك يحملها على الرغم من ثقلها وثقل مافيها .

وأقسم الله تعالى بهذه الأمور المتغايرة على إثبات البعث ووقوع الجزاء لأن القادر عليها أقدرعلى البعث والإعادة والمجازاة من باب أولى ، فهى فى الحقيقة أدلة ساطعة وبراهين قاطعة على تحقق مضمون المقسم عليه وهو صدق البعث ووقوع الجزاء لأنها أمور عجيبة غريبة ، وعجبها وغرابتها من جهة ما يصدر عنها من الأفعال المدهشة المتناقضة :

فالرياح التى من شأنها التفريق والبث جمع الله بها الأبخرة المتفرقة على سطح الماء ، ثم رفعها بالرياح إلى السماء حتى صارت سحابا ثقالا منعقدا يحمل فى خلاله مطرا وهو أثقل من الجبال كما قال تعالى فى سورة النور : ﴿ **ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله**

---

(١) سورة الفرقان ٥٠ .

ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ﴾[1]

وهى مع كونها أجساما لطيفة ثقيلة من طبيعتها الهبوط رفعت بقدرة الله تعالى ، وكذلك السفن الجارية على وجه الماء المضطرب المرتعش المتحرك السائل تجرى مع ثقلها بالأحمال الكثيرة الكبيرة الثقيلة لمصلحة العباد ومنافعهم حتى تصل إلى الأغراض المطلوبة ، وذلك بقدرة الله وحفظه ورعايته لها من الهلاك والغرق ونحوه .

وكذلك الملائكة المكرمون المطهرون الذين يقسمون الأرزاق والأمطار وشئون العباد والخلق بأمره تعالى حتى يظهر لهم فضل بنى آدم وكرامتهم الذين عجبوا من جعل أبيهم آدم خليفة فى الأرض ــ وهم ورثوا هذه الصفة عن أبيهم ــ فسألوا ربهم بقولهم الذى حكاه الله فى سورة البقرة : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون** »[2] .

ترتيب القسم

وهذا ترتيب تصاعدى فى القسم فإن الرياح شأنها وطبيعتها التفريق لكن الله تعالى جعلها تفرق وتجمع ، ثم كان القسم بما هو أغرب وهو السحاب الذى هو جسم ثقيل يحمل ما هو أثقل منه وهو الماء ، والكل طبيعته الهبوط ، ثم كان القسم بالسفن الثقيلة المحملة بالأثقال والأحمال العظام وهى تمشى على الماء المضطرب الذى يحملها بما فيها وتمخره ، وذلك أشد غرابة وأكثر عجبا ، وكل بإرادة الله تعالى وقدرته ، ثم أقسم بالملائكة المكلفين بوظائف مختلفة يؤدونها على الوجه الأكمل والإحكام الأتم ، فمن قدر على هذه الأمور الغريبة العجيبة المتباينة وجمع بينها وأحكم تدبيرها فهو على البعث والمجازاة أقدر ويكون

---

(١) سورة النور : ٤٣ .　　(٢) سورة البقرة ٣٠ .

البعث أهون عليه كما قال : ﴿ **ما خلقلكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة** ﴾[1] ، وقال : ﴿ **وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه** ﴾[2].

وعلى جعل المقسم به أمورا متباينة كما تقدم تكون الفاء العاطفة للترتيب فى القسم والذكر كأن الله تعالى قال : أقسم بالرياح الذاريات ، ثم بالسحب الحاملات ،ثم بالسفن الجاريات ، ثم بالملائكة المقسمات .

وهذا هو الأولى للأدلة السابقة ولأنه أدل على قدرة الله تبارك وتعالى وإكرامه لعباده وعنايته بخلقه ، سبحانه جل وعلا .

وعلى أنها صفات لموصوف واحد وهو الرياح تكون الفاء لبيان ترتيب الأمور الناشئة عنها والمترتبة عليها فى الوجود[3]

فالرياح تذرو التراب ونحوه ، وتنشىء السحاب بجمع الأبخرة وتصعيدها والتأليف بينها حتى تنعقد سحابا ، ثم تجريه حاملا المطر إلى حيث أراد الله ، ثم تقسمه على المواطن المحددة .

كل ذلك بتصريف الرياح بأمر الله تعالى : ففى الرياح عبر كثيرة لاتحصى : فى هبوبها وسكونها ولينها وشدتها واتجاهاتها واختلاف طبائعها ومنافعها وعواقبها وغاياتها إلى غير ذلك مما يختص بها .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه

ونلاحظ أن المناسبة قائمة بين المقسم به والمقسم عليه وهو البعث والجزاء لأنها متحركات وفى البعث حركة وجمع وتفريق أى جمع

(١) سورة لقمان ٢٨ . (٢) سورة الروم ٢٧ .

(٣) أنظر الكشاف للزمخشرى جـ ٤ ص٢٦ ، والبحر المحيط لأبى حيان جـ ٨ ص١٣٣ ، ولباب التأويل للخازن جـ ٦ ص ٢٤١ ، وغرائب القرآن للنيسابورى جـ ٢٧ ص٦ ، وإرشاد العقل السليم لأبى السعود جـ ٨ ص ١٣٦ .

الأشلاء المتناثرة إلى ما كانت عليه من قبل وجمع الأرواح وحلولها بالأبدان وإحياؤها وجمع الأمم المتفرقة المتباعدة فى الزمان على طوله وسوق الكل إلى المحشر للحساب والجزاء ثم تفريقهم فهو : ﴿ **يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير** ﴾[1] فأقسم سبحانه وتعالى بالمتحركات لإثبات البعث والجزاء والمناسبة ظاهرة بينهما[2] .

وأقسم الله تعالى لإثبات الوحدانية فى صدر سورة الصافات فقال : ﴿ **والصافات صفا ، فالزاجرات زجرا ، فالتاليات ذكرا ، إن إلهكم لواحد** ﴾[3] ، وعلى إثبات الرسالة فى صدر سورة يس وسورة النجم فقال فى أول سورة يس : ﴿ **يس ، والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين ، على صراط مستقيم** ﴾[4] ، وقال فى أول سورة النجم : ﴿ **والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى** ﴾[5] ، وأقسم هنا على إثبات البعث والجزاء ، فاستوفى سبحانه وتعالى فى صدر هذه السور القسم على إثبات وتأكيد الأصول الثلاثة التى لا يتم إيمان المرء إلا بها وهى التوحيد والنبوة والبعث .

سر تكرار القسم هنا

وتكرر القسم فى هذه الآيات لتأكيد المقسم عليه وتقريره وتثبيته فى قلوب العباد وترسيخه فى عقولهم وانتقاشه فى صدورهم ليستيقنوه حق الاستيقان ، ولا يكون لهم أدنى عذر بعد ذلك البيان .

فما أروع القرآن وما أحكمه ، وما أبدعه وما أعظمه .

---

(١) سورة الشورى ٧ .

(٢) أنظر مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى جـ ٢٨ ص ١٩٥ .

(٣) سورة الصافات ١ — ٤ . (٤) سورة يس ١ — ٤ .

(٥) سورة النجم ١ — ٤ .

موقف المشركين من البعث والجزاء

بعد القسم عليهما

قال الله تعالى :

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) ﴾

صلة الآيات بما قبلها

وهذه الآيات الكريمة متصلة بما قبلها مرتبطة بها إذ فى القسم بالسماء هنا بعد القسم بالذاريات وما بعدها ترق من أدنى إلى أعلى فى القسم لسوء موقف المشركين وتعنتهم .

معنى السماء ورأى العلماء فى المراد بها

« والسماء » فى اللغة : كل ما علاك وأظلك ، فسقف الحجرة وسقف المسجد والسحاب وغير ذلك مما يعلو الإنسان ويظله يعد سماء .

واختلف العلماء فى المراد بالسماء هنا :

فقيل إنها السماء الدنيا وهى الجرم المرفوع المعروف من جهة العلو ، وتكون (أل) للعهد .

وقيل إنها السماء السابعة ، وتكون (أل) للعهد كذلك .

وقيل إنها جنس السماء وليس المقصود بها سماء معينة واحدة ،

وتكون (أل) للجنس ، فتشمل أى سماء من السماوات السبع .

والمعروف أن السماء جرم شفاف لا يحجب ما وراءه ، وهى بعيدة عن الأرض بعدا شاسعا ، وبين كل سماء وأختها بون شاسع لا يعلم قدره ومداه فى الحقيقة إلا الله تعالى جده وتبارك اسمه .

سر القسم بالسماء

وفى هذا القسم بيان لعظمة السماء وعظمة ما فيها ومن فيها وتوجيه الأنظار إليها للتفكر فيها والتأمل والتبصر فى خلقها وإبداعها ورفعها بغير عمد ، والله عز وجل يدعونا فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم إلى النظر والتأمل فى السماوات والأرض واستلهام العبر واستكشاف العظات والآيات المبثوثة فيهما ، ويوبخ من لا ينظر فيهما ولا يتأمل ولا يلقى لهما بالا وينعى عليه كقوله من قبل فى سورة ق : ﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب** ﴾[1] ، وقوله فى سورة آل عمران : ﴿ **إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب** ﴾[2] ، وقوله فى سورة يونس عليه السلام : ﴿ **قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون** ﴾[3] ، وقوله فى سورة يوسف عليه السلام : ﴿ **وكأين من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون** ﴾[4] ، وغيرها من الآيات الكثيرة التى يطول ذكرها .

و (الحبك) : جمع : حباك كمثال ومثل ، وكتاب وكتب ،

---

(١) سورة ق ٦ — ٨ . (٢) سورة آل عمران ١٩٠ . (٣) سورة يونس عليه السلام ١٠١
(٤) سورة يوسف عليه السلام ١٠٥ .

معنى الحبك والمراد به

أو جمع : حبيكة كطريقة وطرق ، ويجوز أن يقال — في غير القرآن — : حبائك ، جمع حبيكة كطرائق جمع طريقة ، وسبائك جمع سبيكة .

واختلف المفسرون فى وصف السماء بالحبك وتعيين معناه :
فقال بعضهم كالضحاك بن مزاحم والفراء إن المراد بالحبك : الطرائق التى فى السماء ، والطرائق يجوز أن تكون المحسوسة وهى : منازل النجوم والكواكب ومساراتها ، ويجوز أن تكون الطرائق المعقولة أى التى تدرك بالعقل والتفكير والنظر والبصيرة[1] .

ولا ريب أن النظر فى طرائق السماوات بنوعيها يوصل إلى الاستدلال على قدرة الله عز وجل ووحدانيته وكمال ذاته وصفاته وأفعاله .

وتوصف السماوات السبع كلها بالطرائق أخذا من قوله تعالى فى سورة المؤمنون : ﴿ **ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وماكنا عن الخلق غافلين** ﴾[2] .

وقال بعضهم كالحسن البصرى وسعيد بن جبير رحمهما الله تعالى إن المراد بالحبك : الزينة ، فالنجوم والكواكب زينة السماء ووشى لها ومصابيح فيها ، ويؤيد هذا قوله تعالى فى سورة الصافات : ﴿ **إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب** ﴾[3] ، وقوله تعالى فى سورة

(١) ويشير إلى هذا قوله تعالى فى سورة آل عمران ١٩١ : ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ﴾ : الآية ، وانظر المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ١٠٦ وإرشاد العقل السليم لأبى السعود جـ ٨ ص ١٣٧ وروح المعانى للألوسى جـ ٢٧ ص ٤ .

(٢) سورة المؤمنون ١٧ .　　(٣) سورة الصافات ٦ .

الملك ﴿ **ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ...** ﴾[1] وغيرها من الآيات .

وقال بعضهم كمجاهد بن جبر وقتادة بن دعامة والربيع بن أنس وابن الأعرابى رحمهم الله إن المراد بالحبك : الإتقان والإحكام يقال : فلان أحبك الشيء إذا أحسن صنعه وأبدع فيه وأتقنه .

ولا شك أن السماء دقيقة الصنع محكمة البناء متقنة بديعة غاية الإبداع قال تعالى فى أواخر هذه السورة : ﴿ **والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون** ﴾ ، وقال فى سورة الملك : ﴿ **الذى خلق سبع سماوات طباقا ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير** ﴾[2] : وقال فى سورة النبأ : ﴿ **وبنينا فوقكم سبعا شدادا** ﴾[3] وغيرها من الآيات الكثيرة .

وقيل إن المراد بالحبك تكسر الشيء مأخوذ من حبك الرمل ، وحبك الماء الراكد حين يمر الهواء بهما ويكون فيهما تكسر وطرائق ، ويقال : شعره حبك : إذا كان منكسرا متثنيا جعودته طرائق[4] .

ولا شك أن هذا التكسر يعطيها الزينة والجمال ويخلع عليها البهجة والكمال .

لا تعارض بين الأقوال

وكل هذه المعانى المذكورة فى تفسير ــ الحبك ــ متقاربة متلازمة ولا تنافى بينها فكلها تجتمع فى السماء وتنطبق عليها دون تعارض ولا تضاد ففيها الزينة والبهاء والجمال والسناء والإبداع وإحكام

(١) سورة الملك ٥ . (٢) سورة الملك ٣ ــ ٤ . (٣) سورة النبأ ١٢ .

(٤) أنظر غريب القرآن للسجستاني ص ١٥٧ . والصحاح للجوهرى ص ١٥٧٨ والقاموس المحيط للفيروزابادى جـ ٣ ص ٢٩٧ .

البناء كما ورد عن ابن عباس وغيره من سلفنا الصالح رضى الله تعالى عنهم وأرضاهم وحشرنا معهم ، فإنها من جمالها مرتفعة بغير عمد شفافة ذات رونق وبهاء متسعة الأرجاء شديدة البناء لا يعلم مدى اتساعها وإحكام بنائها وعظمتها وعظمة ما فيها ومن فيها إلا الله باريها ، ومكللة بالنيرين الشمس والقمر ، وبالنجوم الثوابت والسيارات ، والكواكب الزاهرات .

﴿ إنكم لفى قول مختلف ﴾

اختلاف الكفار واضطرابهم

وهذه الآية هى جواب القسم ، والخطاب هنا موجه إلى المشركين المعاندين الذين أنكروا البعث بعد وضوح آياته وسطوع براهينه .

فالكفار مضطربون فى عقائدهم متناقضون فى آرائهم مختلفون فى أفكارهم مختلون فى عقولهم مختلفون فيما بينهم اختلافا بينا ، فهم يقولون إن الله هو خالق السماوات والأرض . وهو الرزاق . وهو مدبر الأمر . وهو المحى والمميت . والمسخر للشمس والقمر . والمنزل من السماء الماء . والمحى بالماء للأرض بعد موتها . ومالك الأرض ومن فيها . ورب السماوات السبع . ورب العرش العظيم . وبيده ملكوت كل شىء والمجير ولا يجار عليه .... وغير ذلك من الصفات الحميدة والنعوت المجيدة ، ومع ذلك يعبدون معه آلهة أخرى وهى الأصنام التى ابتدعوها لأنفسهم من دون الله ولا تملك لهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، ووصفوا الله سبحانه بأن له إناثا وهم الملائكة مع أن الملائكة عباد الله المكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهم دائموا التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير لله عز وجل لا يفترون ولا يسأمون ، والله تعالى منزه عن الولد وعن الزوج وهو الغنى الحميد .

ووصفوا الرسول محمدا ﷺ الذى عاش بين ظهرانيهم ويعرفونه تمام

المعرفة وصفوه بأنه ساحر وبأنه مجنون وبأنه شاعر وبأن به مسا من الجن ، وهذا تناقض يخالف الحق وكلام خال من الصدق ومخالف للواقع ، فالساحر لا يكون مجنونا وإنما يكون ذكيا ماهرا بارعا خفيفا ، والمجنون مختل العقل فلا يكون ساحرا ولا شاعرا ، والرسول ﷺ مرسل إلى الجن كما أنه مرسل إلى الإنس وهو محفوظ بحفظ الله ومعصوم بعصمته وكلاءته فكيف يصاب بمس منهم ؟؟ ، وكيف يكون رجلا مسحورا ؟؟ .

ووصفوه بأنه لا يصلح للنبوة لأن النبوة — فى زعمهم — لا تكون فى البشر ، ولأنه يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ولأن له أزواجا وذرية ، وطالبوه بمطالب غريبة تدل على تعنتهم ولجاجهم وعتوهم وعدم إيمانهم حتى اضطربوا فى وصفه وفى مطالبهم منه ، وصدق الله العلى العظيم فى قوله عنهم :

﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾(١) .

ووصفوا القرآن الكريم الذى أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض على رسوله ﷺ بأنه سحر وبأنه شعر وبأنه قول كاهن وبأنه أساطير الأولين اكتتبها وبأنه إفك مفترى وأعانه عليه قوم آخرون وبأنه أضغاث أحلام .

كل هذه الأوصاف المذكورة العارية عن الحق ناشئة من اضطرابهم وتخبطاتهم وضلالاتهم وإسلامهم قيادهم وأزمَّة أمورهم لشياطينهم ، وهى أوصاف وأقوال تدل على شدة حيرتهم وقوة اضطرابهم ، وأنهم قالوا منكرا من القول وزورا واحتملوا بهتانا وكفرا

(١) سورة الفرقان ٩ .

مبينا .

ووصفوا البعث بالاستحالة : ﴿**وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين**﴾[1] ، وقالوا ما يهلكنا إلا الدهر ولن نبعث ، ومرة يقولون إن بعثنا فستشفع لنا آلهتنا ، وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وستكون لنا المنزلة العليا ونكون أعزة كحالنا فى الدنيا .

فالمشركون فى أمر مريج وعقائد مضطربة وأقوال متناقضة وأفكار مختلة بسبب إبائهم الإيمان بنبيهم والاهتداء بما جاءهم به البشير النذير والسراج المنير ، وهذه الحال شأن كل من حاد عن الحق وجانب الصراط المستقيم ، تكون نتيجته وحالته أنه يضل فى حياته ويشقى ، ويشذ ويغوى ، وفى جهنم يهوى .

وجملة ﴿ **إنكم لفى قول مختلف** ﴾ اسمية ومؤكدة بإن واللام مما يدل على جمود المشركين والكفار على عقائدهم الزائفة واستمرارهم على آرائهم الزائغة .

وكلمة (قول) نكرة تفيد حقارة عقائدهم وصغار أفكارهم وتفاهة أقوالهم على تنوعها وكثرتها واختلافها .

عموم الخطاب

وقيل إن الخطاب فى هذه الآية الكريمة لكل من هو أهل للمخاطبة أى إنه عام للمؤمنين وللكافرين معا :

فالمؤمنون يؤمنون بالله وبجميع ما أنزله على أنبيائه إيمانا كاملا ويوقنون به ويتقون الله ويقولون قولا سديدا .

أما الكافرون فعقائدهم مضطربة متناقضة لا تساير ما أنزل الله على

---

(١) سورة الأنعام ٢٩ .

أنبيائه ، بسبب عدم إيمانهم إيمانا صحيحا ، فلا يذكرون ولا يخشون الله ولا يقولون الحق والصدق ، فضلوا ضلالا بعيدا .

ومن ثم فإن المؤمنين والكافرين على طرفى نقيض ، ويوجد بين الفريقين اختلاف واضح فى اتباع المنهج الإلهى والإيمان به .

﴿ يؤفك عنه من أفك ﴾ :

معنى يؤفك عنه من أفك

و (يؤفك) فعل مبنى للمجهول ، أو بتعبير أنسب مبنى لما لم يسم فاعله ، وذلك للعلم بالفاعل وهو الله تعالى ، ولتعليمنا الأدب مع الله فلا ننسب إليه الشر تأدبا وإجلالا وتقديسا واحتراما وإن كان الشر منه ومرادا له .

و (يؤفك) من أفك يأفك أفكا ، كضرب يضرب ضربا ، والإفك يطلق على أسوأ الكذب وأفحشه ، ومنه قوله تعالى فى سورة النور : **﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ﴾** الآية[1] ، وقوله تعالى فى سورة الجاثية : **﴿ ويل لكل أفاك أثيم ﴾**[2] .

والمراد هنا الصرف الشديد عن الحق ، كقوله تعالى فى سورة يونس عليه السلام : **﴿ فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾**[3] .

أى يصرف عنه من صرف ويدفع عنه من دفع .

مرجع الضمير فى « عنه »

والضمير فى (عنه) يجوز أن يعود على (ما توعدون) أى يصرف عن الإيمان بالبعث من صرف ، وقيل إنه عائد على (الدين) ، وقيل إنه عائد على (القرآن) المذكور فى آخر سورة ق ، وقيل إنه عائد على

---

(1) سورة النور ١١ .
(2) سورة الجاثية ٧ .
(3) سورة يونس عليه السلام ٣٢ .

(الرسول) ﷺ كما يفهم من الآيات ، وقيل إنه عائد على (الإيمان) المستفاد من سياق الآيات ، وهذا هو الأولى والأليق لأنه أعم وأشمل ويندرج تحته سائر الآراء السابقة .

ويجوز أن يعود الضمير فى (عنه) على القول المختلف ، ويكون المراد بالآية المؤمنين أى يصرف عن القول المختلف من صرفه الله عنه وعصمه ووفقه للإسلام .

وهذا القول — وإن كان جائزا — مرجوح لأن ظاهر الكلام أنه فى الكفار ، ولأن كلمة الإفك اشتهر استعمالها فى الصرف من خير إلى شر ، فهى كلمة تستعمل فى من يستوجب الذم[1] .

أوجه البلاغة

وهذه الجملة (**يؤفك عنه من أفك**) فيها جناس اشتقاق ، وفيها مبالغة حيث أسند الفعل إلى من وصف به ، فبين زيادة إفك المأفوك وشدة صرف المصروف ، فهذا يشبه فى المبالغة والتهويل قوله تعالى فى سورة طه فى فرعون ومن معه من الكافرين المغرقين : ﴿ **فغشيهم من اليم ما غشيهم** ﴾[2] ، وقوله تعالى فى سورة النجم فى قرية قوم لوط عليه السلام : ﴿ **والمؤتفكة أهوى ، فغشاها ما غشى** ﴾[3] .

القراءات الواردة فيها

وقرأ زيد بن على : (**يأفك عنه من أفك**) وهى قراءة شاذة ، أى يصرف الناس عنه من هو أفاك أثيم كذاب ، وهذا كقوله تعالى فى سورة لقمان : ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا : الآية[4] .

---

(١) أنظر البحر المحيط لأبى حيان جـ ٨ ص ١٣٥ ، وروح المعانى للألوسى جـ ٢٧ ص ٦ .

(٢) سورة طه ٧٨ .

(٣) سورة النجم ٥٣ — ٥٤ .

(٤) سورة لقمان ٦ .

كما قرىء (يؤفن عنه من أفن) وهى قراءة شاذة ، والأفن فساد العقل ، من قولهم . أفن الضرع إذا أنهكه حلبا ، أى يحرم عن الإيمان من حرم حرمانا شديدا من نور الله وهدايته[1] .

معنى الآية ومغزاها

وهذه الآية الكريمة تفيد أن الناس أمام الحق فريقان : فريق يصرف ويبعد عنه فى علم الله تعالى وقضائه وقدره ، وفريق آخر يهدى ويوفق إليه ويثبت عليه .

فمعنى الآية : يصرف عنه من صرف ، ويبقى عليه ويستمر من يبقى .

وتلوح الآية الحكيمة بالوعيد الشديد للكافرين والمشركين ، وبأن الله غنى عنهم حميد بدونهم ، بل غنى عن الخلق جميعا فلو أن الإنس والجن من أولهم إلى آخرهم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد ذلك فى ملكه شيئا ، ولو كانوا جميعا على أفجر قلب رجل واحد منهم ما نقص ذلك من ملكه شيئا .



(١) أنظر الكشاف للزمخشرى جـ ٤ ص ٢٧ . والبحر المحيط لأبى حيان جـ ٨ ص ١٣٥ .

جزاء الخراصين الكافرين

قال الله تعالى :

قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾

صلة الآيات بما قبلها:

وهذه الآيات الكريمة مرتبطة بما قبلها ارتباطا واضحا :

فالله عز وجل بعد أن أقسم على صدق البعث ووقوع يوم الدين والجزاء وعلى اختلاف أقوال الكفار وتناقضهم وذكر ما يفيد استغناءه عنهم بين هنا فى هذه الآيات أنهم يستحقون اللعن والطرد من رحمته لعقائدهم السيئة وضلالاتهم العمياء ولهوهم واستهزائهم بيوم الدين ، وأنهم يستحقون العذاب الأليم فى الآخرة حيث يصلوْن جهنم وبئس المصير .

فجملة (قتل الخراصون) وما بعدها تعد مستأنفة استئنافا بيانيا وجوابا لسؤال مقدر يفهم من سياق الآيات كأن سائلا قال : ما

جزاء هؤلاء المأفوكين عن الحق الذين يقولون أقوالا مختلفة متناقضة منافية للحق والواقع ؟ . فجاء الجواب بقوله تعالى : **قتل الخراصون** ... إلخ .

فبينها وبين ما قبلها شبه كمال اتصال وهى جملة إنشائية لأنها دعاء عليهم بمقت الله لهم وسخطه عليهم وحرمانهم من رضاه ورضوانه .

﴿ قتل الخراصون ﴾ :

معنى القتل والخرص

القتل : إزهاق النفس وقطع الحياة عنها أصلا ، والمراد به هنا : اللعن والطرد من رحمة الله تعالى .

وقد قيل إن إطلاق القتل على اللعن حقيقة عرفية والحقيقة العرفية لا تنفى المجاز إذ من المعلوم أن المجاز إذا اشتهر صار حقيقة عرفية ، ويؤيد أن القتل هنا بمعنى اللعن والطرد من رحمة الله تعالى قوله فى سورة التوبة عن الكفار : **﴿ قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾**[١] ، وقوله سبحانه فى سورة عبس : **﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾**[٢]

وجه بلاغى فى الآية

وإطلاق القتل على اللعن من باب الاستعارة فالملعون مطرود من رحمة الله تبارك وتعالى فاته رضا الله ورضوانه ، والمقتول فاتته نعمة الحياة وما فيها من الخير ، أى شبه اللعن بالقتل بجامع فوات الخير والحرمان منه فى كل ، ثم حذف المشبه واستعير المشبه به وأطلق عليه واشتق منه (قتل) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

و « الخراصون » : نائب فاعل لـ «قتل » ، والفاعل هو الله تعالى ، ولم ينسب القتل إليه للعلم بالفاعل ولتعليمنا الأدب معه سبحانه كما مر .

---

(١) سورة التوبة أو براءة ٣٠ .　　(٢) سورة عبس أو الأعمى ١٧ .

و « الخراصون » : جمع خراص ، والخرص فى اللغة معناه : الكذب والظن والحزر والتخمين(١) .

المقصود بالخراصين

فالخراصون هم الأفاكون المقدرون ما لا صحة له فى الواقع ولا أساس له فى الدين ويكون كلامهم مبنيا على الظن المحض والتخمين البحت ولا دليل معهم ، والمراد بهم : المشركون الذين وصفوا الله تعالى وتقولوا عليه الأقاويل ، وافتروا الكذب والأباطيل ، ووصفوا الرسول ﷺ والقرآن الكريم والبعث بما لا صحة له ، فـ (أل) فى (الخراصون) للعهد .

ومما يؤكد أن المراد بهم المشركون : الأوصاف التى جاءت بعد ذلك فى الآيات المذكورة ، ولأن الكلام من أول السورة معهم ، وقوله تعالى فى سورة الأنعام عنهم : ﴿**إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ..... إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون** ﴾(٢) ، وقوله تعالى فى سورة الجاثية : ﴿ **وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين** ﴾(٣) . وقوله سبحانه فى سورة النجم : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس .... إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا** ﴾(٤) .

ويلحق بهؤلاء المشركين كل الأفاكين الكافرين الذين يتخرصون فى

(١) أنظر غريب القرآن للسجستانى ص ١٥٧ . والمفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ١٤٦ . والمصباح المنير للفيومى ص١٦٦ ، والصحاح للجوهرى ص ١٠٣٥ والقاموس المحيط للفيروزابادى جـ ٢ ص ٣٠٠ .

(٢) سورة الأنعام ١١٦ ـــ ١٤٨ .

(٣) سورة الجاثية ٣٢ .

(٤) سورة النجم ٢٣ ـــ ٢٨ .

أصول الدين ويقدرون ما لا أساس له من الصحة أخذا من عموم الآيات .

أما الخرص فى الأمور الدنيوية كخرص الجنود وخرص النخل وتقدير ما عليه من رطب فإن ذلك وإن كان على سبيل الظن والتخمين لا يكون مذموما ولا يستحق صاحبه اللعن والطرد من رحمة الله إذا أخطأ وقال غير الصواب والواقع .

﴿ الذين هم فى غمرة ساهون ﴾ :

معنى الغمرة والمراد بها

هذا وصف للخراصين مبين لهم ، والغمرة تطلق على الشدة ، ومنه غمرات الموت أى شدائده وسكراته وأهواله ، ومن هذا المعنى قوله تعالى فى سورة الأنعام : **﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم .. ﴾** الآية[1]

فى الكلمة استعارة

وتطلق على التغطية بالماء الكثير ، والمراد بها هنا : شدة الجهل والغرق فى الضلالة ، وفى هذه الكلمة استعارة : شبه الإغراق فى الجهل والضلال بغمرة الماء للغريق بجامع التغطية والتغشية ، فالجاهل الضال غطاه جهله وضلاله وحجبه عن نور الحق ، والغريق غطاه الماء وغمره ، ففيه تشبيه المعقول بالمحسوس ، ثم حذف المشبه واستعير المشبه به للمشبه وأطلق عليه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف يقع خبرا للمبتدأ ، و (ساهون) خبر ثان .

معنى السهو

والسهو معناه : شدة الغفلة واللهو ، فالكفار غرقوا فى الضلالات وجرفهم تيار الجهل وسهوا وغفلوا عن مجرد التفكير فى النجاة وعن رؤية بصيص من نور الحق على الرغم من سطوع شمسه

---

(١) سورة الأنعام ٩٣ .

ووضوح آياته ودلائله ، فعاشوا فى ليل أليل وجاهلية جهلاء وضلالة عمياء وأمضوا حياتهم فى افتراءات وترهات وأكاذيب وتخرصات ، ولذا قال الله تعالى عنهم فى سورة المؤمنون مهددا : ﴿ **فذرهم فى غمرتهم حتى حين .... بل قلوبهم فى غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون** ﴾(١) ، وقال فى سورة الأنعام : ﴿ **قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون** ﴾(٢) .

ويجوز أن يكون الجار والمجرور (فى غمرة) متعلقا بـ (ساهون) . والإعراب الأول أولى لأن فيه إخبارا عنهم بخبرين ووصفهم بوصفين كل منهما يدل على شدة جهلهم ، وقوة نفورهم ، وبعدهم عن الحق المبين ، ونكوصهم عن الصراط المستقيم ، وعظم غفلتهم وذهاب قلوبهم ، ولا ريب أن الجهل عيب وقبيح والأشد منه عيبا وقبحا : الجهل بالجهل .

﴿ **يسألون أيان يوم الدين** ﴾ :

معنى السؤال

السؤال هو : الاستفسار عن الشيء ، أو طلبه ، والذى يكون فيه تلبية لطالبه وإعطاؤه يقال له : سؤل ، ومنه قوله تعالى فى سورة طه : ﴿ **قد أوتيت سؤلك يا موسى** ﴾(٣) .

وهذا الفعل يتعدى بنفسه إلى مفعول واحد ، وإلى مفعولين ، كما يتعدى بـ : عن . والباء .

إعراب أيان ومعناه

و « أيان » كلمة مركبة من أى الاستفهامية وآن الدالة على الزمان ، وهذه الصيغة (أيان) أداة استفهام يسأل بها عن المستقبل ، بخلاف « متى » فيسأل بها عن الماضى وعن المستقبل أى هى للسؤال عن الزمان مطلقا .

(١) سورة المؤمنون ٥٤ ــ ٦٣ .   (٢) سورة الأنعام ٩١ .   (٣) سورة طه ٣٦ .

و « أيان » لفظ مبنى على الفتح فى محل رفع خبر مقدم لأن اسم الاستفهام له الصدارة ، والجملة من المبتدأ المؤخر والخبر المقدم فى محل نصب مقول لقول مقدر ، وتقدير الكلام : يسألون فيقولون أيان يوم الدين ، أو مفعول به لـ (يسألون) لأنها تتضمن معنى القول .

المراد بيوم الدين وموقف المشركين منه

والمراد بـ (يوم الدين) : يوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة ، وله أسماء وأوصاف كثيرة فى القرآن الكريم والسنة المطهرة .

فالمشركون كانوا يسألون الرسول ﷺ عن مجيء يوم الدين سؤال سخرية واستهزاء ، واستبعاد واستخفاف وازدراء ، وهذا من دلائل جهلهم وغمرتهم ومن أمثلة سهوهم وغفلتهم ، ولم يقصدوا بسؤالهم الاستفسار عن يوم الدين للإيمان به والعمل له ، وإنما قصدوا الاستهزاء والتعنت والعناد فكانوا يقولون ما حكاه الله تعالى فى آيات أخرى : ﴿ **متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** ﴾[1] ، ويقولون كغيرهم : ﴿ **فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ ، بل قالوا ما حكاه الله عنهم فى سورة الأنفال :

﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾[2] .

ولو كانت عندهم نية الإيمان والاهتداء والتعقل لقالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ووفقنا لصالح العمل به استعدادا ليوم البعث والجزاء ، لكنهم ارتكبوا الحماقات ، وارتكسوا فى الضلالات ، وساروا فى دروب الظلمات ، وعاشوا فى غياهب

---

(١) سورة يونس عليه السلام ٤٨ وسورة الأنبياء عليهم السلام ٣٨ وسورة النمل ٧١ وسورة السجدة ٢٨ وسورة الملك ٢٥ .

(٢) سورة الأنفال ٣٢ .

التزهات ، كغيرهم من الأمم الكافرة الغابرة .

فائدة مجىء الفعل مضارعا

وجاء الفعل (يسألون) مضارعا للدلالة على كثرة أسئلتهم وتجددها وتكرارها واستحضار الصورة .

فهؤلاء الكفرة الفجرة وسموا بأربع سمات وهى :

الخرص الجائر المستوجب للعن والطرد .

الجهل المطبق المركب .

السهو الدائم المقرون بالغفلة الدائمة .

الاستخفاف بيوم الدين وما فيه وعدم الاستعداد له .

﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ :

« يوم » منصوب بفعل مقدر تقديره : اذكر ، أو بفعل مقدر تقديره : يقع ، وقيل غير ذلك .

معنى الفتن والمراد به

و « الفتن » معناه فى الأصل : عرض الجوهر على النار ليتبين جيده من رديئه وليزول عنه ما علق به من شوائب ، وتأتى هذه الصيغة أيضا بمعنى الابتلاء والاختبار ، والمراد بها هنا لازمها وهو : تعذيب الكفار وتحريقهم بالنار ، فالكلام من باب المجاز المرسل وعلاقته إطلاق الملزوم وإرادة اللازم .

وكلمة (يفتنون) تعدى بالباء . وفى . أى يحرقون بالنار ، وفى النار ، وعديت هنا بـ (على) على سبيل التضمين ، أو لأن على بمعنى فى ، أو للدلالة على شدة نار جهنم وتأججها حتى إن النار تفور بالكفار وتغلى بهم وهم يطفون على سطحها ووجهها كما يطفو الحب فى المرجل على نار قوية ، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى فى سورة الملك : ﴿ **إذا**

ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور ، تكاد تميز من الغيظ ﴾ الآية[1] ، وغيرها من الآيات .

فائدة الجملة إسمية — مجىء وجاءت الجملة إسمية لإفادة الدوام والاستمرار وأنهم مخلدون فى جهنم أبدا لا يخرجون منها .

الجواب مطابق لنية الكفار وسؤالهم — ولما كان سؤال الكفار عن يوم الدين سؤال استهزاء وتعنت واستبعاد أجابهم الله بهذه الآية التى هى فى صورة جواب[2] وليست جوابا محددا لموعد يوم الدين ، فجاء الجواب بما لا يشفى غليلهم ولا يمحو حيرتهم استهزاء بهم وسخرية منهم وتقريعا لهم .

فمثلا : إذا سأل سائل وقال : متى يأتى الوزير ؟ وقيل فى الجواب : يوم يأتى وكيله ، ولم يكن يوم مجىء الوكيل معروفا للسائل فإن هذا الجواب ليس جوابا محددا لموعد إتيان الوزير وقدومه وإنما هو فى صورة جواب لما فيه من إبهام وخفاء لموعد إتيانه .

فالكفار حين تعنتوا وعاندوا ولجوا فى عتو ونفور وسألوا للسخرية وسؤالا لايجدى أجابهم الله تعالى بما يناسب سؤالهم وحالهم ونيتهم وبما فيه ردع لهم وزجر وإهانة وخزى لهم فى الدنيا والآخرة وبما يتضمن أن علم وقوع يوم الدين وموعد إتيانه موكول إلى الله تعالى مستأثر بعلمه فـ « إليه يرد علم الساعة »[3] :

﴿ ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون ﴾ :

و« هذا » مبتدأ ، ويصح أن يكون صفة لـ « فتنة » ، والمراد بـ « الفتنة » هنا : العذاب ، أى ذوقوا عذابكم .

---

(١) سورة الملك أو تبارك ٧ — ٨ .

(٢) أنظر مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير لفخر الدين الرازى جـ ٢٨ ص ١٩٩ .

(٣) سورة فصلت ٤٧ .

استعجال الكفار للعذاب

وكان المشركون فى الدنيا يستعجلون العذاب استهزاء لاعتقادهم استحالة وقوعه بسبب اعتقادهم استحالة البعث بعد الموت ، ولتحدى رسول الله ﷺ ، ففى جملة (تستعجلون) مجاز مرسل علاقته السببية .

قال تعالى فى سورة الحج : ﴿ **ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده** ﴾[1] ، وقال سبحانه فى سورة العنكبوت : ﴿ **ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ، يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ، يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون** ﴾[2] ، وقال عز وجل فى سورة هود عليه السلام : ﴿**ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ، ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾[3] ، وقال عز من قائل فى سورة ص حاكيا كلامهم : ﴿ **وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب** ﴾[4] ، وغير ذلك من الآيات الدالة على تعنتهم وعتوهم وشدة بغيهم وصلفهم .

المعنى المقصود من أمرهم بذوق العذاب

فهذا الأمر يوجه إلى الكفار إهانة لهم وتحقيرا وتصغيرا وتقريعا وتوبيخا وتبكيتا فى الآخرة ، إذ كانوا ينتشون فى الدنيا ويتباهون فيها بعزتهم وقوتهم ويتسابقون فى اتباع خطوات الشيطان ويجحدون سبيل الرحمن ظلما وعلوا واستكبارا فى الأرض ومكر السيء ، فأذلهم الله فى الآخرة

---

(١) سورة الحج ٤٧ . (٢) سورة العنكبوت ٥٣ ــ ٥٥ .

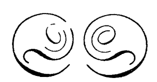
(٣) سورة هود عليه السلام ٧ ــ ٨ .

(٤) سورة ص ١٦ . والمقصود بقطهم : نصيبهم من العذاب بدليل الآيات الأخرى .

وأخزاهم وأكبهم فى جهنم ودعّهم فيها دعا وبئس المصير والقرار ، وعذبهم بالفعل وبالقول ليكون العذاب والإيلام لهم بدنيا ونفسيا .

فهذا الأمر يشبه الأمر فى قوله تعالى فى سورة الدخان : ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾[1] ، وقوله تعالى فى سورة النبأ : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾[2] .

وهذا الأمر موجه من الله تبارك وتعالى إليهم ، أو من الملائكة إليهم ، أو من الملائكة الذين هم خزنة جهنم .



(١) سورة الدخان ٤٩ .
(٢) سورة النبأ ٣٠ . وهذه الآية أصعب آية على الكافرين .

جزاء المتقين المحسنين

قال الله تبارك وتعالى :

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾

صلة هذه الآيات بما قبلها

وهذه الآيات متصلة بما قبلها اتصالا بينا : فالله تعالى لما ذكر عقاب الكفار الفجار الخراصين الآخذين بالظن والتخمين فيما يجب فيه القطع واليقين ، أعقبهم بذكر ثواب المؤمنين المتقين الأبرار الأطهار الآخذين بأدلة الحق واليقين .

فالعلاقة بين هذه الآيات وبين الآيات السابقة هى الضدية لأن فريقى الكافرين والمؤمنين متقابلان ، ومن عادة القرآن الكريم أنه يقرن الوعد بالوعيد ويجمع بين الترغيب والترهيب .

وهذه الآيات مستأنفة استئنافا بيانيا لأنها جواب لسؤال مقدر نشأ

من الكلام السابق كأن سائلا سأل : عرفنا إجرام الكافرين وموقفهم ومآلهم ، فما موقف المتقين وما عاقبتهم ؟ فقال تعالى ﴿ **إن المتقين فى جنات وعيون** ﴾ إلخ .

﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ﴾ :

أوجه بلاغية فى الآية

صدرت الجملة بـ « إن » لتأكيد مضمونها وبيان الاهتمام والعناية بشأن هؤلاء المتقين ، ولإدخال السرور والبهجة عليهم ، ولإذلال الكافرين وتحسيرهم فكل ما يسر المؤمنين ويبهجهم يسىء الكافرين ويخزيهم ويكبتهم .

وجاءت الجملة إسمية للدلالة على ثباتهم على التقوى وملازمتهم لها ، وعلى أنهم خالدون فى الجنات أبدا منعمون فيها نعيما لا ينفد ، ومحتفى بهم حفاوة دائمة سرمدية .

معنى المتقى والتقوى

ولفظ « المتقين » جمع متقى : اسم فاعل من : اتقى الشىء أى حذره واجتنبه ونأى عنه ، وهو من باب رمى يرمى .

ومعنى التقوى : طلب الوقاية ، ويكون بامتثال الأوامر واجتناب النواهى مع الاستعانة بالله سبحانه والاعتماد عليه فى كل حال ، قال جل شأنه فى سورة العنكبوت : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾[1] ، وقال فى سورة مريم : ﴿ **ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا** ﴾[2] ، وقال سبحانه فى سورة محمد ﷺ : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾[3] .

---

(١) سورة العنكبوت ٦٩ .　　(٢) سورة مريم ٧٦ .

(٣) سورة محمد ﷺ أو القتال ١٧ .

المراد بالمتقين هنا

و « المتقى » يطلق على من اتقى الشرك وحذره ، وهو أقل درجة فى التقوى .

ويطلق على من امتثل المأمورات واجتنب المنهيات والمكروهات ، وهو أعلى درجة وهو المراد هنا بدليل صفات المدح والثناء المذكورة فى الآيات .

وذكر الإمام الغزالى حجة الإسلام فى كتابه — إحياء علوم الدين — المتقين فى الدرجة الثالثة من درجات الورع ووصفهم بأنهم الذين يتركون الجائزات خشية أن يقعوا فى المحرمات ، قال ﷺ فيما رواه الترمذى وابن ماجة بسندهما عن عطية السعدى وكان من أصحاب النبى ﷺ : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به البأس »

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه — وقيل ابن عباس رضى الله عنهما — كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع فى الحرام[1] .

والمعروف فى الشرع أن المتقين بأنواعهم وتعدد أصنافهم وفئاتهم سيكونون فى الجنة كل فى درجته التى يستحقها ومنزلته التى هو أهل لها : ﴿ **ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون** ﴾ ، ﴿ **ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لايظلمون** ﴾[2] .

---

(١) أنظر سنن الترمذى أبواب صفة القيامة باب ١٤ جـ ٤ ص ٥١ وقال عنه : حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وسنن ابن ماجه كتاب الزهد باب الورع والتقوى ص ١٤٠٩ . وإحياء علوم الدين للإمام الغزالى كتاب الحلال والحرام ص٨١٤ — ٨١٧ — ونوع الإمام الغزالى الورع عن الحرام إلى أربع درجات : درجة العدول ، درجة الصالحين . درجة المتقين . درجة الصديقين ، وعرف كل درجة ومثل لها ، فانظرها فى الموطن المذكور .

(٢) سورة الأنعام ١٣٢ وسورة الأحقاف ١٩ .

﴿ فى جنات وعيون ﴾ :

معنى الجنة وسر مجيئها نكرة ومفردة ومثناة وجمعا فى القرآن الكريم

جنات مفردها جنة ، وجاءت منكرة لإفادة التعظيم فهى جنات لا يبلغ كنهها ولا يقادر قدرها .

والجنة : البستان أو الحديقة ذات النخل والأشجار الكثيرة والأنهار ، وسميت بذلك لأنها تجن أى تستر من بداخلها لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها .

ووصف الله تعالى فى سورة الكهف والقلم وغيرهما الحديقة فى الدنيا وصفها بالجنة[1] ، وشتان مابين جنة الدنيا التى يملكها بعض الأفراد وبين جنة الآخرة التى يملكها رب العباد والتى أعدها وهيأها وعرفها للمتقين .

وورد فى القرآن الحكيم ذكر الجنة مفردة كقوله تعالى فى سورتى الرعد ومحمد ﷺ : ﴿ **مثل الجنة التى وعد المتقون ....** ﴾[2] . ومثناة كما فى قوله تبارك وتعالى فى سورة الرحمن : ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾[3] .

ومجموعة كما فى الآية الكريمة التى نتكلم عنها .

ولعل الحكمة فى إفرادها أن الجنات لما كانت متصلة المنازل والأشجار والأزهار والثمار والأنهار ويتزاور فيها المؤمنون صارت كأنها جنة واحدة ، وأما تثنيتها فباعتبار مؤمنى الإنس والجن .

---

(١) أنظر الآية ٩١ سورة الإسراء . والآيات ٣٢ ــ ٣٣ ــ ٣٥ ــ ٣٩ ــ ٤٠ سورة الكهف . والآية ٨ سورة الفرقان . والآية ١٧ سورة القلم أو ن .

(٢) سورة الرعد ٣٥ وسورة محمد أو القتال ١٥ .

(٣) سورة الرحمن جل وعلا ٤٦ .

وأما جمعها فباعتبار تعدد المنازل والنظر إلى تنوع الدرجات وتفاوت المراتب ، وللدلالة على كثرة الإعطاء وسعة فضل الله وعميم رحمته ووسيع جوده ، فنعيمها لا يحصى ولا يحصر ولا يستقصى .

معنى عيون والمراد بها وفائدة مجيئها نكرة وجمعا

و « عيون » : جمع عين ، وهو لفظ مشترك يطلق على أشياء مختلفة ، والمراد به هنا : العين الجارية « عين الماء » أى الأنهار التى تجرى بين أشجار الجنات وفى خلالها وهى عيون ماء ، قيل إنها الأنهار المذكورة فى سورة محمد ﷺ وهى : أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى »[1] .

وهذا التفسير أولى وأجدر بالقبول لأنه من تفسير القرآن بالقرآن .

وجاءت كلمة « عيون » نكرة وجمعا لإفادة التعظيم والتكثير والتنويع .

المعنى العام

فالمؤمنون الذين راقبوا الله عز اسمه وتعالى شأنه — فى الدنيا وامتثلوا ما أمرهم به واجتنبوا مانهاهم عنه وصارت التقوى ديدنهم وسمتهم وصفة ثابتة ملازمة لهم وأشربت قلوبهم حبها كا فأهم الله تعالى فى الآخرة وتفضل عليهم بإدخالهم جناته وتخليدهم فيها يتنعمون بالسير فى بساتينها والمشى بين أشجارها السامية وخلال أنهارها الجارية ، ويتنزهون على شواطئها أقصى التنزه وغايته ، ويأكلون ويشربون ويلبسون ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم ، ويتمتعون بالحور العين القاصرات الطرف الأبكار العرب الأتراب ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، ويتحقق لهم جميع مايدعون .

---

(١) سورة محمد ﷺ أو القتال ١٥ .

وفوق ذلك كله يحظون برضوان الله ومغفرته وينعمون بالنظر إليه سبحانه والاستماع إلى صوته الطيب وهو يقرأ عليهم القرآن ويخاطبهم إكراما لهم وإرضاء وتطيبا لنفوسهم وقلوبهم .

الرد على من يسخرون من الجنة ويستخفون بها

وعلى هذا لا وجه لمن يدعى من أعداء الإسلام والملاحدة اللئام . أن لاقيمة ولا متعة لحياة الإنسان فى خضرة وماء .

ودعواهم الكاذبة ناشئة من جهلهم المركب وقلوبهم المريضة ونفوسهم المهيضة وهواهم الذى أعماهم وأصمهم وجعلهم يتوقفون عند هذه الآية الكريمة ونحوها ويتركون النظر فى الآيات القرآنية الأخرى والأحاديث الصحيحة الكثيرة التى تحدثت عن نعيم أهل الجنة الذى لا يتناهى ، ففيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء ، ولا يجوز قياس الآخرة على الدنيا فشتان مابينهما ، كما لايجوز تحكيم العقل والصدور عنه وإدخاله فى أمور الغيب لأن العقول قاصرة ومتفاوتة وبينها وبين الأمور الغيبية حجاب فلا يمكنها الوصول إلى شىء غيبى ، وإنما يجب عليها الإذعان الكامل والتسليم التام لما نطق به الوحى ، وصدق الله العظيم فى قوله فى سورة البقرة : ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[1] ، وقوله تعالى فى سورة لقمان : ﴿ **ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور** ﴾[2] ، وقوله سبحانه فى سورة السجدة :﴿ ..... **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾[3]

---

(١) سورة البقرة ١١٢ .

(٢) سورة لقمان ٢٢ ولقمان عبد صالح وليس نبيا ولارسولا .

(٣) سورة السجدة ١٧ .

﴿ **آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين** ﴾ :

« آخذين » : حال من الضمير المستكن فى متعلق الجار والمجرور « فى جنات » : أى إن المتقين كائنون فى جنات وعيون حال كونهم آخذين إلخ .

معنى الأخذ والمراد به

والأخذ فى الأصل : تناول الشيء وتلقيه مطلقا أى سواء كان عن قبول ورضى أو عن غير قبول ورضى ، لكن المراد به هنا : أخذ وتلقى ما يؤتيهم الله تعالى من ثواب ونعيم عن قصد ورضى وقبول وغبطة وسرور وحبور ، بدليل سياق الآيات ، ولأن المقام مقام مدح وثناء .

فائدة ذكر « ما »

وذكر « ما » هنا يفيد العموم والشمول ويدل على أن نعيم الجنة والجزاء العظيم لا يحصى ولا يستقصى ولا يعلم كنهه وحقيقته وأنواعه على وجه الكمال إلا الله عز وجل .

فائدة مجيء الفعل ماضيا وسر التعبير باسم الفاعل

ومعنى « آتاهم » : أعطاهم ، وجاء الفعل بصيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع وإنتفاء الشك فى ذلك[١] ، فكل ما وعد الله به عباده سيقع حتما ولذلك ورد التعبير عنه فى القرآن الكريم أحيانا بصيغة الماضى لإفادة حتمية الوقوع وتأكده : ﴿ **وعد الله لا يخلف الله وعده** ﴾[٢] ، ولأن المتقين حين عملوا الأعمال الصالحة فى الدنيا وإستحقوا الجزاء عليها الذى هو ثمرة أعمالهم وجناها آتاهم الله فى الآخرة الجزاء الذى إستحقوه وإستأهلوه فى الدنيا .

وهذا الجزاء العظيم لا يأخذه المتقون فى الآخرة مرة واحدة أو دفعة ، وإنما يأخذونه شيئا فشيئا — لكثرته ووفرته — بدليل إسم الفاعل « آخذين » ، ويتنعمون نعيما دائما لا ينتهى ولا ينقضى ،

---

(١) أنظر غرائب القرآن للنيسابورى جـ ٢٧ ص ٨ .

(٢) سورة الروم ٦ .

ويتحقق لكل واحد منهم طلبه من النعيم ، فهم خالدون فى الجنات ، والنعيم المتكاثر خالد معهم ومتنوع لهم .

ذكر الربوبية أنسب بالمقام

وذكر الربوبية هنا « ربهم » هو الأنسب بالمقام لأن المقام مقام تفضل وإمتنان من الله تعالى وعطاء ، فالله رباهم فى الدنيا على موائد نعمه وأسبغها عليهم ظاهرة وباطنة وأكرمهم بإرسال رسله مبشرين ومنذرين وتعهدهم بالعناية والرعاية والهداية والتوفيق والرشاد والسداد ، ثم ختم لهم بالإيمان ، ثم أدخلهم الجنة بسلام : ﴿ **وما كان عطاء ربك محظورا** ﴾[1] .

دخول الجنة بفضل الله ورحمته

والآية الكريمة تفيد أن دخولهم الجنة بفضل الله ورحمته وإحسانه وإكرامه وليس حقا واجبا لهم على الله سبحانه ، كما قال فى سورة النور : ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء** ﴾[2] ، وغيرها من الآيات الكريمة .

فإن يثبنا فبمحض الفضل وإن يعذب فبمحض العدل

أما الآيات التى تفيد أن دخول الجنة يكون بالأعمال الصالحة فهى لا تتعارض مع هذه الآية ولامع غيرها من الآيات والأحاديث التى تفيد أن دخول الجنة بفضل الله تعالى ورحمته :

فالله عز وجل هو الذى أقدر العبد على العمل الصالح ووفقه إلى أدائه وإحسانه وإتمامه ، وتقبله منه ثم أثابه عليه وجزاه الجزاء الأوفى ، وكل ذلك من فضل الله ورحمته ، فالعمل الصالح فى الحقيقة والأصل مخلوق لله تعالى ، بل العبد ذاته مخلوقه ، كما قال سبحانه فى

(١) سورة الإسراء ٢٠ . (٢) سورة النور ٢١ .

سورة الصافات : ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾(١) ، وقال في سورة الزمر : ﴿ **الله خالق كل شيء** ﴾(٢) .

ومن فضله وإحسانه وبره ورحمته بعبده أنه خلق العمل ونسبه إلى عبده وأثابه عليه والعبد ليس له إلا مجرد الكسب ، سبحانه : ﴿ **إنه هو البر الرحيم** ﴾(٣) .

قال ﷺ فيما رواه الشيخان وابن ماجه والدارمى وأحمد وغيرهم بأسانيدهم إلى أبى هريرة رضى الله تعالى عنه :

« لن يدخل أحدكم الجنة بعمله — أى بمجرد عمله الصالح — قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل منه ورحمة »(٤) .

أو أن أصل الدخول للجنة بفضل الله ورحمته ، أما منازلها ودرجاتها فبالأعمال الصالحة وعلى قدرها :

روى الترمذى وابن ماجه وغيرهما بسندهم عن أبى هريرة رضى الله

---

(١) سورة الصافات ٩٦ . (٢) سورة الزمر ٦٢ . (٣) سورة الطور ٢٨ .

(٤) أنظر صحيح البخارى كتاب الرقاق باب القصد والمداومة على العمل جـ ٨ ص ١٢٢ . وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى جـ ٥ ص ٦٨١ وما بعدها . وسنن ابن ماجه كتاب الزهد باب التوق على العمل ص ١٤٠٥ . وسنن الدارمى كتاب الرقاق باب لاينجى أحدكم عمله جـ ٢ ص ٣٠٥ . ومسند أحمد فى مواطن كثيرة هى : جـ ٢ ص ٢٣٥ / ٢٥٦ / ٢٦٤ / ٣١٩ / ٣٢٦ / ٣٤٤ / ٣٨٦ / ٣٩٠ / ٤٥١ / ٤٦٦ / ٤٦٩ / ٤٧٣ / ٤٨٢ / ٤٨٨ / ٤٩٥ / ٥٠٣ / ٥٠٩ / ٥١٤ / ٥١٩ / ٥٢٤ / ٥٣٧ — و جـ ٣ ص ٥٢ / ٣٣٧ / ٣٦٢ — و جـ ٦ ص ١٢٥ .

وفى الباب روايات عن أبى سعيد الخدرى وجابر بن عبد الله وعائشة رضى الله تعالى عنهم .

تعالى عنه قال : قال ﷺ : « إن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم »(١) .

صلة الآية بما قبلها وفائدة مجيئها اسمية

﴿ إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ :

وهذه الجملة مستأنفة إستئنافا تعليليا ، فهى تعليل وبيان لسبب أخذ المتقين الثواب العظيم من الله تعالى فى الآخرة ، وتنعمهم الدائم فى الجنات الدائمة الخالدة .

وجاءت الجملة إسمية للدلالة على ثباتهم على الإحسان وإستمرارهم على إتقان أعمالهم الصالحة فى الدنيا وإستدامتهم على ذلك .

مرجع اسم الإشارة وسر مجيئه للبعد

وإسم الإشارة « ذلك » يعود على « يوم الدين » أى كانوا فى الدنيا قبل مجىء يوم الدين محسنين ، أو يعود على دخولهم الجنات المستفاد من قوله تعالى ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ﴾ أى كانوا فى الدنيا قبل دخولهم الجنات محسنين ، أو يعود على الإيتاء المستفاد من قوله تعالى ﴿ آتاهم ربهم ﴾ أى كانوا فى الدنيا قبل إيتائهم الثواب الجزيل محسنين .

وهذا الوجه الأخير هو الظاهر لأن مرجع الإشارة أقرب مذكور وإن كانت الأوجه الثلاثة لاتنافى بينها والتلازم واضح بيّن فيها .

وجاء إسم الإشارة — ذلك — للبعيد لبيان بعد الثواب فى المنزلة ورفعته وعظمته وفخامته .

معنى الإحسان

« محسنين » : خبر كان . ومادة الإحسان تتعدى بنفسها ،

(١) أنظر الحديث بطوله فى سنن الترمذى أبواب صفة الجنة باب ماجاء فى سوق الجنة جـ ٤ ص٩٠ — ٩١ . وسنن ابن ماجه كتاب الزهد باب صفة الجنة ص١٤٥٠ .

وبحرف الجر « فى » وبحرف الجر « إلى » ، تقول : أحسنت الشيء ، وأحسنت فى كذا ، وأحسنت إلى فلان ، والمقصود هنا هو المعنى الأول والثانى .

فالإحسان هو إتقان العمل والإتيان به على أكمل وجه وأتمه ، وفسره رسول الله ﷺ فى حديث جبريل — عليه السلام — المشهور الذى رواه الشيخان وأبو داود والترمذى وابن ماجه وأحمد وغيرهم بأسانيدهم عن عمر بن الخطاب وأبى هريرة وأبى عامر الأشعرى وغيرهم من الصحابة رضى الله تعالى عنهم : فسره بقوله : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] .

والمقام الأول فى الحديث هو مقام المشاهدة ، والمقام الثانى هو مقام المراقبة ، ولاريب أن الإحسان مطلوب من العبد فى كل عمل أسند إليه وكلف بالقيام به بل مطلوب فى كل شيء أخذا من عموم الآيات وعموم قوله ﷺ فيما رواه مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه والنسائى والدارمى بأسانيدهم عن شداد بن أوس رضى الله تعالى عنه :

« إن الله كتب الإحسان على كل شيء » الحديث[2] .

---

(١) أنظر الحديث بطوله فى صحيح البخارى كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبى ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبى ﷺ له جـ ١ ص٢٠ وكتاب التفسير تفسير سورة لقمان جـ ٦ ص١٤٤ . وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان إلخ جـ ١ ص١٢٣ — ١٤٠ . وسنن أبى داود كتاب السنة باب فى القدر جـ ٤ ص٢٢٣ — ٢٢٤ وسنن الترمذى أبواب الإيمان باب ماجاء فى وصف جبرئيل للنبى ﷺ الإيمان والإسلام جـ ٤ ص١١٩ — ١٢١ . وسنن ابن ماجه المقدمة باب فى الإيمان ص٢٤ — ٢٥ . ومسند أحمد جـ ٢ ص٤٢٦ وجـ ٤ ص ١٢٩ — ١٦٤ .

(٢) أنظر الحديث فى صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الصيد والذبائح باب الأمر=

والإحسان عمل الأرواح والضمائر كما قال العز بن عبد السلام ، العالم الهمام ، أما الإسلام فهو عمل الجوارح ، والإيمان عمل القلوب ، ويفهم هذا المعنى من حديث رسول الله ﷺ حين سأله جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان والإحسان إلخ وأجابه ﷺ وصدقه جبريل عليه السلام .

المعنى العام

فالمتقون وعدهم الله ووعده حق وصدق بأن يمن عليهم بالجنات والنعيم المقيم ويكرمهم ويحسن نزلهم فى الآخرة ويتفضل عليهم بما تشتهيه أنفسهم لأنهم كانوا فى الدنيا منقادين لما أمرهم به وأحسنوا أعمالهم الصالحة وأدوها كاملة وبإخلاص ففازوا وسعدوا فى الدنيا والأخرى ، وصدق الله العلى العظيم فى قوله فى سورة الرحمن : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾(1) ، وقوله تبارك وتعالى فى سورة يونس عليه السلام : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾(2) ، وقوله عز وجل فى سورة الحاقة : ﴿ **كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية** ﴾(3) .

= بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة جـ ٤ ص ٦٢٢ . وسنن أبى داود كتاب الأضاحى باب فى النهى أن تصبر البهائم والرفق بالذبيحة جـ ٣ ص١٠٠ . وسنن الترمذى أبواب الديات باب ماجاء فى النهى عن المثلة جـ ٢ ص ٤٣١ وقال : حسن صحيح . وسنن ابن ماجه كتاب الذبائح باب إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ص١٠٥٨ وسنن النسائى كتاب الضحايا باب الأمر بإحداد الشفرة جـ ٧ ص٢٢٧ . وسنن الدارمى كتاب الأضاحى باب فى حسن الذبيحة جـ ٢ ص٨٢ .

(1) سورة الرحمن سبحانه وتعالى ٦٠ .

(2) سورة يونس عليه السلام ٢٦ .

(3) سورة الحاقة ٢٤ .

﴿ كانوا قليلا من الليل مايهجعون ﴾ :

صلة الآيات بما قبلها

وهذه الجملة — ومابعدها — مستأنفة إستئنافاً بيانيا وبينها وبين ما قبلها شبه كمال إتصال ، فهى جواب سؤال مقدر نشأ من الكلام السابق كأن سائلا سأل : ما نوع إحسانهم وما كيفيته وما مظاهره ؟ فهى تعد تفسيرية لما قبلها وهو الإحسان ولا محل لها من الإعراب ، وهى مع ما قبلها كقولك : كان حاتم سخيا كان يبذل موجوده ولا يترك مجهوده .

ويجوز أن تكون بدل إشتمال من قوله تعالى : ﴿ **كانوا قبل ذلك محسنين** ﴾ : فإن إحسانهم يشتمل على القربات الثلاث المذكورة فى الآيات الثلاث ويكون محلها الرفع ، وهذا كقولك : كان علىٌّ خُلُقه حسنا .

معنى الهجوع

والهجوع هو النوم قليلا كان أم كثيرا ليلا أم نهارا ، وقيده بعض أهل اللغة كابن السكيت بالليل ، كما قيده بعضهم بالقليل وهو الظاهر ، وبابه خضع[1] .

إعراب (ما) وفائدة ذكرها

و « ما » يجوز أن تكون صلة أى زائدة من حيث اللغة والإعراب لا من حيث المعنى لأن وجودها يفيد تأكيد القلة وتحققها ويضفى على الآية رونقا وسناء وروعة وبهاء ونورا وضياء ، ولا يوجد فى القرآن الكريم حرف زائد يستغنى عنه المعنى ، وحين نقول عن حرف إنه صلة نقول ذلك تأدبا مع القرآن وإجلالا لهيبته وإحتراما لقداسته .

أى كانوا يهجعون قليلا من الليل ، أو كانوا يهجعون هجوعا

---

(١) أنظر الصحاح للجوهرى ص١٣٠٥ — ١٣٠٦ والمفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص٥٣٧ والمصباح المنير للفيومى ص٦٣٤ ، والقاموس المحيط للفيروزابادى جـ ٣ ص٩٨ .

قليلا بمعنى أنهم ينامون مدة قليلة من الليل ويحيون أكثره بالصلاة والعبادة .

ويجوز أن تكون « ما » مصدرية ، والمصدر المنسبك بها يكون بدل إشتمال من إسم كان أى كانوا هجوعهم قليلا من الليل .

ويجوزأن تكون « ما » إسم موصول أى كانوا قليلا من الليل الذى يهجعون فيه .

و « من » للتبعيض على كل الأوجه الآنفة .

وأجاز بعض العلماء كابن الأنبارى أن تكون « ما » نافية ، ﴿ **ومن الليل** ﴾ متعلق بيهجعون وهذا الوجه من الإعراب ضعيف فى اللغة لأن ما بعد — ما — النافية لا يعمل فيما قبلها(١)، ومع ضعفه فى النحو هو وجيه فى المعنى إذ فيه غاية المدح للمتقين المحسنين ببيان أنهم كانوا يحيون الليل كله فى العبادة والصلاة ولا ينامون أصلا ، وقد روى عن الحسن البصرى سيد التابعين رحمه الله أنهم ربما نشطوا فى العبادة فجدوا إلى السحر فيحيون الليل كله فى الصلاة ولا يهجعون ألبتة .

وأجاز بعض العلماء الوقف على « قليلا » ، وتكون « من » للابتداء ، أى كان المحسنون من العاملين الصالحات فى الدنيا قليلا فى العدد ، ثم ابتدىء الكلام بقوله ﴿ **من الليل ما يهجعون** ﴾ ، ومن هذا المعنى قوله تعالى فى سورة ص : ﴿ **وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما**

---

(١) انظر غرائب القرآن للنيسابورى جـ ٢٧ ص ٩ ، وإرشاد العقل السليم لأبى السعود جـ ٨ ص ١٣٨ .

هم ﴾[1] .

وهذا التوجيه يفيد نفى النوم عنهم أصلا ، والظاهر من الآية الكريمة أنها تفيد قلة نومهم لا قله عددهم .

فائدة تقديم القلة على الهجوع

وقدمت القلة على الهجوع مراعاة لفواصل الآيات ولجذب انتباه السامع والقارىء إلى شدة اجتهادهم وجدهم فى العبادة وتحملهم السهر فى طاعه ربهم ومكابدتهم المشقات فى سبيل رضى الله واستنزال الرحمات ، ففى تقديم القلة مبادرة ببيان قلة الهجوع لا الهجوع القليل ، ولو قدم الهجوع على القلة فلربما ينتبه السامع أو القارىء إلى الهجوع ويغفل عن قلته وهى المرادة ومرمى الثناء ومغزى المدح .

سر مدحهم بقلة الهجوع

ومدحهم الله — تبارك إسمه وتعالى شأنه — بقله الهجوع ولم يمدحهم بكثرة السهر كأن يقول : ﴿ **كانوا كثيرا من الليل مايسهرون** ﴾ : للإيحاء بأن هجوعهم كان عبادة فهم هجعوا بنية الراحة القليلة استعدادا لاستئناف العبادة فمدحهم بالهجوع القليل وهداهم إلى عبادة أخرى — بعد طردهم الكرى — وهى الاستغفار بالأسحار ، وهو وقت تجلى الرحيم الغفار .

ففى ذكر القلة وتقديمها وذكر الليل وذكر — ما — وذكر الهجوع دون غيره من الألفاظ : مبالغة عظيمة ومدح عاطر لهؤلاء المحسنين العاملين .

المعنى العام

فهؤلاء المتقون العاملون أحسنوا أعمالهم وتحملوا المشقات فى عبادة ربهم وطاعته وأسهروا ليلهم وقاموا فى جنح الليل يناجونه وتلهج ألسنتهم وأفئدتهم بذكره ولم يجعلوا الليل كله محلا للراحة والسكون أو

(١) سورة ص ٢٤ .

المرح واللهو كما فعل غيرهم ، وإنما جعلوه فرصة طيبة افترصوها فى الصلاة والعبادة ، ولم يناموا نوما خفيفا إلا قليلا من الليل بنية الإستعانة براحتهم على مواصلة العبادة ، فكان نومهم ذاته عبادة وكان نعاسا بين النوم واليقظة حتى لا يفوتهم الوقت ولا بركته السانحة السامقة ، ولا يضيع عمرهم سدى ، وصدق الله الكبير المتعالى فى قوله فى سورة السجدة : ﴿ **إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾[1] .

فضل قيام الليل

ولا ريب أن لقيام الليل وإحيائه بالعبادة ثوابا كبيرا وجزاء عظيما واقترابا من الله عز وجل ، وقد قال سبحانه فى سورة العلق : ﴿ **واسجد واقترب** ﴾[2] ، وورد فى بعض الروايات أنه كان فرضا على كل مكلف فى أول الإسلام وفجره ثم نسخ الله فرضيته بالصلوات الخمس — كما فى سورة المزمل — وصار سنة مؤكدة يواظب عليها من وفقه الله إلى طرق بابه والحياة فى رحابه والوقوف فى محرابه .

كما ورد فى فضله آيات كريمة وأحاديث كثيرة : فمن الآيات : الآيات السابقة من سورة السجدة والآيات التى معنا فى سورة الذاريات .

ومن الأحاديث مارواه مسلم والترمذى وأبو داود والنسائى

(١) سورة السجدة ١٥ — ١٧ .

(٢) سورة العلق ١٩ .

والدارمى وأحمد وغيرهم من المحدثين بأسانيدهم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : أفضل الصلاة بعد المكتوبة الصلاة فى جوف الليل ، وأفضل الصيام بعد شهر رمضان صيام شهر الله المحرم[1] .

وروى ابن ماجه والدارمى وغيرهما من المحدثين بأسانيدهم عن عبد الله بن سلام رضى الله تعالى عنه أنه قال :

أول ماقدم رسول الله ﷺ المدينة إنجفل الناس إليه ــ أى أسرعوا للقائه وإستقباله ــ فكنت ممن جاءه ، فلما تأملت وجهه واستبنته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، قال : فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال : أيها الناس : « أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام »[2] .

وروى الإمام الترمذى وأحمد وغيرهما بسندهم عن عبد الله بن عمرو ومعاذ بن جبل وعلى بن أبى طالب وغيرهم من الصحابة رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال : إن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الصوم باب فضل المحرم جـ ٣ صـ ٢٢٩ . وسنن الترمذى أبواب الصلاة باب ماجاء فى فضل صلاة الليل جـ ١ صـ ٢٧٤ وحسنه الترمذى . وسنن أبى داود كتاب الصوم باب فى صوم المحرم جـ ٢ صـ ٣٢٣ ، وسنن النسائى كتاب قيام الليل باب فضل صلاة الليل جـ ٣ صـ ٢٠٦ . وسنن الدارمى كتاب الصلاة باب أى صلاة الليل أفضل جـ ١ صـ ٣٤٦ . ومسند أحمد جـ ٢ / ٣٤٢ /٣٤٤ / ٥٣٥ .

(٢) انظر سنن ابن ماجه كتاب الأطعمة باب إطعام الطعام صـ ١٠٨٣ . وسنن الدارمى كتاب الصلاة باب فضل صلاة الليل جـ ١ صـ ٣٤٠ .

باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، فقال أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه : لمن هى يارسول الله ؟ قال ﷺ : لمن ألان الكلام ، وأطعم الطعام ، وبات لله قائما والناس نيام »[١]

وروى الترمذى وغيره بأسانيدهم عن بلال وغيره من الصحابة رضى الله تعالى عنهم أن رسول الله ﷺ قال :

« عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وهو قربة لكم إلى ربكم ، ومكفرة للسيئات ، ومنهاة عن الإثم ، ومطهرة الداء عن الجسد »[٢] .

وقد أثنى كذلك سلفنا الصالح رضى الله عنهم ورحمهم على قيام الليل وعلى من قاموه ، ووردت عنهم آثار منها :

ما قال الحسن البصرى رحمه الله : « كانوا قليلا من الليل مايهجعون » : كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلاأقله ، ونشطوا

---

(١) انظر سنن الترمذى أبواب البر والصلة باب ما جاء فى قول المعروف جـ ٣ ص ٢٣٨ ، وأبواب صفة الجنة باب ماجاء فى صفة غرف الجنة جـ ٤ صـ ٨٠وقال الإمام الترمذى : هذا حديث غريب ، وقد تكلم بعض أهل الحديث فى عبد الرحمن بن إسحق هذا من قبل حفظه ، وهو كوفى ، وعبد الرحمن بن إسحق القرشى مدينى وهو أثبت من هذا ا هـ . ومسند الإمام أحمد جـ ١ / ١٥٦ وجـ ٢ / ١٧٣ وجـ ٥ / ٢٤٣ .

(٢) انظر سنن الترمذى أبواب الدعوات باب ١١٢ ورواه أيضا عن أبى أمامة وقال : حديث أبى أمامة أصح من حديث أبى إدريس عن بلال » أى أصح سندا جـ ٥ صـ ٢١٣ ، وقال صاحب كنز العمال : رواه أيضا أحمد والحاكم والبيهقى عن بلال . والحاكم والبيهقى عن أبى أمامة ، وابن عساكر عن أبى الدرداء ، والطبرانى عن سلمان ، وابن السنى عن جابر ا هـ جـ ٧ صـ ٧٨٦ كنز العمال للمتقى الهندى ـــ وألفت نظر القارىء إلى أننى لم أجده فى مسند أحمد .

فمدوا إلى السحر حتى كان الإستغفار بسحر .

وقال قتادة بن دعامة السدوسى رحمه الله : قال الأحنف بن قيس رحمه الله : « كانوا قليلا من الليل مايهجعون » : كانوا لا ينامون إلا قليلا ، ثم يقول : لست من أهل هذه الآية :

وقال الحسن البصرى : كان الأحنف بن قيس يقول : عرضت عملى على عمل أهل الجنة فإذا قوم قد باينونا بونا بعيدا إذ نحن قوم لا نبلغ أعمالهم : كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وعرضت عملى على عمل أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم مكذبون بكتاب الله وبرسل الله مكذبون بالبعث بعد الموت ، فقد وجدت من خيرنا منزلة قوما خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : قال رجل من بنى تميم لأبى : يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا ، ذكر الله تعالى قوما فقال : ﴿ **كانوا قليلا من الليل مايهجعون** ﴾ ، ونحن والله قليلا من الليل مانقوم ؟؟ ، فقال له أبى : طوبى لمن رقد إذا نعس ، واتقى الله إذا إستيقظ(١) .

إلى غير ذلك من الأحاديث والآثار التى يطول ذكرها

وإذا كان بعض الصحابة والتابعين ذوى الصدارة فى الدين والمكانة العظمى فى الإيمان واليقين يقولون ذلك عن أنفسهم وعن حالهم فما نقول نحن عن أنفسنا وعن حالنا ونحن فى آخر الزمان والبوْن هائل بيننا وبينهم فى التقوى والإيمان والعمل الصالح ؟؟؟

---

(١) انظر جامع البيان للطبرى جـ ٢٦ صـ ١٩٨ ــ ١٩٩ . وتفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٤ صـ ٢٣٣ ــ ٢٣٤ . والجامع لأحكام القرآن للقرطبى صـ ٦٢٠٧ ــ ٦٢٠٨ .

نسأل الله رب العرش الكريم الحى القيوم العفو والعافية فى الدنيا والآخرة والهداية إلى الصراط المستقيم واستمساكنا به وثباتنا عليه إلى أن نلقاه فلا ملجأ من الله إلا إليه ونعوذ به منه ولا حول ولا قوة إلا به سبحانه جل وعلا .

﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ :

صلة الآية بما قبلها

وهذه الجملة معطوفة على جملة « يهجعون » ، والأسحار : جمع سحر وهو السدس الأخير من الليل ، وهو وقت يعز ويصعب القيام فيه على النائمين إلا من إجتباهم الله وإختارهم ووفقهم .

معنى الأسحار والاستغفار

والإستغفار : طلب غفران الذنب بمعنى ستره والعفو عنه ، فالسين والتاء للطلب .

معنى الباء وفائدة تقديم الجار والمجرور

و الباء فى « بالأسحار » بمعنى فى ، أى فى الأسحار يستغفرون الله لأن حروف الجر يمكن أن ينوب بعضها عن بعض .

ويجوز أن يكون فى معنى الباء هنا : الإلصاق والإتصال والمداومة أى يستغفرون الله منتهزين فرصة هذه الأوقات الطيبة المتلبسين بها والتى فيها البركة والرحمة ويرجى فيها إجابة الدعاء من باسط الأرض ورافع السماء .

وقدم الجار والمجرور مراعاة لرءوس الآيات ، ولبيان أهمية الأسحار وبركتها وفضلها ، وقد غفل عن فضلها ومكانتها الناس فى زماننا إلا من رحم ربك وقليل ماهم .

الحكمة من ذكرهم مرتين

وكرر ذكرهم فى الآية : مرة بذكر الضمير « هم » ، ومرة أخرى بذكر الواو فى « يستغفرون » للإيذان بأنهم أحقاء بالاستغفار

فى هذه الأوقات[1] ، فهم لكثرة إستغفارهم ولهج ألسنتهم به وكأ لهم فيه صاروا كأنهم المختصون بالإستغفار لا يتجاوزهم إلى غيرهم فالآية من باب قصر الصفة على الموصوف .

ولأن هذه الآية معطوفة على ماقبلها ، فلو لم تذكر « هم » لخطر بالبال أنهم مقلون فى الإستغفار كما أنهم مقلون فى الهجوع ، لكن ذكر « هم » وجمع « الأسحار » أفادا دوام الإستغفار وإتصاله وتجدده فى كل سحر من كل ليلة وعدم إنقطاعه فى ليلة من الليالى .

فائدة جمع الأسحار

فهؤلاء المحسنون كانوا يستغفرون الله لإعتقادهم أنهم قصروا فى العبادة ولم يقدروها حق قدرها ويأتوا بها على وجهها الأكمل .

المستغفرمنه

أو كانوا يستغفرون الله من القدر القليل الذى كانوا ينامونه فى الليل ، فهم مع إحسانهم أعمالهم ودوامه يعتبرون أنفسهم مذنبين ، ولذا كانوا يستغفرون بالأسحار كأنهم أسلفوا ليلهم باجتراح السيئات وإقتراف الجرائم والمنكرات .

ولا تنافى بين المعنيين وإرادتهما معا .

وكانوا يطلبون من الله الكريم ستر الذنب وعفوه بالقول كأن يقولوا : « ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإستر عيوبنا وامح زلاتنا » .

ويجوز أن يكون الطلب بالفعل أيضا كمواصلة الصلاة طلبا للغفران من الرحمن .

ولا تعارض بين المعنيين لأنهم كانوا يجمعون بينهما فى الليل .

---

(1) انظر الكشاف للزمخشرى جـ ٤ صـ ٢٨ . وإرشاد العقل السليم لأبى السعود جـ ٨ صـ ١٣٨ .

المعنى العام

فهؤلاء المحسنون العاملون الذين كانوا يحيون الليل فى العبادة ولا ينامون نوما خفيفا إلا قليلا من الليل كانوا دائمى الاستغفار فى أوقات الأسحار خوفا على أنفسهم من الاغترار ومحافظة على كمال عبادتهم ولشدة خشيتهم من الله عز وجل لأنهم عرفوا الله فزادت خشيتهم له وإمتلأت قلوبهم رهبة ورغبة وهو مصداق قوله تعالى فى سورة الأنبياء عليهم السلام : ﴿ **إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين** ﴾(١) ، وقوله سبحانه فى سورة السجدة : ﴿ **إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون** ﴾(٢) ، وقوله عز من قائل فى سورة فاطر : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾(٣) وقوله ﷺ فيما رواه مسلم والترمذى وأبو داود وابن ماجه والنسائى ومالك وأحمد بأسانيدهم عن عائشة وعلى بن أبى طالب — رضى الله عن الصحابة أجمعين : —

« أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »(٤) .

---

(١) سورة الأنبياء عليهم السلام ٩٠ .

(٢) سورة السجدة ١٥ — ١٦ .

(٣) سورة فاطر ٢٨ — والعلماء بالرفع فاعل ، وتكون الخشية مجازا على قراءتها بالنصب على المفعولية وهى قراءة شاذة بل قال بعض العلماء إنها موضوعة ، ومن نسبها إلى الإمام الأعظم أبى حنيفة فهو كاذب ومفتر عليه .

(٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الصلاة باب مايقال فى الركوع والسجود جـ ٢ ص ١٢٣ وسنن الترمذى أبواب الدعوات باب ٧٨ جـ ٥ ص ١٨٧ وقال : حسن =

فضل الاستغفار وفوائده

والإستغفار بالأسحار من سمات عباد الله الصادقين ، وهو دأب العابدين وديدن الوجلين الخائفين ودرب الصالحين ، ويجنى العبد ثمراته وخيراته فى الدنيا والآخرة :

ففى الدنيا يربط الإستغفار القلب بالله ، ويجعله متعلقا به ، نضرا رطبا بذكره ، ويجلب نزول المطر من السماء ، وكثرة المال والبنين ، وكثرة الخيرات والبركات ، وزيادة القوة ومضاعفتها ، وهو مصداق قوله تعالى فى سورة نوح عليه السلام حكاية عن نوح : ﴿ **فقلت إستغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا** ﴾[1] ، ومصداق قوله تعالى فى سورة هود عليه السلام حكاية عنه : ﴿ **وياقوم إستغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين** ﴾[2] .

وفى الآخرة يكون الإستغفار سببا لمحو الذنوب ، وستر العيوب ، والعفو عنها ، ودخول الجنة ، والفوز بما فيها من نعيم مقيم متنوع متكاثر غير متناه ، قال تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار**

= صحيح ، وسنن أبى داود كتاب الصلاة باب القنوت فى الوتر جـ ٢ صـ ٦٤ . وسنن ابن ماجه كتاب الدعاء باب ماتعوذ منه رسول الله ﷺ صـ ١٢٦٣ . وسنن النسائى كتاب قيام الليل باب الدعاء فى الوتر جـ ٣ صـ ٢٤٩ . وموطأ مالك كتاب القرآن باب ماجاء فى الدعاء صـ ١٥٠ ومسند أحمد جـ ١ / ٩٦ / ١١٨ / ١٥٠ وجـ ٦ / ٥٨ .

(١) سورة نوح عليه السلام ١٠ ــ ١٢ .

(٢) سورة هود عليه السلام ٥٢ .

خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾(١) ، وقال تعالى فى سورة النساء : ﴿ **ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما** ﴾ (٢) ، وقال سبحانه فى سورة آل عمران : ﴿ **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين إتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ، الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار** ﴾ (٣) .

فضل الليل

ولليل منزلة خاصة ومكانة فريدة فى قلوب عباد الله الصالحين الأوابين فهو وقت الهدوء والسكينة والصفاء والمناداة والمناجاة والتجلى الإلهى الأعظم .

روى الشيخان والترمذى وأبو داود وابن ماجه ومالك والدارمى وأحمد بأسانيدهم عن أبى هريرة . رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ قال :

« ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : أنا الملك ، أنا الملك ، من ذا الذى يدعونى فأستجيب له ، من ذا الذى يسألنى فأعطيه ، من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له ، فلا يزال كذلك حتى يضىء الفجر »(٤) .

---

(١) سورة آل عمران ١٣٥ — ١٣٦ .

(٢) سورة النساء ١١٠ .

(٣) سورة آل عمران ١٥ — ١٧ .

(٤) انظر صحيح البخارى كتاب التهجد باب الدعاء فى الصلاة من آخر الليل جـ ٢ صـ ٦٦ وكتاب التوحيد باب قول الله تعالى يريدون أن يبدلوا كلام الله جـ ٩=

صـ ١٧٥ ، = وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب صلاة الليل مثنى مثنى والوتر ركعة من آخر الليل جـ ٢ صـ ٤٠٧ ـــ ٤٠٩ . وسنن الترمذى أبواب الصلاة باب فى نزول الرب تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا كل ليلة جـ ١ صـ ٢٧٧ وأبواب الدعوات باب ٨٠ جـ ٥ صـ ١٨٨ وقال عنه : حسن صحيح ، وسنن أبى داود كتاب الصلاة باب أى الليل أفضل ج ٢ صـ ٣٤ وكتاب السنة باب فى الرد على الجهمية جـ ٤ صـ ٢٣٤ . وسنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب ماجاء فى أى ساعات الليل أفضل صـ ٤٣٥ . وموطأ مالك كتاب القرآن باب ماجاء فى الدعاء صـ ١٤٩ ، وسنن الدارمى كتاب الصلاة باب ينزل الله إلى السماء الدنيا جـ ١ صـ ٣٤٦ ـــ ٣٤٨ . ومسند أحمد جـ ٢ / ٢٦٤ / ٢٦٧ / ٢٨٢ / ٣٨٣ / ٤١٩ / ٤٨٧ / ٥٠٤ / وجـ ٣ / ٣٤ / ٩٤ .

وروى هذا الحديث عن على بن أبى طالب وأبى سعيد الخدرى ورفاعة الجهنى وجبير ابن مطعم وعبد الله بن مسعود وأبى الدرداء وعثمان بن أبى العاص : عن رسول الله ﷺ وفى رواياته المتعددة اختلاف فى بعض الألفاظ ، وهذا الحديث من أحاديث الصفات لأن فيه وصفا لله تعالى بالنزول ، فهو من المتشابه ، وللعلماء فيه مذهبان :

الأول : مذهب السلف الصالح وبعض المتكلمين رحمهم الله ، وهو أن نصف الله بما وصف نفسه به وعلى مايليق به ، فنؤمن بما ورد ونفوض الكيف إليه تعالى ، ولا نمثل ولا نعطل ولا نكيف ، وإنما ننزهه عن مشابهته للحوادث ونثبت له ما أثبته لنفسه .

الثانى : مذهب الخلف وكثير من المتكلمين ، وهو أن نؤول ما ورد من متشابه الصفات بما يناسب روح الشرع ويواكب اللغة العربية ، ففى حديث النزول المذكور يقولون : المراد به : نزول رحمته ، أو نزول ملائكته بالرحمة بإذنه أى بتقدير مضاف ! تنزل رحمة ربنا ، أو ينزل ملائكة ربنا ، أو المراد بنزوله : إقباله على الداعين والمناجين له بإجابته دعاءهم وقبوله مناجاتهم وإثابتهم ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

وما من شك فى أن المذهب الأول آمن وأسلم وأورع وأحكم .

وانظر المحكم والمتشابه فى كتاب : « العقد الفريد فى مباحث من علوم القرآن المجيد » للمؤلف .

ويعقوب عليه السلام حين قال لأولاده ماأخبر الله تعالى به عنه : ﴿ **سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم** ﴾[1] ، قصد أن يؤخر الاستغفار لهم من ذنبهم فى حقه وفى حق أخيهم يوسف عليه السلام إلى وقت السحر لعلمه بفضله ويقينه بمكانته كما قال معظم المفسرين[2] .

للعبد أن يسأل الله وأن يستغفره

وللعبد أن يسأل الله تعالى ما يشاء ، فهو لا يرد سائلا ، ولا يخيب راجيا ، ويستحى أن يرد يدى عبده صفرا ، ويحب أن يسمع صوت عبده ومناجاته ، وللعبد أن يستغفر الله بأى نص أو دعاء يريده شريطة أن يكون سؤاله ودعاؤه مواكيا لروح الشرع موائما لتعاليم الإسلام .

وأفضل صيغ الإستغفار وأسماها وأجلها ماوراه البخارى والترمذى والنسائى وغيرهم بأسانيدهم عن شداد بن أوس وغيره من الصحابة رضى الله عنهم أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال :

سيد الإستغفار أن تقول : « اللهم أنت ربى ، لاإله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك — أى أقر وأعترف — بنعمتك على ، وأبوء بذنبى فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » ، قال ﷺ : « ومن قالها من النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة ، ومن قالهامن الليل وهو موقن بها فمات من ليله قبل أن

---

(١) سورة يوسف عليه السلام ٩٨ — ويعقوب عليه السلام يسمى أيضا بإسرائيل كما جاء فى سورة آل عمران فى الآية رقم ٩٣ وفى سورة مريم فى الآية رقم ٥٨ .

(٢) انظر جامع البيان للطبرى جـ ٢٦ صـ ٢٠٠ ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٤ صـ ٢٣٤ وغيرهما من كتب التفسير .

يصبح فهو من أهل الجنة »(1) .

نسأل الله عز وجل وهو خير مسئول وأعظم مأمول أن يجعلنا من المحسنين العاملين للصالحات ، وأن يحشرنا فى زمرة أهل هذه الآيات ، بمنه وفضله ، وجوده وكرمه .

﴿ وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ :

صلة الآية بما قبلها

وفى هذه الجملة مدح وثناء آخر على هؤلاء المحسنين ، وهى معطوفة على ما سبق ، فبعد أن أثنى الله عليهم بأداء الصلاة والإستغفار بالأسحار تعظيما لله أثنى عليهم بإيتاء الزكاة والتصدق فى وجوه البر شفقة على خلق الله وإبتغاء رضاه .

معنى المال والحق والمراد بهما مع ذكر الأدلة

والأموال : جمع مال ، والمال : إسم لكل ما يملك ويتمول ، فيطلق على الذهب والفضة والحيوان والأرض والبيت والسيارة وغير ذلك مما يتمول .

والحق معناه : الثابت .

وإختلف فى المراد بالمال ، وبالحق هنا :

فقيل إن المراد بالمال هنا : المال الذى تجب فيه الزكاة وهو : النقدان والمواشى والزروع وعروض التجارة .. إلخ .

وعلى هذا يكون المراد بالحق : الزكاة أى الركن المعروف من

(1) انظر صحيح البخارى كتاب الدعوات باب أفضل الاستغفار جـ ٨ صـ ٨٣ . وسنن الترمذى أبواب الدعوات باب ١٥ جـ ٥ صـ ١٣٥ وقال : حسن غريب من هذا الوجه ، وسنن النسائى كتاب الاستعاذة باب الاستعاذة من شر ماصنع إلخ جـ ٨ صـ ٢٧٩ . ورواه من الصحابة أيضا أبو هريرة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود وبريدة بن الحصيب وعبد الرحمن بن أبزى رضى الله تعالى عنهم .

ومن مال إلى هذا الرأى كمندر بن سعيد إستدل بقوله تعالى فى سورة المعارج : ﴿ **والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم** ﴾[1] : حيث وصف الحق بأنه معلوم ، والحق المعلوم هو الزكاة التى وضح الشارع جنسها ووقتها وقدرها ، وأما غير الزكاة الواجبة فليس بمعلوم لعدم تحديد جنسه ولا وقته ولا قدره وإنما هو متروك لمروءة الإنسان وظروفه .

وجه بلاغى

ويكون الكلام من باب المجاز المرسل حيث أطلق المال وأريد به مال خاص وهو ماتجب فيه الزكاة .

وقيل إن المراد بالمال : معناه العام أى كل ما يمكن أن يتمول ويمكن التصدق به تقربا إلى الله تعالى واحتسابا وشفقة على الناس الضعفاء ورأفة بهم .

وعلى هذا يكون المراد بالحق : صدقة التطوع أى الصدقة التى تكون غير الزكاة الواجبة .

ويؤيد هذا أن السورة مكية — وكذلك سورة المعارج مكية — والزكاة الواجبة لم تفرض إلا فى المدينة كما قال الجمهور من العلماء .

وما رواه الترمذى والدارمى بسندهما عن فاطمة بنت قيس رضى الله عنها أنها سألت — أو سئل — النبى ﷺ عن الزكاة فقال : إن فى المال لحقا سوى الزكاة ثم تلا هذه الآية التى فى سورة البقرة : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ..** ﴾الآية[2] .

---

(١) سورة المعارج أو سأل ٢٤ — ٢٥ .

(٢) روى الترمذى هذا الحديث بروايتين : سند الرواية الأولى هو : حدثنا محمد بن=

ثم إن المقام هنا مقام مدح وثناء على هؤلاء المحسنين ، فلو كان المقصود بالحق الزكاة الواجبة المفروض عليهم أداؤها لما كان فى الآية زيادة مدح وإهتمام بهم وثناء عليهم إذ ذلك ينطبق على كل مسلم ، بل الكافر — كما قيل — عليه حق معلوم هو الزكاة ومطالب بفروع الشريعة على الرغم من كفره .

وقيل إن المراد بالمال معناه العام ، وبالحق ما هو أعم من الزكاة ، وسئل عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما عن الحق فى الآية الكريمة فأجاب بأنه الزكاة ، وسواها حقوق غيرها .

الرأى المختار

والذى يوحى به المقام وأميل إليه أن المراد بالحق هنا : صدقة

= مدوية أخبرنا الأسود بن عامر عن شريك عن أبى حمزة عن الشعبى عن فاطمة ابنة قيس إلخ .

وسند الرواية الثانية هو : حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أخبرنا محمد بن الطفيل عن شريك عن أبى حمزة عن عامر عن فاطمة بنت قيس إلخ .

وسند الرواية عند الدارمى هو : أخبرنا محمد بن الطفيل ثنا شريك عن أبى حمزة عن عامر عن فاطمة بنت قيس إلخ .

قال الإمام أبو عيسى الترمذى : هذا حديث إسناده ليس بذاك ، وأبو حمزة ميمون الأعور يضعف ، وروى بيان وإسماعيل بن سالم عن الشعبى هذا الحديث قوله ، وهذا أصح اه .

انظر سنن الترمذى أبواب الزكاة باب ماجاء أن فى المال حقا سوى الزكاة جـ ٢ صـ ٨٥ ، وسنن الدارمى كتاب الزكاة باب مايجب فى مال سوى الزكاة جـ ١ صـ ٣٨٥ .

وروى ابن ماجه حديثا عن فاطمة يقابل هذا الحديث ويعارضه فقال : حدثنا على بن محمد ، ثنا يحى بن آدم ، عن شريك ، عن أبى حمزة عن الشعبى ، عن فاطمة بنت قيس : أنها سمعته ، تعنى النبى ﷺ يقول : ليس فى المال حق سوى الزكاة انظر سنن ابن ماجه كتاب الزكاة باب ما أدى زكاته ليس بكنز صـ ٥٧٠ .

التطوع أى ما يخرجه الإنسان غير الزكاة ، ويوجبه على نفسه تقربا إلى الله تعالى وابتغاء وجهه الأعلى ، وليس بإيجاب الله عليه ، كأن يصل بشيء من ماله رحما ، أو يقرى به ضيفا ، أو يحنو على يتيم ، أو يعطف على أرملة أو مسكين ، وغير ذلك من سبل البر ووجوه الخير التى لا تحصى .

وهذا لا يتعارض مع آية سورة المعارج : فالحق قسط أو نصيب معلوم للمتصدق ألزم نفسه به(١) وقدره وصارت يده طولى فى بذل الخير للغير بمقتضى كرمه وإحسانه وإرضاء ربه وأملا فى رضوانه .

كما لا يتعارض مع الآيات المدنية التى نزلت فيما بعد الهجرة إلى المدينة وأمرت بإخراج الزكاة الواجبة ، لأنهم إن تصدقوا متطوعين فهم مخرجون للزكاة الواجبة من باب أولى .

سر إضافة المال إلى الله ثم إلى الناس فى القرآن الكريم

ونلاحظ فى القرآن الكريم أن الله تعالى يضيف المال أحيانا إلى نفسه كقوله جل وعلا فى سورة الحديد : ﴿ **آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** ﴾(٢) ، وقوله سبحانه فى سورة البقرة وغيرها : ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾(٣) ، وقوله تعالى فى سورة يس : ﴿ **وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه** .. ﴾(٤) .

ويضيفه أحيانا إلى خلقه المتقين كما هنا وفى سورة المعارج .

---

(١) انظر إرشاد العقل السليم لأبى السعود جـ ٨ صـ ١٣٨ .

(٢) سورة الحديد ٧ .

(٣) سورة البقرة ٣ وسورة الأنفال ٣ وسورة السجدة ١٦ وغيرها من السور .

(٤) سورة يس ٤٧ .

والسبب فى هذا هو إختلاف المقام : ففى مقام الحث على الإنفاق يضيف الله المال إلى نفسه ويجردهم منه ويبين لهم أن المال ماله وأنهم عباده مستخلفون فيه ووكلاء عنه وعليهم أن ينفذوا ما يأمرهم به ويخلصوا أنفسهم من الحرص على المال والكزازة والشح به ولايخشوا الفاقة .

وفى مقام التباهى بعباده يضيف المال إليهم مع أنه ماله وملكه فى الحقيقة والواقع ، لكنه يضيفه إليهم زيادة فى حبهم ومدحهم والثناء عليهم ، وهو غاية التكرم والامتنان والتفضل والإحسان .

« للسائل والمحروم » :

المراد بالسائل والمحروم

السائل هو المستجدى أى الذى يبدأ غيره بسؤال الصدقة وله حق فيها . قال ﷺ فيما رواه عنه أبو داود وأحمد بسندهما عن على بن أبى طالب وحسين بن على رضى الله تعالى عنهما : « للسائل حق وإن جاء على فرس » .

وفى رواية مالك رحمه الله عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال : « أعطوا السائل وإن جاء على فرس » [1] .

أما المحروم فقد اختلف العلماء فى تعيينه حتى قال الشعبى رحمه الله : أعيانى أن أعلم ما المحروم [2] .

---

(١) انظر سنن أبى داود كتاب الزكاة باب حق السائل جـ ٢ صـ ١٢٦ ومسند أحمد جـ ١ صـ ٢٠١ . وقال ابن عبد البر عن رواية مالك : لا أعلم فى إرسال هذا الحديث خلافا عن مالك وليس فيه مسند يحتج به فيما أعلم اهـ انظر موطأ مالك كتاب الصدقة باب الترغيب فى الصدقة صـ ٦١٥ .

(٢) انظر مجمع البيان للطبرسى جـ ٩ صـ ٢٣٥ . ولباب التأويل للخازن جـ ٦ صـ ٢٤٣ . والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى جـ ٤ صـ ٦٨ .

فقيل هو : المتعفف الذى لا يسأل غيره ويظنه بعض الناس غنيا فلا يتصدقون عليه فيحرم الصدقة من معظم الناس ولا يتنبه إليه إلا المتيقظ الفطن ، قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا** ﴾ (١) ، وقال ﷺ فيما رواه عنه الشيخان وأبو داود والنسائى والدارمى ومالك وأحمد وابن جرير بأسانيدهم عن عبد الله بن مسعود وأبى هريرة رضى الله تعالى عنهما :

« ليس المسكين بهذا الطواف الذى يطوف على الناس فترده التمرة والتمرتان ، والأكلة والأكلتان ، ولكن المسكين هو الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يعلم بحاجته ولا يفطن له فيتصدق عليه » ، وفى رواية : ولكن المسكين المتعفف وقرأ رسول الله ﷺ الآية السابقة من سورة البقرة » ، وفى رواية : فذاك المحروم » .

قال أبو داود رحمه الله : وكلمة « فذاك المحروم » من كلام الزهرى وهو أصح ا هـ ، وقال نحوه الإمام أحمد فى المسند (٢) .

---

(١) سورة البقرة ٢٧٣ .

(٢) انظر صحيح البخارى كتاب الزكاة باب قول الله تعالى : لا يسألون الناس إلحافا جـ٢ صـ ١٥٣ وكتاب التفسير تفسير سورة البقرة جـ ٦ صـ ٤٠ ، وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب الزكاة باب النهى عن المسألة جـ ٣ صـ ٧٨ ، وسنن أبى داود كتاب الزكاة باب من يعطى من الصدقة وحد الغنى جـ ٢ صـ ١١٨ . وسنن النسائى كتاب الزكاة باب تفسير المسكين جـ ٥ صـ ٨٥ ، وسنن الدارمى كتاب الزكاة باب المسكين الذى يتصدق عليه جـ ١ صـ ٣٧٩ . وموطأ مالك كتاب صفة النبى ﷺ باب ماجاء فى المساكين صـ ٥٧٥ ، ومسند أحمد جـ ١ / ٣٨٤ / ٤٤٦ وجـ ٢ / ٢٦٠ / ٣١٦ / ٣٩٣ / ٣٩٥ / ٤٤٥ / ٤٥٧ / ٤٦٩ / ٥٠٦ ـــ وجامع البيان للطبرى جـ ٢٦ صـ ٢٠٠ .

وهذا المعنى قال به من السلف رحمهم الله تعالى قتادة بن دعامة السدوسي وابن شهاب الزهري وغيرهما

وقيل هو : المحارف بفتح الراء أى الذى حارفه كسبه : أى انحرف عنه وضيق عليه فى معاشه [1] ، يقال : رجل محارف ، ويقابله : رجل مبارك

وممن قال بهذا المعنى من السلف : عائشة وعبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهم والضحاك بن مزاحم رحمه الله .

وقيل : هو الذى يطلب الدنيا ويسعى إليها وهى تدبر عنه .
وهذا المعنى قريب مما قبله .
وقيل هو الذى أصيب ماله بنائبة أو جائحة ، ويشهد لهذا المعنى قول أصحاب الجنة الذى حكاه الله فى سورة القلم :... ﴿ **إنا لضالون ، بل نحن محرومون** ﴾ [2] ، وقوله تعالى فى سورة الواقعة فى شأن البشر حين يجعل زروعهم حطاما ويحزنون لما أصابهم ويندمون :... ﴿ **إنا لمغرمون ، بل نحن محرومون** ﴾ [3] .

وممن قال بهذا المعنى محمد بن كعب القرظى وزيد بن أسلم وأبو قلابة .
وقيل : هو الذى يقدم بعد الغنيمة ولا سهم له فيها .
وممن قال بهذا المعنى عبد الله بن عباس والحسن البصرى ومحمد بن

---

(١) انظر غريب القرآن للسجستانى صـ ١٥٨ . والصحاح للجوهرى صـ ١٨٩٨ والقاموس المحيط للفيروز ابادى جـ ٤ صـ ٩٤ .
(٢) سورة القلم أو ن ٢٦ — ٢٧ .
(٣) سورة الواقعة ٦٦ — ٦٧ .

الحنفية ومجاهد بن جبر وسعيد بن جبير رحمهم الله ورضى عنهم (١) .

وقيل : هو الكلب ، فقد حكى أن عمر بن عبد العزيز — رحمه الله ورضى عنه ويعد بحق خامس الخلفاء الراشدين — نزع كتف شاة وهو فى طريقه إلى مكة المكرمة وأعطاها لكلب جائع وقال : يقال إنه هو المحروم (٢) .

وقيل : إنه هو الذى يحرم الرزق بأى وجه كان ويكون محتاجا (٣) .

القول المختار

وهذا القول الأخير عام يجمع الأقوال السابقة كلها ، والآية الكريمة تحتملها جميعها ، فالإسلام يحث على الإحسان والبر وقد كتب الله الإحسان على كل شيء ، وجعل فى كل كبد رطبة أجرا .

قال العلامة أبو حيان الأندلسى فى كتابه البحر المحيط :

وكل هذه الأقوال على سبيل التمثيل لا التعيين ، ويجمعها أنه : الذى لا مال له لحرمان أصابه اهـ (٤) .

---

(١) انظر جامع البيان للطبرى جـ ٢٦ صـ ٢٠٣ . ولباب النقول للسيوطى صـ ٢٠٥ .

(٢) لم يقصد عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن كلمة « المحروم » اسم للكلب وأنه هو المراد بها دون غيره ، وإنما قصد ضرب مثال للمحروم وذكر فرد من أفراده ، فذكر الكلب باعتبار الواقعة ولأن الكلب كثيرا مايحرمه الناس ويمنعونه الأكل والشرب وينسونه ، انظر المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى صـ ١١٥ .

(٣) انظر جامع البيان للطبرى جـ ٢٦ صـ ٢٠٤ . والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى جـ ٤ صـ ٦٩ .

(٤) البحر المحيط لأبى حيان جـ ٨ صـ ١٣٦ . وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٤ صـ ٢٣٤ — ٢٣٥ .

ومع احتمال الآية الكريمة للأقوال السابقة كلها وشمولها لها كما يرى — بحق — أبو حيان وغيره أرى أن القول الأول يدخل فيها دخولا أوليا وله صدارته بين الأقوال لأنه الأنسب للمقام إذ المقام مقام مدح وثناء على المحسنين ، فهم يعطون السائل وغير السائل ، ولأن المحروم بالمعنى الأول يقابل السائل ويكون بين الكلمتين طباق وهو محسن بديعى بلاغى ، ولأن المعنى الأول ورد مفسرا فى القرآن الكريم والسنة المطهرة كما سبق ، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن وبالسنة .

سر تقديم السائل على المحروم

وقدم السائل على المحروم فى الذكر لأنه مقدم عليه فى الوجود ، فالسائل لما كان يسأل غيره الصدقة صار معلوما للناس معروفا لهم فيكثر إعطاؤه ، أما المحروم فلكونه متعففا لا يسأل صار مجهولا عند الكثيرين غير معروف لهم فيقل إعطاؤه فلذلك أخر فى الترتيب .

أو أن المقام لما كان مقام مدح وثناء على المحسنين قدم السائل على المحروم للدلالة على كثرة العطاء والتصدق فهم يعطون بكثرة من يسألهم ، فإن لم يجدوا من يسألهم سألوا هم عن المحتاجين والمحرومين ثم أعطوهم ، فصار المحسنون مسئولين من قِبَل غيرهم وسائلين عن غيرهم .

المعنى العام

فهؤلاء المتقون المحسنون لم يقنعوا بقيام الليل والاستغفار بالأسحار فاقتطعوا جزءا من أموالهم وألزموا به أنفسهم وجعلوه حقا معلوما لمن يسألهم ولمن لا يسألهم من المحتاجين المعوزين والبائسين المتعففين ، وابتغوا بذلك مرضاة الله ومشاركة الناس المحتاجين فى أفراحهم وأتراحهم وإدخال السرور والحبور عليهم ، وهذا هو عنوان إخلاصهم وبرهان إيمانهم وعلامة يقينهم لأن المال تميل إليه النفس البشرية وتحرص عليه بطبيعتها وهو شقيق الروح كما يقال وعصب

الحياة وشريانها ، لكن هؤلاء المحسنين أطهار أخيار وكرام أبرار سموا بأنفسهم عن الحرص على المال والشح به وأنفقوه فيما خلق له وعملوا بقوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب** ﴾ ... الآية (١) ، وقوله تعالى فى سورة المائدة : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله** ﴾ .... الآية (٢) ، وغيرهما من الآيات المجيدة الحكيمة .

وبقوله ﷺ فيما رواه مسلم والترمذى وابن ماجه والنسائى والدارمى وأحمد بأسانيدهم عن أبى مالك الأشعرى رضى الله تعالى عنه :
« ... الصلاة نور ، والصدقة برهان ... »(٣) ، وغيره من الأحاديث الشريفة المنيفة .

فهم قوم تكامل فيهم بر العقيدة ، وبر العمل ، وبر الفضائل والأخلاق والمكارم .

رزقنا الله تعالى حسن التوكل عليه ، واللجوء إلى جنابه الكريم ، وهدانا سواء السبيل ، وجعلنا من المتقين المحسنين .

---

(١) سورة البقرة ١٧٧ . (٢) سورة المائدة ٢ .

(٣) انظر الحديث بطوله فى صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الطهارة باب فضل الوضوء جـ ١ صـ ٥٠١ . وسنن الترمذى أبواب الدعوات باب ٩١ جـ ٥ صـ ١٩٦ وقال : حسن صحيح ، وسنن ابن ماجه كتاب الطهارة وسننها باب الوضوء شطر الإيمان صـ ١٠٢ ، وسنن النسائى كتاب الزكاة باب وجوب الزكاة جـ ٥ صـ ٦ ، وسنن الدارمى كتاب الصلاة والطهارة باب ماجاء فى الطهور جـ ١ صـ ١٦٧ . ومسند أحمد جـ ٥ / ٣٤٣ .

قال تعالى :

وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

صلة الآيات بما قبلها

وهذه الآيات الكريمة مرتبطة بقوله تعالى : ﴿ **إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع** ﴾ ، وما بينهما معترض لبيان موقف الخراصين العاصين وجزائهم ، وموقف المتقين المحسنين وجزائهم .

ففى الآيات أدلة أخرى على قدرة الله تعالى على البعث وبيان أنه كائن لا محالة ، وأن الجزاء واقع لا ريب فيه ولا مناص منه .

ومما يقوى هذه العلاقة ويوطد هذه الصلة قوله تعالى فى سورة فصلت : ﴿ **ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحى الموتى إنه على كل شىء**

قدير ﴾ [1] ، وقوله تعالى فى سورة الروم : ﴿ **يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون** ﴾ [2] ، وقوله تعالى فى سورة ق : ﴿ **ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج** ﴾ [3] .

فالله سبحانه جعل إحياء الأرض بنزول الماء عليها وإنباتها به دليلا على قدرته على إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم وهو البعث ، وهنا فى سورة الذاريات جعل الأرض وما فيها من آيات بينات أدلة على وقوع البعث .

ومثلها الآيات الموجودة فى الأنفس .

ويجوز أن تكون مرتبطة بما قبلها مباشرة : فالله وصف المتقين بأنهم مستقرون فى جنات وعيون ويتنعمون بألوان شتى من النعم وأنهم جوزوا بذلك لإحسانهم فى الدنيا : كانوا يمضون الليل فى عبادة ربهم ولا يستريحون إلا قليلا وكانوا يكثرون من الاستغفار فى أوقات الأسحار ويتصدقون كثيرا على الفقراء والمعوزين ، فكانوا جامعين بين العبادة البدنية والعبادة المالية معظمين لله مشفقين على خلقه ، واستفادوا من آيات الله العجيبة فى الأرض وفى الأنفس وأيقنوا أنهم على الحق المبين فيما يفعلون ، كما استدلوا بها على عظمة الله وقداسته وكمال ذاته وصفاته وأفعاله .

أما غيرهم فلا يعبأ بتلك الآيات ولا يلقى لها بالا ولا يرفع إليها

---

(١) سورة فصلت ٣٩ . (٢) سورة الروم ١٩ .
(٣) سورة ق ٩ ـــ ١١ .

رأسا كما قال تعالى فى سورة يونس عليه السلام : ﴿ **قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون** ﴾ (١) ، وقال فى سورة يوسف عليه السلام : ﴿ **وكأين من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون** ﴾ (٢) ، وقال فى سورة الأنبياء عليهم السلام : ﴿ **وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون** ﴾ (٣) .

فهذه الآيات مؤكدة ومقررة لما قبلها ، ويكون قوله تعالى : ﴿ **للموقنين** ﴾ زيادة صفة ومدح للمتقين المحسنين ، وصرح بالاسم الظاهر بدلا من الضمير الذى يمكن أن يعود عليهم — لو ذكر — لزيادة الثناء عليهم ووصفهم بهذه الصفة العظيمة .

ويجوز أن تكون الآيات مستأنفة قصد بها الاستدلال على وحدانية الله تعالى وتمام قدرته على ما يريد وتفرده بالكمال الأكمل والجلال الأتم ، وصفاته لا تتناهى .

﴿ **وفى الأرض آيات للموقنين** ﴾ :

المراد بالأرض وآياتها

يجوز أن يراد بالأرض : الجرم المخصوص المعروف وهو المقابل للسماء ، وهو يطلق على ما على ظهر الأرض وعلى ما فى جوفها :

فمما فى جوفها : المعادن المختلفة المتنوعة ، ومما على ظهرها : الحيوانات المختلفة الأجناس والأنواع والأصناف ، والنباتات المتعددة ، والأشجار المتكاثرة المختلفة ، والثمار المتنوعة الألوان والطعوم والروائح وغير ذلك مما لايحصى ولا يستقصى : قد رتب الله كل ذلك ترتيبا

---

(١) سورة يونس عليه السلام ١٠١ .   (٢) سورة يوسف عليه السلام ١٠٥ .
(٣) سورة الأنبياء عليهم السلام ٣٢ .

بديعا ، وقدره ونسقه لمصالح خلائقه ومنافعهم ، وصدق الله العظيم فى قوله فى سورة طه حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ **قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى** ﴾ (١) ، وقوله فى سورة السجدة : ﴿ **الذى أحسن كل شىء خلقه** ﴾ (٢) ، وقوله فى سورة الأعلى : ﴿ **الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى** ﴾ (٣) .

ويجوز أن يراد بالأرض : نفس الأرض وذاتها ، وفيها الآيات الكثيرة : فهى مدحوة جامعة بين الانبساط والتكور ، ومع دحوها نجدها كالفراش الممهد ، وفيها الجبال الشامخات والشم الراسيات المتعددة الأحجام والألوان ، وفيها البرار والبحار المتنوعة والعيون الكثيرة ، وفيها الطرق والفجاج والقفار ، وفيها القطع المتجاورات : منها قطع صلبة ، ورخوة ، وخصبة ، وسبخة ، وغير ذلك مما يطول ذكره ويصعب حصره ، ولو اختلت خصيصة من خصائص الأرض التى أودعها الله فيها لتعذرت الحياة عليها .

وعلى هذا المعنى يكون الدليل نفس الأرض وذاتها وتكون الظرفية من ظرفية الصفة فى الموصوف لأن الأرض ذاتها فيها هذه الأمور .

سر ذكر الآيات مجموعة ومنكرة

وجمعت الآيات باعتبار تنوعها وتعدد وجوه الدلالات فيها .

ونكرت للدلالة على التعظيم والتكاثر والتنوع .

بلاغة الآية وعظمتها

وفى الآية الكريمة قصر وطريقه تقديم ماحقه التأخير .

و « آيات » جمع آية ، وتطلق فى اللغة على معان كثيرة منها المعجزة والعلامة والدليل(٤) ، والمراد بها هنا : الدليل لأنه علامة على المدلول

(١) سورة طه ٥٠ . (٢) سورة السجدة ٧ . (٣) سورة الأعلى ٢ — ٣ .

(٤) انظر معنى « آية » فى كتاب : « الدر النظيم فى مباحث من علوم القرآن الكريم » للمؤلف ، مبحث : ترتيب الآيات والسور .

حتى صار إطلاقها عليه حقيقة عرفية ، ففى الكلمة استعارة تصريحية أصلية : شبه الدليل بالآية بجامع مطلق الوضوح والدلالة على الغير فى كل ثم حذف المشبه واستعير المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية لأنه صرح بالمشبه به وجاءت فى اسم جامد .

وجمعت « آيات » هنا وأفردت فى آيات أخرى كقوله تعالى فى سورة يس :

﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها** ﴾ (١) : لأن الله تعالى قال هنا : ﴿ **للموقنين** ﴾ والموقن هو المؤمن الموحد الذى التزم الطريق السوى الموصل إلى معرفة الله والناظر بعين البصيرة المستدل على الله بصنائعه ، وهؤلاء الموقنون يرون فى كل شيء آية تدل على كمال الله سبحانه ، ومن ثم كانت الآيات لهم كثيرة ومتنوعة ، وكانوا أولى الألباب وأولى النهى .

معنى الموقن

أما فى سورة يس فإن سياق الآيات مع الكفار المكذبين بالرسل ، والكفار لا يعتدون بآيات الله ولا يعتبرون بها وهى عندهم كأنها آية واحدة .

سر ذكر الموقنين دون غيرهم

وخص الموقنون بالذكر مع أن الآيات معروضة ومخلوقة لكل الناس لأن الموقنين هم المنتفعون بها المعتبرون بتدبرها الممتثلون لتعاليم الله وشرعه فهم المستفيدون بآياته وشرعه دون غيرهم وكأن الآيات مخلوقة لهم وحدهم ، ومن ثم فإنا نرى الله تعالى يقول فى سورة آل عمران :

﴿ **إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم**

---

(١) سورة يس ٣٣ .

ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض .... ﴾ (١) .

ويقول فى سورة الجاثية : **﴿ إن فى السماوات والأرض لآيات للمؤمنين ، وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ﴾** (٢) ، ويقول — سبحانه وتعالى — عن القرآن الكريم : **﴿ هدى للمتقين ﴾** (٣) ، **﴿ وهدى ورحمة للمحسنين ﴾** (٤) ، **﴿ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾** (٥) ، **﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾** (٦) ، وغير ذلك من الآيات والأوصاف لأن هؤلاء هم المنتفعون بآيات الله الكونية المنثورة والقرآنية المسطورة المذعنون لتعاليمه وشرعه المتفكرون فى آياته فكأن الآيات موجودة لهم خاصة .

﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

صلة الآية بما قبلها

وهذه الآية متصلة بما قبلها مباشرة ، والمبتدأ مقدر دل عليه المذكور فى الآية السابقة ، وتقدير الكلام : وفى أنفسكم آيات إلخ .

فالله تعالى يذكر دليل الأنفس بعد ذكره دليلا من أدلة الآفاق وهو الأرض كما قال تعالى فى سورة فصلت : **﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾** (٧) ، فهما دليلان على حتمية البعث وحقية الجزاء ، أو دليلان على حقية ما كان يفعله المتقون المحسنون .

(١) سورة آل عمران ١٩٠ — ١٩١ . (٢) سورة الجاثية ٣ — ٥ .
(٣) سورة البقرة ٢ . (٤) سورة لقمان ٣ .
(٥) سورة النحل ٨٩ . (٦) سورة النمل ٢ .
(٧) سورة فصلت ٥٣ .

وذكر الله تعالى من أدلة الآفاق الأرض لظهورها لمن على ظهرها ووضوح آياتها التى لا تحصى .

المخاطبون بالآية الكريمة

وقوله تعالى : ﴿ **وفى أنفسكم** ﴾ يجوز أن يكون الخطاب فيه عاما للمؤمنين وللكافرين فهو للمؤمنين لأنهم الممتثلون والمنقادون لتعاليم الله والمعتبرون المستبصرون بالفعل ، وهو للكافرين لأنهم مطالبون بالنظر ، وإن تأملوا ونظروا استفادوا واستبصروا .

ويجوز أن يكون الخطاب خاصا بالمؤمنين بدليل سياق الآيات وسباقها ، وجاء الالتفات من الغيبة إلى الخطاب فى قوله ﴿ **وفى أنفسكم** ﴾ لكمال ظهور الآيات ووضوحها فى الإنسان وشد انتباهه ولفت نظره إلى ما فى نفسه من آيات بينات ، فعلمه بما فى نفسه وإحساسه به أتم وأظهر .

المراد بالأنفس

واختلف العلماء فى المراد بالأنفس فى الآية الحكيمة :

فقيل : إن المراد بها : الأنفس التى تكون بها الحياة والحركة والإحساس وتقع عليها الوفاة فى نهاية الحياة ، ففى هذه الأنفس أو النفوس آيات وعظات وعبر بالغات .

وقيل : إن المراد بالأنفس : ذوات الناس وأجسامهم التى بها يتشكلون ويتميزون ، ففيها آيات ودلائل على عظمة الله وقدرته وبديع صنعه .

القول المختار

وقيل : إن المراد بالأنفس : المعنيان معا ، ولا تنافى بينهما وكل منهما كفيل بالعظة والاعتبار :

فالإنسان إذا ما نظر إلى كيفية خلقه وأطواره من مبدأ تكوينه إلى منتهاه رأى العجب العجاب ، وأيقن بكمال الخالق الوهاب ، فقد كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما ثم كسى الله العظام لحما ،

ونفخت فيه الروح وصارت فيه الحياة والحركة والإحساس ، وصار خلقا آخر ، إذا نظر الإنسان إلى كل طور من هذه الأطوار وجد ما يحمله على العظة والاعتبار حيث إنه انتقل من حال إلى حال ، وفى كل حال من بدائع الخلق وعجائب التركيب والعناية والترتيب المحكم ما تتحير فيه الأذهان ويعيا عن وصفه اللسان والبنان .

وإذا تأمل فى أعضائه وفى المفاصل التى خلقها الله لها وهيأها وكيفها للانعطاف والتثنى أدرك فضل الله عليه ورحمته به ، فالعضو أو المفصل إذا كان صلبا ترتب على صلابته العجز ، وإذا كان مسترخيا لينا ترتب على ذلك الذل والعجز أيضا ، وصدق الله العظيم فى قوله فى سورة الانفطار : ﴿ **يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك** ﴾ (١) ، وقوله فى سورة التين : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم** ﴾ (٢) ، وصدق قتادة بن دعامة السدوسى — رحمه الله — فى قوله :

« من تفكر فى خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة » (٣) .

وقد ذكر العلماء أن كل ما فى العالم الصغير الحجم وهو الإنسان يوجد له نظير فى العالم الكبير الفسيح ، فالإنسان نسخة مختصرة من العالم (٤) ، ويلزم كل إنسان أن يتأمل نسخته ويمعن النظر فى نفسه فى الحضر والسفر ، والليل والنهار ، وفى كل زمان ومكان :

---

(١) سورة الانفطار ٦ — ٨ .　　(٢) سورة التين ٤ .

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٤ صـ ٢٣٥ .

(٤) انظر التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى جـ ٤ صـ ٦٩ ، وإرشاد العقل السليم لأبى السعود جـ ٨ صـ ١٣٩ ، وروح المعانى للألوسى جـ ٢٧ صـ ٩ .

فحواس الإنسان نظيرها : الكواكب ، وسمع الإنسان وبصره اللذان يساعدانه على إدراك المدركات نظيرهما : الشمس والقمر ، وعرق الإنسان وسائر رطوبات بدنه : من جنس الماء الموجود فى العالم الكبير ، وروحه ونفسه التى بهما حياته : من جنس الهواء ، والمرة والصفراء التى بها يهضم الطعام ويستفاد به ولولاها لما حصل الهضم : من جنس النار ، والعروق التى يجرى فيها دمه : من جنس الأنهار التى يجرى فيها الماء ، والكبد الذى يغذى العروق بالدم : بمنزلة العيون التى تغذى الأنهار بالمياه ، والمثانة التى تنتهى إليها رطوبات البدن : بمنزلة البحر الذى تنتهى إليه مياه الأنهار ، وعظامه التى تحمل جسمه ولحمه وشحمه : بمنزلة الجبال التى هى أوتاد الأرض والممسكة لها لأن لا تميد ، وأعضاؤه : بمنزلة الأشجار ، وآثار أعضائه وأفعالها : بمنزلة أوراق الأشجار وثمارها ، والشعر على بدنه : بمنزلة النبات والحشائش الموجودة المبثوثة على الأرض ، ويمكن للإنسان أن يحكى بلسانه أصوات الحيوانات والطيور الموجودة فى العالم الكبير ، والإنسان يصير بعد موته وبلاه ترابا ويكون : من جنس الأرض التى خلق منها ، وفى الإنسان المعادن الموجودة فى الأرض كالكبريت والفوسفات والمنجنيز والحديد .....

إلى غير ذلك من الأشياء الموجودة فى الإنسان ويوجد لها نظير فى العالم الكبير :

أتظن أنك جسم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

ولو نظر الإنسان إلى نفسه من حيث حياته ، وإحساسه ، وإدراكه ، وقدرته على القيام بأفعال بديعة ، واستنباط الصنائع المختلفة ، والنطق ، واختلاف الألوان ، والألسنة ، والطباع ،

والقلوب ، والعقول ، والأسماع ، والأبصار ، وكيفية إدراكها ، وكيفية انطباع المدركات فيها ، واستحضارها وقت طلبها ، وأكله وشربه ما يريد من مدخل واحد وهو الفم ، وخروج ما طعمه من مخرجين وهما السبيلان ؛ : لو نظر الإنسان إلى ذلك كله وغيره مما يطول ذكره بعين البصيرة لرأى الكمالات المتنوعة ، والآيات البينات القاطعة ، والبراهين الناصعة ، والأدلة الساطعة ، على وجود الله خالق الإنسان ، ومبدع الأكوان ، ومدبر الأمور ، والمتصف بجميع صفات الكمال والجلال ، فآمن به أتم إيمان ، وأيقن بنبوة محمد الأمي الذى نزل عليه ما أعجز الإنس والجن ، وصدقه فى جميع ما أخبر به .

فتبارك الله أحسن الخالقين ، وجزى نبيه محمدا — ﷺ — عنا خير الجزاء وأسكنه فى أعلى عليين .

﴿ **أفلا تبصرون** ﴾ :

الغرض من الاستفهام ومرجعه

إستفهام : الغرض منه : التوبيخ والتقريع على الإعراض عن النظر فى الآيات الأرضية والآيات النفسية ، فهذا الاستفهام متصل وعائد على آيات الأرض والأنفس .

وبعضهم يرى أنه راجع إلى الأنفس باعتبار أن هذا اللفظ أقرب مذكور ، والأرجح هو الوجه الأول .

والفاء عاطفة للجملة المذكورة على جملة مقدرة ، وتقدير الكلام : أعميتم فلا تبصرون ، أو أجهلتم فلا تبصرون بعين البصيرة .

وقيل إن الفاء فاء الفصيحة والهمزة مقدمة من تأخير لأنها استفهامية فكان لها الصدارة ، وتقدير الكلام : إذا كان الأمر كما ذكر فألا تبصرون بعين البصيرة حتى تهتدوا إلى الحق وتتمسكوا به وتبتعدوا

عن الباطل ولجاجه .

فهذا الاستفهام يتضمن حث الإنسان على التأمل والنظر بعين الجارحة حتى يصل إلى الحق ، ويربأ بنفسه عن الباطل ، وتستنير بصيرته ، وتستقيم حاله وسريرته .

كما يتضمن تعنيف وتبكيت من يهمل النظر والتبصر ، ولا يعتبر بآيات الله الأرضية والنفسية ، وكل آية تدل بوضوح وصراحة على وحدانيته وكماله سبحانه وتعالى :

وفى كل شيء له آية　　　تدل على أنه واحد

لا تعارض بين الآيات القرآنية والكونية

وقبل ترك هذه المسألة أنبه أخي القارىء إلى أنه لا يوجد تعارض بين آية كونية وبين آية قرآنية لأن خالق الكون ومنزل القرآن واحد سبحانه ، والكون قرآن الله المنثور ، والقرآن كون الله المسطور ، وإن شئت فقل : « لو تكلم الكون بلسان المقال لكان آيات قرآنية ، ولو تجسم القرآن لكان آيات كونية » فما دام المبدع والمالك واحدا فلا يمكن أن يوجد أدنى تعارض بين آياتهما ، وإن قيل بالتعارض فى آية فإنه يكون تعارضا فى الظاهر لا فى الحقيقة والواقع ، أو يكون فى عقل من نطق بالتعارض ، ولو نظر وتأمل لزال التعارض الذى فى ذهنه فإن من نظر أبصر ، ومن أبصر عرف ، ومن عرف أيقن بعظمة الخالق البارىء منزل القرآن ومبدع الأكوان سبحانه جل وعلا .

﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾ :

صلتها بما قبلها

وهذه الآية مرتبطة بما قبلها فهى مع ما قبلها كقوله تعالى فى سورة غافر : **﴿ هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء**

رزقا ﴾ : الآية (١) .

وفيها دلالة على قدرة الله تعالى ورحمته بعباده وتفضله عليهم .

وقيل إنها مستأنفة والواو للاستئناف وليست للعطف ، والمقصود بها الامتنان من الله على عباده وبيان وعده ووعيده .

المراد بالسماء وبالرزق

واختلف المفسرون فى المقصود بالسماء وبالرزق :

فقيل إن المراد بالسماء : السحاب ، وبالرزق : المطر ، أى وفى السحاب المطر الذى تهتز به الأرض وتربو وينبت به الزرع ويحيا منه الخلق ، فيه حياة العباد والبلاد ، والسحاب يقال له سماء باعتباره فى جهة السماء ولأن كل ما علاك فهو سماء ، قال تبارك وتعالى فى سورة غافر : **﴿ هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب ﴾** (٢) ، وقال تعالى فى سورة الجاثية : **﴿ ... واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ﴾** (٣) ، وروى عن الحسن البصرى سيد التابعين رحمهم الله أنه كان يقول لمن حوله إذا رأى سحابا : فيه — والله — رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم .

أوجه بلاغية

وتسمية السحاب بالسماء من باب المجاز المرسل من تسمية الحال باسم المحل ، وإطلاق الرزق على المطر من باب المجاز المرسل من إطلاق المسبب على السبب .

وقيل المقصود بالسماء : السماء الدنيا ، وبالرزق : أسبابه ، أى وفى السماء أسباب رزقكم ومعاشكم من النيرين : الشمس

---

(١) (٢) سورة غافر ١٣ .   (٣) سورة الجاثية ٥ .

والقمر والكواكب والمطالع والمغارب المختلفة التى تختلف بها الفصول السنوية وتدور عليها الزراعة ، ولا شك أن المطر أيضا من أسباب الرزق ، ففى الآية الكريمة مجاز بالحذف .

وقيل المراد بالسماء : جنسها ، وبالرزق : تقديره وتحديده ، أى وفى السماء تقدير رزقكم وكتابته فى أم الكتاب وفى صحف الملائكة الكرام ، فأل فى السماء للجنس ، أو للعهد والمقصود بها والمعهود : السماء السابعة ، وفى الآية الحكيمة أيضا مجاز بالحذف .

وقيل إن « فى » بمعنى : على ، وفى الآية مضاف مقدر ، وتقدير الكلام : وعلى رب السماء رزقكم ، ومثله قوله تعالى فى سورة هود عليه السلام : ﴿ **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها** ﴾ : الآية [1] .

لا تعارض بين الأقوال

ولا تنافى بين هذه المعانى الكريمة فكلها مرادة بحمد الله والآية الكريمة العظيمة تحتملها كلها .

« وما توعدون » : متصل بما قبله ومعطوف على الرزق .

المخاطبون بالآية وبيان متعلق الوعد

والخطاب عام للمؤمنين وللكافرين أى ما توعدون به من الجنة والنار ، ويؤيد هذا العموم قوله تعالى فيما سبق : ﴿ **يوم هم على النار يفتنون** ﴾ وقوله : ﴿ **إن المتقين فى جنات وعيون** ﴾ وما روى عن الضحاك بن مزاحم رحمه الله من أنه قال : ما توعدون من الجنة والنار .

وهذا يفيد أن الجنة والنار فى السماء ، والعلماء متفقون على أن الجنة فى السماء ، أما النار ففى وجودها فى السماء خلاف بينهم ،

---

(١) سورة هود عليه السلام ٦ .

والراجح أنها فيها .

أو ما توعدون من الخير والشر ، أو الثواب والعقاب ، فهما مقدران مكتوبان فى اللوح المحفوظ ، فكل ما يصيب الإنسان فى الدنيا والآخرة مقدر ومكتوب ومدون كما قال تعالى فى سورة الحديد : **﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾** (١) ، وقوله تعالى فى سورة التغابن : **﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ﴾** (٢) ، فالخير والشر والنفع والضر والعطاء والمنع بيده تعالى ، فَلِمَ يعبد الكفار غيره ويلجأون إلى سواه ممن ومما لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا عقابا ولا ثوابا ولا رزقا ولا حياة ولا موتا ولا نشورا ، وإن لم يملكوا هذا لأنفسهم فكيف يملكونه لغيرهم : « إن فاقد الشيء لا يعطيه » .

وقيل إن الخطاب خاص بالمؤمنين أى ما توعدون من الجنة ، فهو فعل مبنى للمجهول ، أو بتعبير أفضل وأنسب مبنى لما لم يسم فاعله ، مأخوذ من الوعد .

وقيل خاص بالكافرين أى ما توعدون من الإيعاد بالعذاب ، أى فى السماء رزقكم أيها الكفرة الفجرة فلو نظرتم حق النظر وتأملتم جد التأمل لما تركتم الحق لانشغالكم بالرزق لأن الرزق واصل إليكم حتما ولا يتخلف عنكم ، ولا جتنبتم الباطل والضلال لتقوا أنفسكم وأهليكم ما توعدون به من العذاب المعد لكم ، وهو عذاب عظيم متنوع شديد مقيم يهين ويؤلم أبدانكم ونفوسكم .

الرزق نوعان

وينبغى أن تعلم ــ أخى القارىء ــ أن الرزق نوعان : رزق

(١) سورة الحديد ٢٢ . (٢) سورة التغابن ١١ .

مبرم ورزق معلق ، فالرزق المبرم ألزم الله نفسه به ويعطيه البار والفاجر والمؤمن والكافر والصالح والطالح ، أى يصل إلى صاحبه حتما .

أما الرزق المعلق فهو الذى يعلقه الله على شىء كأداء طاعة أو إجتناب معصية ، فالعبد إذا أدى الطاعة أتاه رزقه المعلق على أدائها ، وإن لم يؤد الطاعة لم يأته رزقه المعلق عليها ، فالرزق المعلق زائد على الرزق المبرم .

والرزق بنوعيه كالقضاء بنوعيه :ـــ المبرم والمعلق ـــ : فالقضاء المبرم يقع على صاحبه حتما ولا يرده شىء ولذا فإن الإنسان لا يسأل ربه رده وإنما يسأله اللطف فيه .

أما القضاء المعلق فإن أداء الطاعة المعلق عليها أو الدعاء أو نحو ذلك يرده ويمنع وقوعه .

وكل ذلك بإذن الله تبارك وتعالى وعلمه وإرادته .

﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ :

صلة الآية بما قبلها

الفاء للترتيب والتعقيب ، والمعقب عليه هو ما تقدم من أدلة كأن الله يقول : **إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع بالدليل والبرهان المبين ثم باليمين ﴾** .

وقيل إن الفاء للعطف عطفت قسما على قسم كأن الله تعالى يقول : **﴿ والذاريات ذروا فالحاملات وقرا .... ﴾ ﴿ والسماء ذات الحبك ﴾** .... **﴿ ورب السماء والأرض ﴾** ... إلخ ، وأعيد حرف القسم لطول الفصل بين القسمين .

ونلاحظ فى القسم المذكور أن الله أقسم بالرياح الذاريات ....

إلخ وهى أمور أرضية ، ثم أقسم بالسماء ذات الحبك ، ثم أقسم بربوبيته للسماء والأرض ، ففى هذه الأقسام ترق من أدنى إلى أعلى وهو ترتيب طبيعى ، فالمعهود أن المقسم يقسم للمخاطب بالأدنى فإذا لم يحصل التصديق عند المقسم له ترقى المقسم فى القسم (١) .

مرجع الضمير مع ذكر المعنى

والضمير فى : « إنه » يعود على « ما » فى قوله « وما توعدون » وقيل على صدق الوعد بالبعث ووقوع يوم الدين ، وقيل على « يوم الدين » بدليل قوله تعالى فى سورة النبأ : ﴿ **ذلك اليوم الحق** ﴾ (٢) ، وقيل على الرزق : أى كما أن كل إنسان ينطق بلسان نفسه ولا يمكنه أن ينطق بلسان غيره كذلك كل إنسان يأكل رزق نفسه الذى يقسم الله له ولا يقدر أن يأكل رزق غيره (٣) .

وفى هذا تطمين للإنسان على رزقه الذى هو من ضرورة الحياة ولا يعيش بدونه فالله أقسم له ليزداد طمأنينة ويؤدى ما عليه لله من حقوق ويقبل على الله بهمة وإخلاص وهو فى غاية الاطمئنان والأمان .

وقيل عائد على القرآن : أى إن القرآن لحق ، ويعاضد هذا الوجه قوله تعالى : ﴿ **يؤفك عنه من أفك** ﴾ أى إن القرآن لحق نطق به الملك جبريل — عليه السلام — نطقا مثل ما أنكم تنطقون .

وقيل عائد على كل ما ذكر من أول السورة إلى الآية المذكورة : أى إن سائر ما ذكر من البعث والجزاء والقرآن والنبى ﷺ والوعيد للكافرين والوعد للمتقين والأدلة الأرضية والنفسية التى أقيمت على

---

(١) انظر غرائب القرآن للنيسابورى جـ ٢٧ صـ ١٠ .
(٢) سورة النبأ ٣٩ .
(٣) انظر معالم التنزيل للبغوى ولباب التأويل للخازن جـ ٦ صـ ٢٤٤ . وكتاب البغوى مطبوع بهامش كتاب الخازن .

حقية البعث والرزق لحق مثل ما أنكم تنطقون ، أى ثابت مطابق للواقع بالأدلة المذكورة ، فكلها أمور يقينية محققة لا مرية ولا مراء فيها .

ففى الآية المجيدة تأكيد بالقسم وبإن وباللام وبالتشبيه الواضح البين .

الفرق بين الحق والصواب

وينبغى أن تعلم — أخى القارىء الكريم — أن الحق يقابله الباطل ، أما الصواب فيقابله الخطأ ، وأن الحق ما أحقه الله ، والباطل ما أبطله الله .

والفرق بين الحق والصواب أن الحق لا يختلف بإختلاف الأزمنة والأمكنة ولا يتعدد بتعدد الأشخاص بخلاف الصواب ، وكذلك الفرق بين الباطل والخطأ .

أما الصواب — وكذلك الخطأ — فإنه يختلف : فالذى يكون عند شخص صوابا قد يكون عند غيره خطأ ، والذى يكون فى زمان صوابا قد يكون فى زمان آخر خطأ ، والذى يكون فى مكان صوابا قد يكون فى مكان آخر خطأ .

ومن ثم لا يصح أن نصف كلام إنسان بأنه حق أو باطل إلا إذا كان كلامه أو وصْفنا لكلامه أو لرأيه مبنيا على دليل شرعى لأن الله هو الذى يحق الحق ويبطل الباطل .

أما إذا لم يكن وصْفنا لكلامه أو لرأيه مبنيا ومستندا إلى دليل شرعى فإننا نصفه بالصواب أو بالخطأ إذ العبد يصيب ويخطىء ، وقوله المنبعث منه لا يكون إلا صوابا أو خطأ .

ولذا يقول الله تعالى فى سورة الأنفال : ﴿ **ليحق الحق ويبطل**

الباطل ولو كره المجرمون ﴾[1] ، ويقول فى سورة الأحزاب : ﴿ **والله يقول الحق وهو يهدى السبيل** ﴾[2] .

أما فى سورة النبأ فيقول سبحانه : ﴿ **يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا** ﴾ [3].

﴿ **مثل ما أنكم تنطقون** ﴾ :

إعـــراب « مثل » وذكر القـــراءات المتواترة فيها

كلمة « مثل » قرأها بالرفع من القراء العشرة حمزة والكسائى وخلف وأبو بكر شعبة بن عياش عن عاصم على أنها صفة لـ « حق » ، وقرأها بالنصب باق العشرة[4]على أنها حال من الضمير المستتر فى كلمة « حق » ، أو صفة لموصوف مقدر أى لحق حقا مثل ، أو صفة لـ « حق » وهى مبنية على الفتح فى محل رفع لأنها رغم إضافتها إلى « ما » المعرفة المبنية لا تزال مبهمة ، فالمعروف أن « مثل » متوغلة فى الإبهام لا تتعرف بالإضافة إلى المعرفة ، أو مبنية على السكون فى محل رفع لأنها ركبت مع « ما » تركيبا مزجيا مثل : أينما ، وكلما .

و « ما » يجوز أن تكون بمعنى شىء ، أو إسم موصول بمعنى الذى ، أو صلة أى زائدة من حيث اللغة ، أما من حيث المعنى فلا غنى عنها فوجودها مؤكد لمعنى الآية الكريمة ومضمونها .

(١) سورة الأنفال ٨ .

(٢) سورة الأحزاب ٤ .

(٣) سورة النبأ ٣٨

(٤) انظر حجة القراءات لأبى زرعة صـ ٦٧٩ . والنشر فى القراءات العشر لابن الجزرى جـ ٢ صـ ٣٧٧ . وإتحاف فضلاء البشر للبناء الدمياطى ص ٣٩٩ .

أى كما أنه لاشك فى أنكم تنطقون يجب أن لا تشكوا فى حقية ما ذكر ، وهذا كقولك لشخص : « إن هذا حق كما أنك ههنا ، أو إن هذا حق كما ترى وتسمع وتتكلم »[1] .

ففى الآية الكريمة الحكيمة تشبيه حقية ما أخبر الله تعالى به بتحقق نطق الادميين ، أو تشبيهه فى صدقه ووجوده كالنطق المعروف لهم ضرورة والمعلوم لهم بداهة .

الحكمة من ذكر النطق دون غيره

وخص الله النطق بالذكر دون غيره من حواس الإنسان لأن الإنسان لا يشك فى نطق نفسه ولا يدخله التشبيه أو الإلتباس[2] ، بخلاف غير النطق فيمكن أن يدخله التشبيه والإلتباس والشك : فالبصر يمكن أن يدخله شك واشتباه عند رؤية شىء من الأشياء ، والذوق يدخله الشك والإشتباه وبخاصة إذا كان صاحبه مريضا ، والأذن يدخلها الشك والإشتباه والإرتياب وبخاصة فى حالة الدوى والطنين ، واللمس يمكن أن يدخله الشك والإشتباه وبخاصة إذا كان اللامس مريضا ، وهكذا ... إلا النطق فلا يشك أحد من الآدميين فى نطقه بكلمة ولا يرتاب فى لفظة .

المعنى العام والغرض من الآيات

فهذه الآيات الكريمة تنادى بالتحرر من الجمود الفكرى وتدعو بقوة إلى التأمل فى آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس ، وإلى خلع ربقة التقليد الأعمى ، وتخاطب عقول الناس ووجدانهم ، وتبين لهم أن الرزق مضمون فلا يصح أن يشغلوا أنفسهم به ويتركوا ما خلقهم الله

---

(١) انظر معالم التنزيل للبغوى بهامش تفسير الخازن جـ ٦ صـ ٢٤٤ . والكشاف للزمخشرى جـ ٤ صـ ٢٩ . ومجمع البيان للطبرسى جـ ٩ صـ ٢٣٦ . والبحر المحيط لأبى حيان جـ ٨ صـ ١٣٧ .

(٢) ـ أنظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى صـ ٦٢١٢

تعالى من أجله وهو العبادة .

ومع ضمان الرزق وتكفل الله تعالى به لابد من الأخذ بأسباب تحصيله وجمعه والتوكل على الله تعالى ، ولا يصح أن يتقاعس إنسان عن طلب رزقه والسعى عليه والتماسه فى خبايا الأرض والمشى فى مناكبها ، ولا يصح أن يتواكل بحجة ضمان الرزق فإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، وإن السعى على الرزق بالنية الصادقة عبادة ، وقد مر عن كثب أن الرزق نوعان : مبرم ومعلق :

روى الترمذى وابن ماجه وأحمد بأسانيدهم عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير : تغدو خماصا ، وتروح بطانا[1] .

وروى ابن ماجه بسنده حديثا وهو : حدثنا محمد بن المصفى الحمصى . ثنا الوليد بن مسلم . عن ابن جريج . عن أبى الزبير . عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : « قال رسول الله ﷺ : أيها الناس ، اتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، فإن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها ، وإن أبطأعنها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، خذوا ما حل ، ودعوا ما حرم »[2] .

(١) أنظر سنن الترمذى أبواب الزهد باب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا جـ ٤ صـ ٤ وقال عنه حسن صحيح . وسنن ابن ماجة كتاب الزهد باب التوكل واليقين صـ ١٣٩٤ . ومسند أحمد جـ ١ صـ ٣٠ / ٥٢ .

(٢) أنظر سنن ابن ماجة كتاب التجارات باب الاقتصاد فى طلب المعيشة صـ ٧٢٥ ، قال المحقق : فى الزوائد : إسناده ضعيف لأن فيه الوليد بن مسلم وابن جريج ، وكل منهما كان يدلس ، وكذلك أبو الزبير ، وقد عنعنوه ، لكن لم ينفرد به المصنف من حديث أبى الزبير عن جابر ، فقد رواه ابن حبان فى صحيحه بإسنادين عن جابر رضى الله عنه .

وروى ابن ماجه وأحمد بسنديهما عن حبة وسواء ابنى خالد قالا : أتينا رسول الله ﷺ وهو يعمل عملا ، أو يبنى بناء ، أو يصلح شيئا ، فأعناه عليه . فلما فرغ دعا لنا وقال : لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رءوسكما ، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشر ثم يعطيه الله ويرزقه »[1] .

وذكر القرطبى أن الثعلبى أسند حديثا إلى أبى سعيد الخدرى قال : قال النبى ﷺ : لو أن أحدكم فر من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت »[2] .

وروى ابن ماجه وأحمد بسنديهما عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزيد فى العمر إلا البر ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه »[3] .

وروى مالك بسنده عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال فى حديث طويل : « .... ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق ... »[4] .

---

(١) انظر كتاب الزهد باب التوكل واليقين صـ ١٣٩٤ . ومسند أحمد جـ ٣ صـ ٤٦٩ .

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى صـ ٦٢١٣ .

(٣) انظر سنن ابن ماجه كتاب الفتن باب العقوبات صـ ١٣٣٤ وقال المحقق : فى الزوائد : إسناده حسن ، ومسند أحمد جـ ٥ / ٢٧٧ / ٢٨٠ / ٢٨٢ .

(٤) أنظر الحديث بطوله فى موطأ مالك كتاب الجهاد باب ما جاء فى الغلول صـ ٢٨٥ . قال ابن عبد البر رحمه الله ـــ كما نقل المحقق ـــ قد رويناه متصلا عنه ، ومثله لا يقال رأيا أهـ .

وروى أحمد بسنده عن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : الصبحة تمنع الرزق [1].

وروى ابن جرير بسنده عن الحسن البصرى رحمه الله أنه قال : بلغنى أن رسول الله ﷺ قال : « قاتل الله أقواما أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوه » [2].

وذكر الزمخشرى والألوسى وغيرهما من المفسرين فى تفسيرهم لهذه الآية الكريمة حكاية للأصمعى قال [3]:

أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابى على قعود له فقال : ممن الرجل ؟ قلت : من بنى أصمع ، قال : من أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمن ، فقال : إتل على ، فتلوت : والذاريات ذروا ... فلما بلغت قوله تعالى : ﴿ **وفى السماء رزقكم وما توعدون** ﴾ قال : حسبك ، فقام إلى ناقته فنحرها ، ووزعها على من أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى ، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بى بصوت دقيق ، فالتفت فإذا أنا بالأعرابى قد نحل وإصفر ، فسلم على وإستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية صاح وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، ثم قال : وهل غير هذا ؟ فقرأت : ﴿ **فورب السماء والأرض إنه**

---

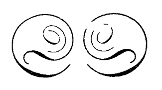
(١) أنظر المسند للإمام أحمد جـ ١ صـ ٧٣ والمقصود بالصبحة : نوم الإنسان حين يصبح .

(٢) انظر جامع البيان للطبرى جـ ٢٦ صـ ٢٠٦ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٤ صـ ٢٣٥ وهو حديث مرسل .

(٣) انظر الكشاف للزمخشرى جـ ٤ صـ ٢٩ ، وغرائب القرآن للنيسابورى جـ ٢٧ صـ ١٠ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى صـ ٦٢١٢ ، وروح المعانى للألوسى جـ ٢٧ صـ ١٠ .

لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ فصاح وقال : يا سبحان الله ، من الذى أغضب الجليل حتى حلف ؟ لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين ، قالها ثلاثا ، وخرجت معها نفسه » .

وهذه الحكاية طريفة ظريفة ، وسواء صحت أو لم تصح الآية توجب التوكل على الله وتطمئن العبد على رزقه ، ومن توكل على الله كفاه وهو حسبه ، وفيها وفى الآية الحكيمة قسم جليل يضفى على الحقيقة المقسم عليها جلالا وهيبة وسناء ، وروعة وضياء ، وهى حقيقة ويقين ، بدون قسم أو يمين .



إبراهيم الخليل وضيوفه
عليهم السلام

قال الله تبارك وتعالى :

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾

لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٣٧)

صلة الآيات بما قبلها

هذه الآيات الكريمة مرتبطة بما قبلها إرتباطا وثيقا ، فهى جواب لسؤال مقدر نشأ من الكلام السابق كأن سائلا سأل فقال : عرفنا موقف الكافرين والمتقين وجزاءهم ، كما عرفنا وضوح الأدلة فى الأرض وفى الأنفس على حقية ما قال الله تبارك وتعالى ، وأيقنا بضمان الرزق الذى يشغلنا ، فما موقف وجزاء الأمم السابقة من رسلهم السابقين ؟ ، فأجاب الله عز وجل بقوله : ﴿ **هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين** ﴾ إلخ ، فهذا القول مستأنف إستئنافا بيانيا وبينه وبين ما قبله شبه كمال إتصال .

أو أن الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه بعد أن أشار إلى كثرة الآيات فى الأرض وفى الأنفس ذكر آيات له فى تاريخ الرسالات إلى البشر ، فيها هلاك المكذبين ونجاة المصدقين ، وكل آياته تدل على عظيم قدرته وباهر سلطانه وكمال إرادته ، ومامن شك فى أن الآيات التى فى تاريخ الرسالات وواقعها مؤكدة لما تقدم فى الآيات السابقة ، وداعية إلى التفكر والإعتبار والنظر والإستبصار ﴿ **ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة** ﴾[1] .

---

(١) سورة الأنفال ٤٢

معنى هل

﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ :

« هل » حرف للاستفهام ، والغرض منه هنا النفى أى ما أتاك يا محمد حديث ضيف إبراهيم لأنك لم تكن شاهدا ولا موجودا ولأن ذلك أمر مغيب متوغل فى الزمن لا يعلم إلا بالوحى .

وأورد الله تعالى الكلام مورد المستفهم عنه الرسول ﷺ تفخيما لشأن هذا الحديث وإجلالا لأمره وتنويها بأهميته وتشويقا لسماعه حيث بلغ من الفخامة والعظمة درجة عظيمة كأنه لا يخفى على أحد فضلا عن أنه لا يخفى عليك يا محمد فاستمع إليه نقصه عليك .

وهو يشبه قولك لشخص : هل بلغك يا فلان الخبر الفلانى ؟ ، تريد تشويقه إلى سماعه وبيان شهرته .

أو أن « هل » بمعنى قد المفيدة للتحقيق والتأكيد ، وهى تفيد هذا إذا دخلت على الفعل الماضى ، أما إذا دخلت على الفعل المضارع فإنها تفيد التقليل إلا فى جانب الله تعالى فإنها للتأكيد والتحقيق دائما .

من فوائد ذكر القصص فى القرآن الكريم

وفى ذكر القصص فى القرآن الكريم تسلية لرسول الله ﷺ وترويح له وتسرية عنه وإزاحة لحزنه لعدم إيمان قومه به وإيذائهم له ولأصحابه ، فليس بدعا من الرسل ، وما يقع له من قومه وقع لغيره من الأنبياء السابقين ، فعليه وعلى أتباعه أن يتذرعوا بالصبر ويعتصموا بحبل الله ويتأسوا بالأنبياء الماضين حتى يأتيهم نصر الله .

وفيه تثبيت لفؤاده ﷺ وتقوية لقلبه وزيادة ليقينه بالله وحفز له على أداء رسالته بهمة وبلا خوف ولا وجل ، قال تعالى فى سورة هود

عليه السلام : ﴿ **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك** ﴾[١] .

وفيه بشارة للمؤمنين بنصر الله ، ونذارة للكافرين والعاصين بالهزيمة والخزى والعقاب لأن هذه سنة الله فى كونه ، فهى سنته فى الذين خلوا من قبل وهى سنة باقية ثابتة ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تحويلا .

وفيه تثبيت لرسالته وتأييد لصدقه فى دعواه النبوة والرسالة حيث نزل عليه القصص فى مكة المكرمة قبل الهجرة إلى المدينة المنورة وقبل التقائه بأهل الكتاب بها ، فنزول معظم القصص عليه بمكة وهو أمى والقصص أمر غيبى دليل على أنه رسول من عند الله يوحى إليه من الله تعالى .

سر البدء بقصة إبراهيم عليه السلام

وبدأ الله القصص فى هذه السورة الكريمة المكية بقصة إبراهيم الخليل عليه السلام مع أنه متأخر فى الزمن عن غيره من الأنبياء كنوح وهود عليهما السلام : لكون إبراهيم شيخ الأنبياء والمرسلين وأباهم فكل الأنبياء والمرسلين الذين جاءوا من بعده من نسله وذريته[٢] ، ولكون محمد ﷺ على سننه فى كثير من الأشياء الموجودة فى رسالته ولذا يقول تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ **قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا** ﴾[٣] ، وفى سورة آل

(١) سورة هود عليه السلام ١٢٠

(٢) كل الأنبياء والمرسلين من بعد نوح إلى آخرهم وخاتمهم محمد ﷺ من ذرية نوح وإبراهيم وهو مصداق قوله تعالى فى سورة الحديد ٢٦ : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب ﴾ الآية .

(٣) سورة الأنعام ١٦١

عمران يقول : ﴿ **ماكان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، إن أولى الناس بإبراهيم للذين إتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا** ﴾[1] ، **ولأن قصته أبلغ فى تسليته ﷺ لأنه كان يحب أباه إبراهيم حبا كبيرا جما ويتوق إلى سماع خبره الذى يشرح صدره ، ولأن فى قصة إبراهيم مع ضيفه مواعظ وعبرا وآدابا وشيما وأخلاقا وكرما يستفيدها المؤمنون .**

﴿ حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ :

معنى الحديث والضيف

الحديث هو : الخبر العظيم الذى إشتهر بين الناس وتناقلوه سواء كان قليلا أو كثيرا .

والضيف : إسم جنس كماء وتراب ، يطلق على الواحد والمثنى والجمع ، وهو فى الأصل بمعنى : الميل ، مصدر ضاف كصام صوما ، يقال : ضاف فلان فلانا : إذا مال كل منهما نحو الآخر ، ويجمع على أضياف ، وضيوف ، وضيفان ، ويقال للمرأة ضيف ، وضيفة ، والضيفن هو الذى يكون مع الضيف ، يقال : أضاف الرجل الرجل ، وضيفه تضييفا أى أنزله عنده ضيفا ، ويقال : ضافه ضيافة إذا نزل عليه ضيفا ، وسمى الضيف بهذه التسمية لأنه يضيف نفسه إلى غيره وينزل عنده .

ضيوف إبراهيم عليهم السلام وسبب نزولهم عنده

وضيف إبراهيم عليهم السلام كانوا من الملائكة ، نزلوا عليه فظنهم ضيوفا لأنهم سلموا عليه ولم يكن السلام معروفا فى قومه — كما قيل — ، ولأنهم جاءوا بصورة غير معهودة له من قبل لا فى الملائكة ولا فى الناس ، فلم يكذبه الله تعالى إكراما له وسماهم بما ظنه إبراهيم فيهم .

---

(1) سورة آل عمران ٦٧ — ٦٨

وكانوا ثلاثة ، وقيل عشرة ، وقيل إثنى عشر ، وقيل غير ذلك ، وجبريل عليه السلام واحد منهم فى كل عدد ، ومعرفة العدد لا تعننا ولو كان فى الوقوف على عددهم فائدة لبينه الله تبارك وتعالى أو رسوله ﷺ ، فالقرآن كتاب هداية وإعجاز وتوجيه وإرشاد لا يلقى بالا لهذه الأمور السهلة الهينة .

وجاءوا فى صورة غلمان حسان ذوى وجوه وضاءة وجمال بارع باهر .

وقيل إنهم لما خرجوا من عند إبراهيم عليه السلام وتوجهوا إلى قرية لوط عليه السلام أبصرتهم إبنتا لوط عليه السلام وهما تسقيان ، ورأتا فيهم هيئة حسنة وجمالا فائقا فقالتا لهم : ما شأنكم ؟ ومن أين جئتم ؟ وما تريدون ؟ قالوا : من قرية إبراهيم ونريد هذه القرية ، فقالتا : إن أهلها أصحاب فواحش ، فقالوا : فيها من يضيفنا وهو لوط ، فلما وصلوا لوطا عليه السلام ورأى هيأتهم وجمالهم خاف عليهم من قومه وضاق بهم ذرعا وقال : ﴿ **هذا يوم عصيب** ﴾ .

وسبب نزولهم هو : إهلاك قوم لوط عليه السلام ، ولذا قالوا لإبراهيم ما حكاه الله تعالى فى هذه السورة : ﴿ **إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ، لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين** ﴾ . ومروا على إبراهيم عليه السلام أولا ليطمئنوه على ابن عمه الشقيق أو ابن أخيه لوط عليه السلام فلا ينزعج عليه حين يعلم بهلاك قومه ، ولذلك لما أخبروه بقدومهم لإهلاك قرية لوط ومن فيها قال لهم : ﴿ **إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا إمرأته كانت من الغابرين** ﴾[1] .

---

(١) سورة العنكبوت ٣٢

وليبشروه بأن إمرأته سارة ستحمل منه وتلد غلاما عليما يبارك الله فيه وفى ذريته ويكون منهم النبيون والمرسلون ويكونون خيرا ممن سيهلكون من قوم لوط عليه السلام .

وكان إبراهيم عليه السلام مقيما بفلسطين ، ولوط عليه السلام مقيما فى قرية قريبة منه وبينهما نحو أربعة فراسخ ، وكان إبراهيم عليه السلام مشهورا بكثرة الكرم وسعة الجود والإحسان والسخاء ، ويحل عنده الضيوف كثيرا حتى كان يوصف بأنه أبو الضيفان .

وفى ذكر الضيافة فى القصة تدليل على صدق محمد ﷺ فى دعواه النبوة والرسالة لأنها أمر غيبى لا يعلم إلا بالوحى ، وإظهار لإرتباط هذه الآيات بما قبلها لأن فى الضيافة رزقا يسوقه الله تعالى إلى صاحبه .

وجه إكرامهم

« المكرمين » : وصف الضيف بصفة الإكرام لأنهم مكرمون عند الله كما قال سبحانه فى سورة الأنبياء عليهم السلام : ﴿ **بل عباد مكرمون** ﴾[1] ، ولأن إبراهيم عليه السلام أكرمهم فقابلهم بعظيم الترحاب وطلاقة الوجه والبشاشة ، وقدم إليهم الطعام ظنا منه أنهم بشر ، وقام على خدمتهم بنفسه .

﴿ **إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون** ﴾ :

إعراب إذ

« إذ » ظرف لما مضى من الزمان ، وهو معمول أو متعلق بحديث ، أو بضيف ، أو بالمكرمين باعتبار إكرام إبراهيم عليه السلام لهم ، ولا يصح أن يكون باعتبار إكرام الله لهم لأن إكرام الله لهم لا يتقيد ، أو هو معمول لكلمة « إذكر » المقدرة ، ولا يصح أن يكون العامل فى الظرف كلمة « أتاك » لإختلاف الزمانين وتباعدهما .

---

(١) سورة الأنبياء عليهم السلام ٢٦

سلام الملائكة وسلام إبراهيم عليهم السلام

والملائكة دخلوا على إبراهيم عليه السلام بيته وأعقبوا دخولهم بالسلام .

واختلف العلماء فى تحديد المراد بسلام الملائكة فقيل إنه : التحية المعروفة بلفظها ، وعلى هذا المعنى يكون قولهم « سلاما » مفعول مطلق لفعل مقدر أى نسلم عليك سلاما .

وقيل إن سلامهم كان تحية بالمعنى أى كان دعاء لإبراهيم بالسلامة والطمأنينة ، فهم بدأوه بالقول الطيب وبما يزيل وحشته منهم وخوفه الذى إعترى وجهه ونفسه حين رآهم ، وهذا كقوله تعالى فى سورة الزخرف : ﴿ **فاصفح عنهم وقل سلام** ﴾[1] ، وفى سورة الواقعة : ﴿ .... **إلا قيلا سلاما سلاما** ﴾[2] ، وفى سورة الفرقان : ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾[3] أى صوابا من القول ، وعلى هذا المعنى يكون قوله « سلاما » مفعول مطلق لفعل مقدر أى سلمت سلاما ، وحذف الفعل للدلالة على سرعة التحية والمبادرة بها .

القراءات المتواترة

﴿ **قال سلام** ﴾ :

رد إبراهيم عليه السلام على الملائكة فقال : « سلام » ، وكلمة « سلام » قرئت بالرفع على أنها مبتدأ والخبر محذوف أى سلام عليكم ، وهذا رد على تحية الملائكة على الوجه الأول ، وجاز الإبتداء بالنكرة لأن التنوين عوض عن المضاف إليه ولشهرة إستعمالها صارت معظمة موصوفة .

أو على أنها خبر والمبتدأ محذوف أى أمرى أو شأنى وحالى سلام ، وهذا رد على تحية الملائكة على الوجه الثانى .

---

(١) سورة الزخرف ٨٩ .   (٢) سورة الواقعة ٢٦ .   (٣) سورة الفرقان ٦٣ .

وقرأ حمزة والكسائى « سلم » بكسر السين وإسكان اللام وبدون ألف فى الكلمتين(١) ، والقراءتان بمعنى واحد مثل : حرم وحرام ، وحل وحلال .

سلام إبراهيم الخليل أبلغ من سلامهم

وجاء رد إبراهيم عليه السلام للتحية بالرفع للإيذان بثباته وقوة يقينه بالله ولتكون تحيته أحسن من تحيتهم عملا بمزيد الأدب معهم والإكرام لهم ، وهو أمر مرغوب من المسلم عليه ، ولذا قال عز وجل فى سورة النساء : ﴿ **وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها** ﴾ الآية (٢) .

معنى « منكرون » وبيان المخاطب

﴿ **قوم منكرون** ﴾ :

يقال : أنكرته ، ونكرته ، وإستنكرته : إذا وجدته على غير ماعهدت . وإبراهيم عليه السلام قال هذا لهم من باب التعرف عليهم كقولك لمن تلقاه لأول مرة :

عرف لى نفسك وشخصك : أى أنتم قوم غرباء لا أعرفكم .

أو قاله لنفسه وجال هذا المعنى بخاطره وصدره .

أو قال هذا لمن معه من أصحابه أو أهل بيته أى هؤلاء قوم منكرون .

والقول الأخير هو الظاهر والأليق بأدبه عليه السلام ، أما القول الأول فمرجوح لأنه به يوحش ضيوفه ويؤذيهم ويحرجهم ، ولو قصد إبراهيم التعرف عليهم لعرفوه بأنفسهم ونقل هذا لكنه لم ينقل ولم يرد ، ثم إن الجمع بين رد السلام على الضيوف والتصريح بإنكارهم فى نفس واحد غير معهود فى طباع الكرام وشيمهم وغير لائق بهم فكيف يقع

---

(١) انظر حجة القراءات لأبى زرعة ص ٦٧٩ . والنشر لابن الجزرى جـ ٢ ص ٢٩٠ ، وإتحاف فضلاء البشر للبناء الدمياطى ص ٣٩٩ .

(٢) سورة النساء ٨٦ .

سبب إنكارهم

وإبراهيم عليه السلام نكرهم لأنهم جاءوه بغير الصورة التى عهدها فى البشر وفى الملائكة الذين يعرفهم ، ولأنهم دخلوا بيته بلا إستئذان

﴿ فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ﴾ :

معنى « راغ » وسبب روغه

معطوف على مقدر أى بادر إبراهيم بالقرى فراغ ... إلخ ، أى مضى إلى أهله وانسل بسرعة فى خلسة وخفية من ضيوفه .

و « راغ » من باب : قال ، يقال : راغ الثعلب روغا وروغانا : إذا ذهب يمنة ويسرة فى سرعة وخفة وخديعة ، ويقال : راغ فلان إلى فلان : إذا مال إليه سرا لأمر يطلبه بالاحتيال والخديعة(١) .

وراغ إبراهيم عليه السلام إلى مايريد حتى لا يشعر ضيفه بذلك فيمنعونه أو يصيرون منتظرين ، وهو دليل على شدة وحسن أدبه وعلى أن هذا التصرف من أدب الضيافة .

والمقصود بأهله هنا : خدمه والرعاة الذين عنده .

﴿ فجاء بعجل سمين ﴾ :

سبب اختياره عجلا سمينا

أى أحضر على وجه السرعة عجلا حنيذا — مشويا — سمينا ممتلئا جسمه لحما وشحما ليتخيروا منه مايشتهون ، وكان العجل مجهزا عنده معدا دائما كل يوم لمن يأتيه من الضيوف ، أو أنه راغ إلى أهله فطلب أسمن عجل فذبحه فشواه فجاء به ، وطُوِىَ الكلام على سبيل المجاز بالحذف للدلالة على سرعة المجىء بالطعام وإحضاره .

(١) انظر غريب القرآن للسجستانى ص ١٥٨ ، والمفردات فى غريب القرآن للراغب ص ٢٠٨ ، والمصباح المنير للفيومى ص ٢٤٦ ، والصحاح للجوهرى ص ١٣٢٠ والقاموس المحيط للفيروزابادى جـ ٣ ص ١٠٧ .

والعجل : ابن البقرة ، واختاره إبراهيم عليه السلام لأن غالب ماله كان البقر ، فاختار أحسن عجل بين البقر وأسمنه لشدة جوده وكرمه ، وسَمِنَ من باب : سمع ، يقال : سمن سمنا وسمانة وسامن وسمين .

« فقربه إليهم » : أى وضعه بين أيديهم ، وهو تصرف حكيم ، ومن أدب الضيافة وإكرام الضيف .

﴿ **قال ألا تأكلون** ﴾ :

جملة مستأنفة استئنافا بيانيا وهى جواب لسؤال مقدر نشأ من الكلام السابق أى ماذا قال إبراهيم بعد تقديم الطعام إليهم ؟

معنى « ألا »

و « ألا » : أداة عرض وطلب ، فهو عرض عليهم الأكل وطلبه برفق ولين ومؤانسة وتلطف وبشاشة .

أو أداة تحضيض أى طلب منهم بهمة وإلحاح ونفس مسرورة أن يأكلوا .

أو الهمزة للإستفهام الإنكارى ، ونفى النفى إثبات ، أى : كلوا .

قال عمرو بن دينار رحمه الله : قالت الملائكة لإبراهيم عليهم السلام : « لا نأكل إلا ما أدينا ثمنه ، فقال لهم : إنى لا أبيحه لكم إلا بثمن ، قالوا : وما الثمن ؟ قال : أن تسموا الله تعالى عند الابتداء ، وتحمدوه سبحانه عند الإنتهاء ، فقال بعضهم لبعض : بحق اتخذه الله تعالى خليلا »[1] .

---

(1) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ص ٦٢١٦ . والبحر المحيط لأبى حيان جـ ٨ ص ١٣٩ . وروح المعانى للألوسى جـ ٢٧ ص ١٢ .

حكم الضيافة ومدتها

والضيافة فى الأصل عند جمهور الفقهاء والعلماء سنة ومستحبة وليست بواجبة وهى من مكارم الأخلاق ومن صفات النبيين والصالحين ومن متأكدات الإسلام ، ومدتها ثلاثة أيام لقوله ﷺ فيما رواه الشيخان والترمذى وابن ماجه وأبو داود ومالك والدارمى وأحمد بأسانيدهم عن أبى شريح الكعبى العدوى الخزاعى وإسمه خويلد بن عمرو رضى الله تعالى عنه :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ... » الحديث[1] .

وقوله ﷺ فيما رواه الشيخان والترمذى وابن ماجه وأبو داود ومالك والدارمى وأحمد بأسانيدهم عن أبى شريح رضى الله تعالى عنه :

« الضيافة ثلاثة أيام ، وجائزته يوم وليلة ، وما أنفق عليه بعد

---

(١) انظر صحيح البخارى كتاب الأدب باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره جـ ٨ ص ١٣ ، وباب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه ص ٣٩ ، وكتاب الرقاق باب حفظ اللسان ص ١٢٥ . وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب الإيمان باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير جـ ١ ص ٢٢١ ــ ٢٢٣ ، وكتاب اللقطة باب الضيافة ونحوها جـ ٤ ص ٣٢٥ . وسنن الترمذى أبواب البر والصلة باب ما جاء فى الضيافة وغاية الضيافة إلى كم هى جـ ٣ ص ٢٣٣ ، وأبواب صفة القيامة باب ١٦ جـ ٤ ص ٧٠ وصححه ، وسنن ابن ماجه كتاب الأدب باب حق الجوار ص ١٢١١ ــ وسنن أبى داود كتاب الأطعمة باب ما جاء فى الضيافة جـ ٣ ص ٣٤٢ . وموطأ مالك كتاب صفة النبى ﷺ باب جامع ما جاء فى الطعام والشراب ص ٥٧٨ . وسنن الدارمى كتاب الأطعمة باب فى الضيافة جـ ٢ ص ٩٨ . ومسند أحمد جـ ٢ / ١٧٤ / ٢٦٧ / ٢٦٩ / ٤٣٣ / ٤٦٣ ــ وجـ ٣ / ٧٦ ــ وجـ ٤ / ٣١ ــ وجـ ٥ / ٤١٢ ــ وجـ ٦ / ٦٩ / ٣٨٤ / ٣٨٥ ــ ورواه أيضا من الصحابة عائشة وأنس بن مالك وعبد الله بن عمرو رضى الله تعالى عنهم .

ذلك فهو صدقة عليه ، ولا يحل له أن يثوى عنده حتى يحرجه » الحديث[1] .

وقال الليث بن سعد وأحمد رحمهما الله تعالى : إن الضيافة واجبة يوما وليلة .

واختلف الفقهاء فيمن يطالب بها : هل أهل الحضر والبادية معا أو أهل البادية دون أهل الحضر أو العكس ، والمسألة مبسوطة فى موطنها من كتب الفقه .

معنى « أوجس » وسبب خوفه عليه السلام

« فأوجس منهم خيفة » :

الفاء للفصيحة وهى عاطفة على كلام مقدر دل عليه المقام أى : قرب إليهم ابراهيم الطعام فامتنعوا عن الأكل فأوجس منهم خيفة : أى أضمر فى نفسه خوفا شديدا وفزعا وهلعا لأن من آداب الضيافة أن يطعم الضيف من الطعام المقدم إليه ليؤنس صاحبه ويؤمنه

---

(١) انظر الموضع السابق من صحيح البخارى ، والموضع السابق من صحيح مسلم ، والموضع السابق من سنن الترمذى ، وسنن ابن ماجه كتاب الأدب باب حق الضيف ص ١٢١٢ . والموضع السابق من سنن أبى داود . والموضع السابق من الموطأ . والموضع السابق من سنن الدارمى . ومسند أحمد جـ ٢ / ٢٨٨ / ٣٥٤ / ٤٣١ / وجـ ٣ / ٨ / ٢١ / ٣٧ / ٦٤ / ٧٦ / ٨٦ وجـ ٤ / ٣١ / وجـ ٦ / ٣٨٥ / ٣٨٦ ـــ وهو مروى عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى وغيرهما من الصحابة رضى الله عنهم . ومعنى الجائزة : العطية والمنحة ، أى على المضيف أن يهتم بضيفه فى اليوم الأول ويقدم إليه ما يمكنه من بر وكرم ، أما فى اليوم الثانى والثالث فيقدم إليه ما تيسر واعتاده ، والضيافة بعد الأيام الثلاثة صدقة ومعروف إن شاء فعل المضيف وإن شاء ترك ، ولا يحل للضيف أن يظل عنده بعد الأيام الثلاثة لأن ذلك يوقعه فى الحرج والضيق والتبرم به ويعرضه للأذى إلا إذا طلب المضيف من الضيف مد مدة الإقامة فيجوز ذلك ولا بأس ، وهذا توجيه نبوى حكيم وتشريع عظيم لا يوجد فى غير الإسلام .

ويسره فإن من أكل الطعام حفظ الدمام ، فلما رآهم إبراهيم عليه السلام خالفوا سنة الضيافة وعادتها خاف أن يكون وراءهم مكروه يقصدونه ، وحُكِىَ أن أيديهم كان بها قداح ينكثون بها فى اللحم وكانت أيديهم لا تصل إليه ، فلما رأى ابراهيم ذلك منهم خاف أن يكون خلفهم مكروه وشر ، أو أن يكون أساء الأدب معهم ، أو لم يجد طعامُه قبولا ورغبة لديهم ، فلما رأوا عليه أمارات الخوف قالوا لاتخف .

كما حُكِىَ أن جبريل عليه السلام مسح على العجل فقام بإذن الله يجرى حتى لحق بأمه ، فعرفهم ابراهيم عليه السلام وأمن منهم واستبشر[1] .

لا تعارض فى القرآن الكريم

ولا تعارض بين الإنكار الموجود فى هذه السورة فى قوله تعالى إخبارا عن ابراهيم عليه السلام : ﴿ **قال سلام قوم منكرون** ﴾ وبين الإنكار الموجود فى سورة هود عليه السلام فى قوله تعالى ﴿ **فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم** ﴾[2] ، لأن الإنكارين مختلفان فى الزمن والسبب : فالإنكار الأول المذكور فى سورة الذاريات كان قبل تقديم الطعام إليهم ، فهو لا يعرفهم ولا يعرف موطنهم ، أما الإنكار الثانى المذكور فى سورة هود عليه السلام فكان بعد تقديم الطعام إليهم وعدم أكلهم منه ، فخاف لعدم أكلهم وعدم علمه بسبب مجيئهم هل جاءوا للخير أو للشر .

من آداب الضيافة والطعام

ومما تقدم يمكن أن نستخلص آداب الضيافة التى تكون على المضيف وعلى الضيف الذى ينزل ساحته ونزيد عليها آداب الطعام

---

(1) انظر روح المعانى للألوسى جـ ٢٧ ص ١٢ .   (2) سورة هود عليه السلام ٧٠ .

تتميما للفائدة فنقول :

١ ــ أن يسلم الضيف على المضيف ، وأن يرد المضيف عليه التحية نفسها أو أحسن منها وإن لم يعرفه .

٢ ــ أن يتعرف المضيف على ضيفه إن لم يعرفه ، ويتلقاه ببشاشة وطلاقة وجه ، فإبراهيم عليه السلام جمع بين بسط الوجه وبسط اليد .

٣ ــ أن يعرف المضيف ــ صاحب المنزل ــ الضيف جهة القبلة ، وبيت الماء وموضع الوضوء .

٤ ــ أن يعجل المضيف بتقديم ماعنده من قرى لضيفه .

٥ ــ أن يذهب لإحضار القرى فى خفية وتسلل حتى لا يحرج ضيفه .

٦ ــ أن يضع الطعام بين يدى الضيف فى مكانه الذى يجلس فيه ولا يكلفه الانتقال إلى مكان آخر .

٧ ــ أن يغسل الضيف يديه قبل تناول الطعام بل يستحب الوضوء قبل الطعام للنظافة وحلول البركة .

٨ ــ أن يخلع الضيف نعليه عند الطعام فإنه أروح لقدميه وأنسب لنعم الله علية ، وأن يستوى فى جلوسه وأن لا يفعل ما يستقذره غيره .

٩ ــ أن يبسمل الضيف فى أوله ثم يحمد الله فى آخره ، وإن نسى فليقل حين يتذكر « بسم الله أوله وآخره » .

١٠ ــ أن يتبع المضيف ماقدمه للضيف بشىء آخر إن كان ميسورا حتى يحس الضيف بالحفاوة ويشعر بالمؤانسة .

١١ ــ أن يقدم للضيف أكثر مما يأكل ، ولذا نرى إبراهيم عليه

السلام قدم طعاما يكفى عشرات .

١٢ — أن لا يتكلف المضيف فوق طاقته حتى لا يؤذى ولا يضار ولا يحرج .

١٣ — أن يؤنس ضيفه ويعرض عليه الأكل برفق ولين وتلطف .

١٤ — أن يأكل الضيوف مجتمعين إن اتسع المكان لتحل البركة فإن طعام الواحد يكفى الاثنين ، وطعام الاثنين يكفى الثلاثة ، وطعام الثلاثة يكفى الأربعة .

١٥ — أن ينوى الآكل بطعامه التقوّى على طاعة الله تعالى لا مجرد التلذذ والتنعم بما يأكل وهو مبدأ إسلامى عظيم يجعل الطعام طاعة وعبادة ويؤجر الطاعم على نيته .

١٦ — أن يبادر الضيف بالأكل عند تقديم الطعام ليدخل السرور على صاحبه ويؤمنه فإن من أكل طعامك حفظ ذمامك .

١٧ — أن يأكل الآكل مما يليه ، وأن يأكل بيمينه ، ويشرب بها .

١٨ — أن لا يأكل الآكل طعاما حارا فإن الصبر حتى يذهب دخانه وتخف حرارته أعظم للبركة .

١٩ — أن لا ينفخ فى الطعام فإن نفخه فى الطعام غير لائق ولا مناسب .

٢٠ — أن يخدم المضيف الضيف بنفسه وينظر إليه فى خفية ليرى : هل يأكل أوْ لا ، ويستحب أن يأكل معه ولا يرفع يده عن الطعام قبله حتى لا يستحيى ويحرجه .

٢١ — أن لا يحدد النظر إلى يد الضيف أو إلى ما يأكله حتى لا يحرجه : روى أن أعرابيا أكل مع هشام بن عبد الملك فرأى هشام

شعرة فى لقمة الأعرابى فقال له : أزل الشعرة من لقمتك ، فقال له الأعرابى غاضبا : أتنظر إلىَّ نظر من يرى الشعرة فى لقمتى ؟ وأقسم أنْ لا يأكل معه ، وقام وتركه وهو يقول :

وللموت خير من زيارة باخل ٭ يلاحظ أطراف الأكيل على عمد

٢٢ ــ أن لا يحدق الضيف النظر أو يسترسل معه فيما حوله من البيت فإن ذلك يؤذى مضيفه ــ صاحب المبيت ــ .

٢٣ ــ أن يلعق الآكل أصابعه الثلاث التى أكل بها فإن ذلك مستحب واعتراف بنعمة الله وشكره ــ وهذا مبدأ إسلامى عام .

٢٤ ــ أن يتوضأ الآكل بعد الطعام فإن ذلك من السنة ، ويدعو لصاحبه ويبشره بالخير كقوله : « اللهم اغفر لصاحب هذا الطعام ولأهله وارحمهم وبارك لهم فى رزقهم » ثم يشكر الله تعالى على نعمه ورزقه عملا بقوله تعالى : ﴿ **كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون** ﴾[1] ، ثم يشكر صاحب الطعام والمنزل على ما قدم من معروف فالطاعم الشاكر كالصائم الصابر ، ومن لا يشكر الناس لم يشكر الله .

٢٥ ــ أن يعتذر الضيف عن عدم الأكل ــ إن امتنع ــ بأدب وكلام طيب وسبب مقبول .

٢٦ ــ أن يكون الطعام من حلال ومن كسب طيب ، وأن يحرص صاحب الطعام على تقديمه للأتقياء المؤمنين فـ « لاتصحب إلا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك إلا تقى » .

٢٧ ــ أن يحادث المضيف ضيفه بعد تناول الطعام ويلتمس سبب قدومه ، فقد يكون محتاجا إلى نصح أو عون فينصحه ويساعده ويعينه

---

(١) سورة البقرة ١٧٢ .

على فعل الخير ، أو يحذره من الوقوع فى الشر .

٢٨ — أن لا تزيد مدة الضيافة والإقامة عن ثلاثة أيام بلياليها — عملا بالحديث السابق — إلا لحاجة وضرورة .

٢٩ — أن ينصرف الضيف طيب النفس شاكرا لأهل البيت محييا لهم وإن جرى فى حقه شيء من التقصير .

٣٠ — أن يخرج المضيف مع ضيفه إلى باب البيت لتوصيله وتوديعه وتحيته ، وإن أراد السير معه خارج المنزل لهذا الغرض فله ذلك ، وهو مبدأ إسلامى عظيم وأدب رفيع وزيادة إكرام له .

إلى غير ذلك من آداب الضيافة والطعام وسننهما التى تكون على المضيف والضيف معا[١] .

« قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم » :

لما أبصر الملائكة أمارات الخوف والانزعاج على وجه إبراهيم الخليل عليه السلام طمأنوه وقالوا له لا تخف ولا تفزع ، وبشروه بابن عليم يولد له من زوجه سارة ، وكانت هذه البشارة زيادة فى تطمينه ، وبمثابة اعتذار منهم عن عدم الأكل ، وتعريفه بأنهم ملائكة لا يأكلون ولايشربون ، فاطمأن لهم وهدأت نفسه .

معنى البشارة

والبشارة المطلقة هى : الخبر السار المفرح ، أما البشارة المقيدة فتكون بما قيدت به كقوله تعالى فى سورة التوبة فى مانعى الزكاة الكانزين : ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم** ﴾[٢] ، وبشر من باب : نصر ، ويقال :

---

(١) انظر سنن الدارمى كتاب الأطعمة جـ ٢ ص ٩٤ وما بعدها ، وإحياء علوم الدين للغزالى كتاب آداب الأكل ص ٦٤٩ — ٦٨٠ .

(٢) سورة التوبة أو براءة ٣٤ .

أبشر ، وبشر تبشيرا .

ويقابل البشارة : النذارة ، أو الإنذار ، أى الإخبار بما يؤذى ويسىء ويؤلم .

من أدب البشارة

ويستفاد من هذه القصة أن من أدب البشارة أن لا يخبر المبشر — بكسر الشين — المبشر — بفتح الشين — بجميع البشارة دفعة واحدة ، فربما يؤذيه الخبر السار المفاجىء ويزعجه ويورثه ضررا ، والأفضل أن يتريث معه ويتروى ويخبره بالتدريج كما فعل الملائكة عليهم السلام : دخلوا على ابراهيم عليه السلام وسلموا عليه وجالسوه حتى قدم إليهم الطعام ، وأزالوا خوفه منهم بعد إمتناعهم عن الأكل ، واستأنس بهم وألفهم ، ثم بشروه بالغلام العليم ، ثم أخبروه بإهلاك القوم المسرفين المجرمين .

إسحق عليه السلام هو الغلام العليم

والغلام العليم هو : إسحق بن سارة — عليه السلام — على الرأى الراجح بل الصواب بدليل قوله تعالى فى سورة الصافات : ﴿ **وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين** ﴾(١) ، أى بشرنا إبراهيم بإسحاق بواسطة الملائكة المرسلين من قبلنا وبأمرنا ، وقوله تعالى فى سورة هود عليه السلام : ﴿ **فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب** ﴾(٢) ، أى بشر الله سارة بإسحاق الذى سيولد منها ، وبيعقوب الذى سيولد لإسحق ويكون منه .

ولا تعارض بين الآيتين الكريمتين لأن البشارة لأحدهما بشارة للآخر فهما زوجان والابن المبشر به منهما معا .

تضمنت البشارة بشارات

وكلمة « غلام » نكرة لإفادة التعظيم ، وكلمة « عليم » صيغة مبالغة ومتعلقها محذوف لإفادة العموم والشمول .

---

(١) سورة الصافات ١١٢ . (٢) سورة هود عليه السلام ٧١ .

ومن ينعم النظر فى هذه البشارة يجدها تضمنت بشارات :
ففيها : بشارة بأن إبراهيم عليه السلام الشيخ الطاعن فى السن سيولد له من سارة زوجه العجوز العقيم .

وبشارة بأن المولود سيكون ذكرا وهو أسر للنفس وأبهج .

وبشارة بأنه سيكبر ويبلغ أشده ويستوى .

وبشارة بأنه سيكون عليما ، والعلم أفضل الصفات ورأس الكمالات وأجمعها .

وبشارة بأنه سيكون نبيا كريما مباركا .

وبشارة بطول بقاء إبراهيم الخليل وزوجه سارة وامتداد عمرهما ، وصدق الله العظيم فى قوله فى سورة الأنبياء عليهم السلام : ﴿ **ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين** ﴾[1] .

أما الغلام الحليم المذكور فى سورة الصافات الصابر الصادق الوعد فهو إسماعيل بن إبراهيم من هاجر المصرية عليهم السلام ، وهو الذبيح على القول الرجيح ، وبينه وبين مولد إسحق أخيه من الأب نحو أربعة عشر عاما .

« فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم » .

كلمة « فأقبلت » معطوفة على كلمة « بشروه » أى بشروه فأقبلت ، وبشارته بشارة لها كما سبق .

معنى « أقبلت »

ومعنى « أقبلت » : انتقلت سارة من مكانها الذى كانت فيه وتوجهت إلى مجلس الملائكة تستطلع الخبر وتتبينه لأن الخبر فاجأها وباغتها ، وهذا يفيد أنها كانت فى جهة من جهات البيت ، فلما

(١) سورة الأنبياء عليهم السلام ٧٢ .

سمعت كلامهم لزوجها أقبلت عليهم وفعلت وقالت ماحاكاه الله تبارك وتعالى .

وقيل إن معنى « أقبلت » : أخذت وشرعت كقولك : أقبل فلان يفعل كذا ، أى أخذ فيه وشرع ، أو كقولك : أقبل فلان يمدح فلانا أى أخذ فى مدحه ، وهذا يفيد أنها كانت مع زوجها فى خدمة الضيوف والقيام على شئونهم فى وقار واستحياء وأدب .

وقيل إن معنى « أقبلت » : أدبرت ، فهى كانت حاضرة مع زوجها فى مجلس الملائكة لخدمتهم ، فلما سمعت البشارة أدبرت وتركت المجلس استحياء وخجلا ، وذكر الله عز وجل صيغة الإقبال دون الإدبار إجلالا للملائكة وإكراما لها ولزوجها .

ولا يمنع من هذا المعنى قول الملائكة لها : « كذلك قال ربك ... » لأنها كانت تسمع كلامهم أثناء مغادرتها مجلسهم .

معنى الصرة

« فى صرة » : الصرة معناها : الصيحة والضجة : من صرير الباب أى صوته .

وعلى المعنى الأول السابق فى « أقبلت » يكون الجار والمجرور فى موضع النصب على الحال أى أقبلت حال كونها صارة .

وعلى المعنى الثانى يكون المجرور منصوبا على المفعول به ، و (فى) صلة أى أخذت صيحة وفعلتها ، كقول القائل : يجرح فى عراقيبها نصلى : أى يجرح عراقيبها نصلى .

أو الجار والمجرور فى موضع الخبر لأن كلمة « أقبل » من أخوات « كاد » العاملات عمل « كان » ، فهى فعل من أفعال المقاربة .

وصيحتها وصرختها بقولها الذى ذكره الله تعالى فى سورة هود عليه السلام وهو : « ياويلتى ... » .

وقيل : الصرة : جماعة من النسوة كن معها ، أقبلن على الملائكة منضمات معها يسمعن البشارة .

وقيل الصرة الصيحة الشديدة التى تصدر من المرأة وتندّ منها على حسب ما تعودت النساء عليه حين يسمعن خبرا عجيبا فإنهم يصحن تعجبا أو استحياء .

معنى صك الوجه وسببه

« فصكت وجهها » : أى ضربت جبينها بأطراف أصابع يدها مجتمعة كما يفعل المتعجب[1] ،

أو لطمت وجهها بيدها مبسوطة[2] ، وهذه عادة فى النسوة : إذا سمعن شيئا عجيبا غريبا يفعلن ذلك تعجبا أو استحياء وخجلا .

وقيل إنها شعرت بحرارة دم الطمث فلطمت وجهها خجلا وحياء .

ومافعلته سارة عليها السلام دليل على ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها وترويها وتأنيها حيث بادرت سارة إلى الندبة وصك الوجه بمجرد سماعها لأمر غريب مخالف للعادة إذ لم تكن تتوقع الولد وتنتظره وهى وزوجها فى هذه السن .

« وقالت عجوز عقيم » : أى أنا طاعنة فى السن عاقر فكيف

---

(1) انظر الكشاف للزمخشرى جـ ٤ ص ٣٠ . وإرشاد العقل السليم لأبى السعود جـ ٨ ص ١٤٠ .

(2) انظر الصحاح للجوهرى ص ١٥٩٦ والمصباح المنير للفيومى ص ٣٤٥ ، والقاموس المحيط للفيروزابادى جـ ٣ ص ٣١٠ .

ألد ؟»؟ وفى سورة هود عليه السلام : قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب »[1] .

فهى استبعدت ولادتها لثلاثة أسباب :

أنها كبيرة فى السن طاعنة عجوز .

وأنها عاقر عقيم لم تلد فى شبابها ونضرة حياتها وريعان عمرها فكيف تلد بعد أن كبرت سنها .

وأن زوجها شيخ كبير بلغ من الكبر عتيا .

فولادتها أمر مستغرب وشىء عجيب مستنكر لمخالفته للعادة ولما ألف الناس ولذا فإن آية سورة الذاريات التى جاء فيها قولها عن نفسها « عجوز عقيم » تتضمن استفهاما صرح به فى آية سورة هود عليه السلام وهى قولها : « أألد وأنا عجوز ... » ، ومعنى الاستفهام التعجب والغرابة .

أدبها وحسن خلقها

وفى كلامها مع الضيوف الذين ظنتهم رجالا حسن أدب وجمال خلق حيث اقتصرت على ذكر سبب عدم ولادتها وأوجزت ولم تطل الكلام ولم تجادل .

وروى أنها لما سمعت البشرى قالت للملائكة . ظنا منها أنهم رجال يدعون لها ولزوجها بالولد كما يدعو الضيف للمضيف — قالت : ليتكم دعوتم بدعاء قريب من الإجابة » ، فأخبروها بأن ما قالوه ليس دعاء وإنما هو قول الله وحكمه وقضاؤه الذى لا يرد فلا تعجب منه ولا استغراب .

معنى « عجوز عقيم »

و « عجز » من باب : ضرب ، يقال : عجزت تعجز عجزا ،

(١) سورة هود عليه السلام ٧٢ .

وعجزت تعجيزا : إذا طعنت فى السن ، و « عجوز » للرجل وللمرأة ، ويقال : عجز بكسر الجيم كفرح عجزا بضم العين وفتحها : إذا عظمت عجيزتها .

ويقال إن عمر سارة عليها السلام كان قريبا من المائة عام ، وعمر إبراهيم عليه السلام تجاوز المائة عام .

و « عقيم » : فعيل بمعنى فاعل ، أو مفعول ، من العقم ، وأصله : اليبس المانع من قبول الأثر ، وتوصف به المرأة التى لم تلد قط لانقطاع حبلها بسبب عدم قبولها ماء زوجها ، ويوصف به أيضا غير المرأة ، يقال : عقمت المرأة ، وعقمت الرحم ، ورجل عقيم ، ويوم عقيم ، وريح عقيم ، وملك عقيم(١) .

« قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم » :

أى حكم الله تعالى وقضى بهذا أزلا ونحن نخبرك عن الله سبحانه وجئنا من قِبَله وبإذنه ولا نقول من تلقاء أنفسنا فلا تستبعدى ولا تتعجبى لماقضاه وأراده جل وعلا .

وفيما قالوه رد لتعجبها وإزالة لاستغرابها وإثلاج لصدرها .

معنى الكاف فى « كذلك » والمراد بها

والكاف فى « كذلك » بمعنى : مثل ، وهى صفة لمصدر مقدر ، أى قال ربك قولا مثل ذلك القول ، فالغرض من الكاف التشابه أو التماثل ببيان أن قول الله تعالى كقول ملائكته المرسلين بأمره فى الصدق وفى الحق والمطابقة للواقع .

---

(١) انظر الصحاح للجوهرى ص ١٩٨٨ — ١٩٨٩ ، والمفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ٣٤٢ ، والمصباح المنير للفيومى ص ٤٢٣ ، والقاموس المحيط للفيروزابادى جـ ٤ ص ١٥٢ .

أو أن فى الآية تشبيها فيه مبالغة عظيمة فى شدة صدق قول الملائكة وحقيته حتى إن قول الله صار مشبها بقولهم

وليس الغرض من الكاف : التشبيه المعروف الذى فيه إلحاق ناقص بزائد ويكون المشبه به أكمل فى وجه الشبه من المشبه : لأن قول الله تبارك وتعالى هو الأصل فى الصدق والحق ﴿ **ومن أصدق من الله حديثا** ﴾[1] ، ﴿ **ومن أصدق من الله قيلا** ﴾[2] ، ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** ﴾[3] .

معنى « الحكيم العليم » وسر ذكرهما هنا

﴿ **إنه هو الحكيم العليم** ﴾ :

جملة تذييلية فيها تعليل لما قبلها ، وكلمتا « حكيم وعليم » صيغتا مبالغة ، والمبالغة فى حق الله تعالى حقيقة وليست ادعاء : ولا خيالا ، وكل صفاته سامية كاملة أتم كمال ، غير متناهية .

فهو حكيم فى سائر أفعاله ، عليم لا تخفى عليه خافية ، يعلم الجهر والسر وأخفى من السر ، بل هو عليم بذات الصدور ، وكل أفعاله متقنة محكمة تكون على وفق الحكمة والمصلحة والخير للعباد والبلاد وسائر الخلائق ، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه .

لا اختلاف ولا تعارض فى القرآن الحكيم

وما جرى لسارة عليها السلام من تعجب واستغراب ومناقشة للملائكة جرى لزوجها إبراهيم الخليل عليه السلام كما أخبر الله تعالى فى سورة الحجر :

﴿ **قال إنا منكم وجلون ، قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم ، قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون ، قالوا بشرناك بالحق**

---

(١) (٢) سورة النساء ٨٧ — ١٢٢ . (٣) سورة يس ٨٢ .

فلا تكن من القانطين ، قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾(1) .

فالحوار مع الملائكة حصل منهما معا ، وذكر القرآن الكريم حوارها هنا وفى سورة هود عليه السلام ، كما ذكر حواره فى سورة الحجر ، ولا تعارض ولا تناقض فالآيات يكمل بعضها بعضا والقرآن الكريم يفسر بعضه بعضا ، وحاش القرآن الحكيم عن الاختلاف والتناقض ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** ﴾(2) .

وختمت الآية الكريمة هنا بسعة حكمة الله وسعة علمه لإزالة تعجبهما ودهشتهما ، وبيان أن الله تبارك وتعالى لا يقضى ولا يحكم بشيء عبثا وجزافا ، وإنما كل شيء عنده بمقدار وبحكمة واسعة بالغة وعلم تام شامل للأشياء كلها وحاشاه عن العبث .

أما فى سورة هود عليه السلام فختمت الآية الكريمة بجملة : ﴿ **إنه حميد مجيد** ﴾(3) ؛ لأنهم لما بشروهما وأزالوا تعجبهما وصدقاهم أرشدوهما ونبهوهما إلى حمد الله وشكره والثناء عليه ، فهو أهل الحمد والمجد والثناء والشكر وواهب النعم كلها .

﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ :

صلة الآية بما قبلها

وهذه الآية متصلة بما قبلها اتصالا وثيقا ، فهى مستأنفة استئنافا بيانيا لأنها جواب لسؤال مقدر ناشيء من الكلام السابق ، وذلك أن

---

(1) سورة الحجر 52 — 56 .

(2) سورة النساء 82 — وانظر كتاب : العقد الفريد فى مباحث من علوم القرآن المجيد » للمؤلف « المبحث الثالث » موهم الاختلاف والتناقض ص 173 — 211 .

(3) سورة هود عليه السلام 73 .

إبراهيم الخليل عليه السلام لما علم أن ضيوفه رسل من الله بقولهم لزوجته سارة : ﴿ **كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم** ﴾ كان لسائل أن يسأل : ما الذى قاله إبراهيم عليه السلام لهؤلاء الملائكة المرسلين بعد ذلك ؟ فكان الجواب هو هذه الآية الكريمة : ﴿ **قال فما خطبكم أيها المرسلون** ﴾ .

والفاء للفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر ، وفى ذكرها دلالة على أن ما بعدها مسبب عما قبلها ومرتبط به ارتباطا قويا .

فالملائكة عليهم السلام أزالوا الرَّوْع من رُوع إبراهيم عليه السلام وطمأنوه وآمنوه وآنسوه وبشروه ببشارات عظيمة وعزموا على مغادرة بيته فسألهم : إذا كان الأمر كما ذكرتم من الأنس والبشارة وفى وجودكم الخير والبركة فما السبب فى تعجلكم بمغادرة بيتى واستعجالكم الخروج الموحش لى ولبيتى ؟ .

معنى الخطب وسر ذكره

والخطب هو : الأمر العظيم والشأن الجسيم ، وجمعه خطوب .

وفى ذكر الخطب دون غيره من الألفاظ دلالة على التعظيم والتفخيم مع الإيجاز ، وقد عرف إبراهيم عليه السلام عظمة ما جاءوا من أجله ولكنه قصد استقصاء الحال واستبيان مهمتهم فسألهم : ما شأنكم وما مهمتكم ؟ هل أرسلتم للبشارة وحدها أو لأمر مهم آخر أو لهما معا ؟

وفى ندائه لهم فى السؤال ووصفهم بالرسالة مع قربهم منه وجلوسهم معه دليل على تعظيمهم وإجلال قدرهم وشدة أدبه وورعه معهم فأجابوه بقولهم :

﴿ **قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين** ﴾ :

وعلم إبراهيم عليه السلام بأنهم ملائكة مرسلون من الله عز وجل من قولهم لزوجه سارة : ﴿ **كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم** ﴾ ، ولذا ناداهم فى سؤاله بوصفهم بالرسالة ﴿ **أيها المرسلون** ﴾ ، ووصفوا أنفسهم بها أيضا فى قولهم هنا : ﴿ **إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين** ﴾ ، وفى سورة هود عليه السلام : ﴿ **قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط** ﴾(1) .

المقصود بالقوم المجرمين هنا

فالقوم المجرمون المذكورون فى سورة الذاريات هم قوم لوط عليه السلام كما جاء فى سورة هود عليه السلام ، والقرآن يفسر بعضه بعضا ، ومعلوم أن أعلى درجة فى التفسير وأعظمها وأولاها وأجدرها هى تفسير القرآن بالقرآن .

فقوم لوط عليه السلام كانوا مجرمين عادين طاغين : أذنبوا ذنبا عظيما — إلى جانب كفرهم — ما سبقهم به أحد من العالمين وهو : ارتكابهم الفاحشة وهى اللواط : « إتيان الذكران وترك ما خلق الله لهم من أزواجهم » ، وهو عمل قبيح ممقوت لا يعمله فى المخلوقات إلا الحمير والخنازير .

وتنكير كلمة « قوم » لإفادة تحقيرهم وتصغيرهم ومهانتهم .

فالملائكة عليهم السلام بينوا أنهم جاءوا لأمرين عظيمين وشأنين كبيرين :

الأول : تبشير إبراهيم الخليل عليه السلام بأن زوجته سارة ستلد له ولدا وسيكون عظيما مباركا صالحا ويكون من صلبه الأنبياء عليهم السلام .

---

(1) سورة هود عليه السلام ٧٠ .

الثانى : إهلاكهم لقوم لوط الأشرار الظالمين الفجار .

وبين هذين الأمرين ارتباط قوى ، ويعدان بشارتين فإن إهلاك الأشرار ومحقهم بشارة للأخيار ورحمة ونعمة للأطهار الذين يحلون محلهم ، ويكونون عوضا عنهم .



موقف قوم لوط عليه السلام وعاقبتهم

ولد إبراهيم عليه السلام بأرض الكلدانيين أرض بابل بالعراق ، وكذلك ابن أخيه — وقيل ابن عمه — لوط بن هاران عليه السلام ، ثم انتقلا إلى أرض الكنعانيين ببلاد الشام وأقاما بمنطقة بيت المقدس التى بارك الله فيها للعالمين ، وبعد مدة من إقامتهما معاً بها أمر إبراهيم لوطا عليهما السلام بالنزوح من المكان الذى يعيش فيه معه والنزول بمدينة « سدوم » من أرض غور زغر ، ودعوة أهلها إلى الله وإرشادهم ، فنفذ لوط عليه السلام أمر عمه وأطاعه فذهب إلى تلك المنطقة وأقام بها ووقف على أحوال أهلها وسكانها فوجدهم يرتكبون الفاحشة فيأتون الذكران ويتركون نساءهم اللاتى أحلهن الله لهم ، وهى فاحشة ما سبقهم بها أحد من العالمين ، ووجدهم يقطعون الطريق ويخونون الرفيق ويأتون فى أنديتهم المنكرات والموبقات على مرأى ومسمع من بعضهم بلا حياء ولا خجل .....

فدعاهم لوط عليه السلام إلى الإيمان بالله وحده وعبادته ، ونهاهم عن ارتكاب المحرمات والفواحش ، ولكنهم عصوه وتمادوا فى عصيانه ، واستمروا على كفرهم وفجورهم وعملوا على إخراجه وطرده من قريتهم ، وقالوا له على وجه التحدى والمكابرة : ﴿ **ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين** ﴾[1] ، فصبر لوط عليه السلام عليهم واستمر

(١) سورة العنكبوت ٢٩ .

فى دعوتهم وهدايتهم إلى صراط الله المستقيم .

ولما يئس منهم واستبان له استمرارهم على كفرهم وعنادهم وتحديهم دعا الله أن ينصره على هؤلاء القوم المفسدين ، فاستجاب الله تعالى دعاءه ، وأرسل بعض ملائكته فمروا على عمه إبراهيم عليه السلام وبشروه بالغلام العليم وبما جاءوا من أجله وهو إهلاك قوم لوط عليه السلام ، ولكن إبراهيم جادل الملائكة المرسلين راجيا أن يتوب هؤلاء العصاة من ذنوبهم وينيبوا إلى ربهم ويسلموا له ، وهذا بدافع من حلمه ونبله وكرمه وصبره وشفقته وخوفه على المؤمنين فى هذه القرية ﴿ **فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط ، إن إبراهيم لحليم أواه منيب ، يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود** ﴾(١) ، وقال لهم إبراهيم : ﴿ **إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين** ﴾ (٢) .

ولما وصلت الملائكة لوطا استضافوه فأضافهم وسيء بهم وضاق بهم ذرعا خوفا عليهم من قومه وقال : ﴿ **هذا يوم عصيب** ﴾ ، لأنهم كانوا فى صورة شبان حسان ابتلاء من الله لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم .

ولكن امرأة لوط واسمها « والهة » أخبرت القوم بضيوفه فجاءوه يهرعون إليه يستبشرون ، فطلبوا منه تسليم الضيوف إليهم ليرتكبوا معهم الفاحشة ، فقال لهم لوط عليه السلام : ﴿ **يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل**

---

(١) سورة هود عليه السلام ٧٤ — ٧٦ .

(٢) سورة العنكبوت ٣٢ .

رشيد ﴾[1] ، فلم يستمعوا لكلامه ولم يستجيبوا لنصحه وأعمى الكفر قلوبهم وأشربوا فى قلوبهم المنكر بكفرهم وأفقدهم الصواب فقالوا : ﴿ **لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد** ﴾[2] .

ولبئس ما قالوا فى وجه نبيهم الكريم ورسولهم الحليم ، فقال لوط عليه السلام : ﴿ **لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد** ﴾[3] .

فطمس الله تعالى أعين قومه ، وطمأن الملائكة لوطا بأن هؤلاء العصاة البغاة لن يصلوا إليه ، وأمروه أن يسرى فى آخر الليل هو وأهله ، ولايلتفت منهم أحد إذا سمعوا صوت العذاب نازلا إلا امرأته .

ولما خرج لوط بأهله وخلصوا من بلادهم وأشرقت الشمس نزل بقومه العذاب : ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد** ﴾[4] .

فأنجى الله تعالى لوطا وأهله المؤمنين ، وأهلك أولئك العتاة المجرمين ، وجعلهم سلفا ومثلا للآخرين ، إلى يوم الدين .

وذكر الله تعالى قصة إبراهيم مع ضيفه الملائكة عليهم السلام فى : سورة هود عليه السلام فى الآيات ٦٩ / ٧٦ — وسورة الحجر فى الآيات ٥١ / ٥٨ — وسورة العنكبوت فى الآيات ٢٧ / ٣٢ — وسورة الذاريات فى الآيات ٢٤ / ٣٤ — .

وذكر الله عز وجل قصة لوط عليه السلام وموقف قومه

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) سورة هود عليه السلام ٧٨ — ٨٣ — ونساؤهم بناته لأن كل نبى الد لأمته كما هو معلوم .

وعاقبتهم فى :

سورة الأعراف فى الآيات ٨٠ / ٨٤ — وسورة هود عليه السلام فى الآيات ٧٧ / ٨٣ — وسورة الحجر فى الآيات ٥٩ / ٧٩ — وسورة الأنبياء عليهم السلام فى الآيتين ٧٤ / ٧٥ وسورة الشعراء فى الآيات ١٦٠ / ١٧٥ — وسورة النمل فى الآيات ٥٤ / ٥٨ — وسورة العنكبوت فى الآيات ٢٨ / ٣٥ — وسورة الصافات فى الآيات ١٣٣ / ١٣٨ — وسورة الذاريات فى الآيات ٣٢ / ٣٧ — وسورة القمر فى الآيات ٣٣ / ٣٩ .

﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمسرفين ﴾ :

« لنرسل » لفظ متعلق بقوله تعالى : « أرسلنا » ، فاللام التى فى كلمة « لنرسل » لام كى ، أى أرسلنا إلى قوم مجرمين لإرسال الحجارة عليهم ورجمهم بها .

المقصود بالحجارة وفائدة تنكيرها ووصفها بما ذكر

وهى حجارة محرقة مهلكة هابطة من السماء ، كانت من طين طبخ حتى اشتد وصلب وصار كالآجر ، كما جاء فى سورة هود عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ **وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد** ﴾[1] ، وفى سورة الفرقان فى قوله تعالى : ﴿ **ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء ...** ﴾[2] .

وفى تنكير كلمة « حجارة » دلالة على كثرتها وقوة تأثيرها ونفاذ مفعولها ، ولذا ذكر الله سبحانه كلمة « أمطرنا » فى سورة هود عليه

---

(١) سورة هود عليه السلام ٨٢ — ٨٣ . (٢) سورة الفرقان ٤٠ .

السلام ، وكلمة « أمطرت » فى سورة الفرقان ، ففى تنكيرها ووصفها بالإمطار والإرسال دليل على كثرتها وقوتها وعظمتها واحتوائها لهم .

ووصفت الحجارة بأنها (من طين) حتى لايتوهم متوهم أنها حجارة من برد فإن البرد أصله ماء ثم تجمد ، ويسميه بعض الناس حجارة[1] ، قال العلامة أبو حيان : هى السجيل ، وهو طين يطبخ كما يطبخ الآجر حتى يصير فى صلابة كالحجارة أ هـ[2] .

وكلمة : « مسومة » صفة ثانية لكلمة : « حجارة » ، ويصح أن تكون حالا منها لأن كلمة : « حجارة » — وإن كانت نكرة — وصفت بكلمة : « من طين » ، فوجد المسوغ لمجىء الحال من النكرة ، أى لنرسل عليهم حجارة موصوفة بأنها من طين حال كونها مسومة .

وكانت الحجارة مسومة أى معلمة بعلامة من السومة وهى العلامة ومنه قوله تعالى : ... والخيل المسومة ... »[3] ، واختلف المفسرون فى تعيين العلامة : فقيل : كانت فيها خطوط بيضاء وسوداء ، وقيل : خطوط سوداء وحمراء ، وقيل : كانت عليها علامة تدل على أنها أحجار عذاب ونقمة ، وقيل عليها علامة تدل على أنها ليست من أحجار الدنيا ، وقيل : عليها ما يشبه الخاتم أى علامة تجعل الحجر يتبع صاحبه ويهلكه حتما ولا يفلت منه ويتبعه أينما كان ، وقيل : على كل حجر اسم صاحبه الذى يهلك به ولم ينزل حجر منها على غير صاحبه المعين له .

---

(١) انظر التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى جـ ٢٨ ص ٢١٧ .
(٢) انظر البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى جـ ٨ ص ١٤٠ .
(٣) انظر سورة آل عمران الآية رقم ١٤ .

وكان عدد الهالكين كثيرا حتى قيل إنهم كانوا ستمائة ألف أو يزيدون ، وكانوا فى قراهم الأربع أو الخمس على الخلاف بين المؤرخين ، وهى قرى متقاربة متجاورة تتبع القرية الكبرى « سدوم » بين المدينة المنورة والشام .

وبدأ إنذارهم وإهلاكهم بإدخال جبريل عليه السلام جناحه تحت قراهم واقتلاعها من مكانها ورفعها جهة السماء وهم فيها حتى سمع أهل السماء أصواتهم وعويلهم ونهيق حميرهم وصياح ديكهم ونباح كلابهم لم يكسر لهم إناء من آنيتهم ولم تنكفىء لهم جرة من جرارهم ، ثم قلبها جبريل عليه السلام فجعل عاليها سافلها وسافلها عاليها ، وأرسلت عليهم الحجارة المهلكة متتابعة متفرقة كالمطر فتتبعت من كان حيا من مقيميهم ومسافريهم ولم يبق منهم أحد إلا من اتبع لوطا عليه السلام بإخلاص وصدق ، وإيمان وحق .

وقيل فى وصف الحجارة ، وتعيين علامتها ، وتحديد مكانها الذى جاءت منه فى السماء ، وفى كيفية تعذيبهم بها : كلام غير ذلك لم يرد فيه نص عن الله تبارك وتعالى ولا أثر صحيح صريح عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذا ضربنا عن ذكره صفحا ، وطوينا عنه كشحا .

وقوله تعالى : ﴿ **عند ربك للمسرفين** ﴾ ظرف متعلق بقوله : « مسومة » :

المراد بالعندية

وهذه العندية ليست عندية مكان على مذهب الخلف لأن الله عز وجل منزه عن المكان والزمان ، فلا يحتويه مكان ولا يجرى عليه زمان ، وإنما المقصود بالعندية هنا — على مذهبهم — عندية مكانة وعلم ، أى هى حجارة مسومة ومعدة فى علمه تعالى لجزائهم وإبادتهم ، فالكلام من باب المجاز المرسل ، وعلاقته إطلاق الملزوم

وإرادة اللازم إذ يلزم من الوجود فى المكان العلم والإحاطة بما فيه ، وقرينة المجاز هنا هى الاستحالة .

أما السلف الصالح رحمهم الله وأكرمهم فيرون إثبات العندية لله تعالى مع تفويض الكيف إليه ، فلا يمثلون ولا يكيفون ولا يعطلون وإنما يصفون الله سبحانه بكل ما وصف نفسه به مع تنزيه عن مشابهته للحوادث ، ويمُرون كل آيات وأحاديث الصفات كما وردت مع كلة علمها وحقائقها إليه جل وعلا .

معنى الإسراف وسر وصفهم به

« للمسرفين » : جار ومجرور متعلق بقوله تعالى : « مسومة » أى حجارة معلمة ومرسلة للمسرفين خاصة بهم .

وهى كلمة مشتقة من الإسراف وهو : مجاوزة الحد فى كل شىء ، والمقصود بالإسراف هنا : مجاوزة الحد فى الفسق والعصيان والانحلال والفجور والطغيان .

وأل فى « المسرفين » للعهد لأن المقصود بهم قوم لوط الموصوفون من قبل بالإجرام ، فهم وصفوا بوصفين ودمغوا بنعتين : الإجرام والإسراف .

وفى ذكر الإسراف إظهار فى موضع الإضمار لذمهم بالإسراف بعد ذمهم بالإجرام ، ولبيان علة استحقاقهم للعذاب الذى استأصل شأفتهم وجعلهم عبرة ومثلا للآخرين كما قال تعالى : ﴿ **وما هى من الظالمين ببعيد** ﴾(١) .

هلاك أبرهة ومن معه

وعذب أبرهة الأشرم الحبشى ومن اتبعوه لهدم الكعبة المشرفة بمثل ما عذب به قوم لوط عليه السلام قبل مولد رسول الله — ﷺ —

(١) سورة هود عليه السلام ٨٣ .

بعام ، وسمى العام عام الفيل ، وكان إهلاكهم وحفظ بيت الله إرهاصا بمولد خير البشرية وسيد البرية ﷺ ، وقصة أبرهة أشهر من أن تذكر وتحدثت عنها سورة الفيل وهى سورة مكية .

﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ :

صلة الآيتين بما قبلهما

وهاتان الآيتان متعلقتان بما قبلهما تعلقا بينا ، فبعد أن حكى الله تعالى ما كان بين الملائكة وبين إبراهيم عليهم السلام من مفاوضات ومخاطبات حكى ما جرى وحل بقوم لوط عليه السلام بطريق الإجمال والإيجاز .

فالفاء فى قوله « فأخرجنا » للفصيحة ، أفصحت عن كلام مقدر يفهم من السياق والمقام ومن آيات أخرى ، وتقدير الكلام : فتركوا إبراهيم عليهم السلام وقاموا من عنده وذهبوا إلى لوط عليه السلام ودار بينهم وبينه كلام وحوار و ﴿ **قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب** ﴾(١) ، فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ، أى لما أردنا إهلاك قوم لوط وإبادتهم أخرجنا من كان فيها من المؤمنين بقولنا ﴿ **فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك** ﴾ خشية إهلاكهم وخوفا عليهم ورحمة بهم من رؤية العذاب وأمرنا ملائكتنا بمباشرة أعمالهم فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة إلخ .

والضمير فى قوله تعالى : « فيها » فى الآيتين الكريمتين يعود على

---

(١) سورة هود عليه السلام ٨١ .

قرى قوم لوط أى فأخرجنا من كان فى قرى قوم لوط من المؤمنين ، ولم تذكر قراهم صراحة هنا لشهرتها وشهرة قصتهم ودلالة السياق عليها فهم قوم ولهم نبى مرسل إليهم ولهم موطن وقرى متجاورة يسكنون فيها ويحيون على أرضها .

المراد بالبيت

والمراد بكلمة « بيت » أهله أى غير أهل بيت من المسلمين ، ففى الآية مجاز بالحذف كقوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام : ﴿ **واسأل القرية** ﴾(1) : أى أهلها .

ويجوز أن يكون المراد بالبيت : نفس أهله وجماعته على سبيل المجاز المرسل من إطلاق المحل وإرادة الحال ، وقرينة المجاز هنا قوله : « من المسلمين » لأنها كلمة بينت المقصود من البيت .

وكان عددهم ثلاثة عشر فردا وهم لوط عليه السلام وابنتاه وعشرة من أتباعه — كما قيل — ، وقيل لوط وابنتاه فقط فيكون العدد ثلاثة

الحكمة من وصفهم بالوصفين

وفى وصف المخرجين من هذه القرى الناجين من العذاب والهلاك بالإيمان والإسلام مبالغة فى مدحهم والثناء عليهم وحب الله تعالى لهم وبيان لسبب نجاتهم من الدمار والعذاب وأن هذه سنة الله التى لا تتخلف ولا تتبدل ، وصدق الله العلى العظيم فى قوله فى سورة يونس عليه السلام : ﴿ **ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين** ﴾ (2) ، وفى قوله فى سورة الروم : ﴿ **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** ﴾(3) ، وقوله فى سورة غافر : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾(4) ، وقوله فى سورة المجادلة : ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى**

---

(1) سورة يوسف عليه السلام ٨٢ .
(2) سورة يونس عليه السلام ١٠٣ .
(3) سورة الروم ٤٧ .
(4) سورة غافر ٥١ .

عزيز ﴾[1] .

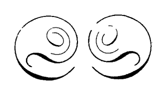
لا يعنى القرآن بذكر الأسماء

ولم يذكر القرآن الكريم الناجين من قوم لوط عليه السلام بأسمائهم مع أنهم قلة لأن القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ وسير ، وليس كتابا لعصر دون عصر ، أو لمنطقة دون منطقة ، وإنما هو كتاب عام ، ودستور خالد ، وهداية وإعجاز ، وتوجيه وإرشاد ، فهو يُعنى بذكر العبرة والعظة وفحوى الموضوع ولُبه ، ولا يعنى بذكر الأسماء أو سفاسف الأمور ولا يلقى لها بالا .

معنى « وجد »

وكلمة : « وجد » مشتقة من الوجدان ، ومعناه : البحث والتنقيب والتفتيش حتى يصل الباحث إلى طلبه ويحصله ، وهذا المعنى غير مناسب لله عز وجل لأن ذلك من صفات الحوادث وخصال الخلائق ، فمعنى « وجد » فى جانب الله تعالى : علم ، ويكون فى الكلام مجاز مرسل من إطلاق الملزوم وإرادة اللازم لأن العلم بالشىء لازم وفرع لوجوده بعد البحث والتفتيش عنه ، وقرينة المجاز هنا : الاستحالة .

أو أن فى الكلام مجازا بالحذف وتقدير الكلام : فأخرج ملائكتنا بأمرنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجد ملائكتنا غير بيت من المسلمين .



(١) سورة المجادلة ٢١ .

الإيمان والإسلام والنسبة بينهما

جاء فى هاتين الآيتين الكريمتين وصف لوط عليه السلام وأهله الصادقين فى اتباعه بصفتى الإيمان والإسلام ، وورد ذكر هاتين الكلمتين فى القرآن الكريم والسنة المطهرة كثيرا ، وخاض فى الكلام عنهما العلماء المتقدمون والمتأخرون وأكثروا من ذكر المسائل المتعلقة بهما

ولذكرهما هنا سأبين بإيجاز معناهما والنسبة بينهما ، وأسأل الله الهداية والسداد ، فمنه العون والنعمة ، وبه التوفيق والعصمة ، ولا حول ولا قوة إلا به ولا مدد إلا منه ، جل وعلا .

معنى الإيمان لغة وشرعا

الإيمان فى اللغة : مطلق التصديق ، أى التصديق بشىء ما تصديقا قلبيا لا يداخله شك .

ومعناه فى الشرع : تصديق النبى محمد ﷺ تصديقا جازما فى كل ما أخبر به وفى جميع ما علم من الدين بالضرورة ، إجمالا فيما علم إجمالا ، وتفصيلا فيما علم تفصيلا .

والمراد من تصديقه ﷺ : الإذعان والقبول والرضا والتسليم بما جاء به ، ليخرج الكافر الذى يعرفه ويعرف حقية نبوته ورسالته ولا يذعن لشرعه ولا ينصاع ولا يسلم لما جاء به ، قال تعالى فى سورة البقرة :

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾[1] ، وقال سبحانه فى سورة النمل : **﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ... ﴾**[2] ، وقال عبد الله بن سلام رضى الله تعالى عنه عن رسول الله محمد ﷺ : لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد .

وورد فى القرآن الكريم ذكر الإيمان بمعناه اللغوى كما ورد فيه ما يشير إلى معناه الشرعى كقوله تعالى حكاية لكلام أولاد يعقوب لأبيهم عليه السلام فى سورة يوسف عليه السلام : ... **﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾**[3] ، أى ما أنت بمصدق لنا ، وقوله تعالى فى صفات المتقين فى صدر سورة البقرة : **﴿ الذين يؤمنون بالغيب .... ﴾**[4] ، وقوله تعالى فى المؤمنين وأوصافهم فى سورة الأنفال : **﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا ... ﴾**[5]

وذكر أهل اللغة والتفسير ما يفيد هذا المعنى اللغوى والشرعى :

فقال الفيروز ابادى فى قاموسه : آمن به إيمانا : صدقه ، والإيمان : الثقة ، وإظهار الخضوع ، وقبول الشريعة ...[6]

وقال إمام المفسرين أبو جعفر ابن جرير الطبرى فى تفسيره لقوله تعالى فى صدر سورة البقرة : الذين يؤمنون بالغيب » الآية :

---

(١) سورة البقرة ١٤٦ وانظر سورة الأنعام ٢٠ . (٢) سورة النمل ١٤ .

(٣) سورة يوسف عليه السلام ١٧ . (٤) سورة البقرة الآيات ٣ — ٥ .

(٥) سورة الأنفال ٢ — ٤

(٦) انظر القاموس المحيط للفيروزابادى جـ ٤ ص ١٩٧ وانظر الصحاح للجوهرى ص ٢٠٧١ والمفردات فى غريب القرآن للراغب ص ٢٦ والمصباح المنير للفيومى ص ٢٤

ومعنى الإيمان عند العرب : التصديق ، فيدعى المصدق بالشيء « قولا » : مؤمنا به ، ويدعى المصدق قوله بفعله : مؤمنا ، ومن ذلك قول الله جل ثناؤه : وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين « يعنى وما أنت بمصدق لنا فى قولنا ، وقد تدخل الخشية لله فى معنى الإيمان الذى هو تصديق القول بالعمل ، والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله ، وتصديق الإقرار بالفعل ا هـ .

وذكر نحوه القرطبى وابن كثير وغيرهما فى تفاسيرهم فى نفس الموضع[1] .

وقال العلامة أبو السعود العمادى فى تفسيره للآية السابقة من سورة البقرة : والإيمان : إفعال من الأمن المتعدى إلى واحد ، يقال : آمنته ... ثم استعمل فى التصديق لأن المصدق يؤمن المصدق : أى يجعله أمينا من التكذيب والمخالفة ، واستعماله بالباء لتضمينه معنى الاعتراف ، وقد يطلق على الوثوق ، فإن الواثق يصير ذا أمن وطمأنينة .... وهو فى الشرع لا يتحقق بدون التصديق بما علم ضرورة أنه من دين نبينا محمد عليه الصلاة والسلام كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرها ا هـ [2] .

والإيمان ينقسم إلى قسمين :

الإيمان نوعان

١ ــ إيمان قديم وهو الذى يوصف به الله تعالى : كقوله سبحانه فى سورة الحشر في وصف ذاته العلية : ﴿ **هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن** .... ﴾[3] ، فالله وصف نفسه بأنه

(١) انظر جامع البيان للطبرى جـ ١ ص ١٠١ والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ص ١٤٢ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ١ ص ٤٠ ــ ٤١ .

(٢) انظر إرشاد العقل السليم لأبى السعود جـ ١ ص ٣٠ .

(٣) سورة الحشر ٢٣ .

المؤمن ، بمعنى أنه الصادق فى قوله ووعده ، والمؤيد والمصدق لأنبيائه ، والمطمئن لعباده وأوليائه ، كما جاء فى قوله فى سورة النساء ومن أصدق من الله حديثا[1] ﴿ **ومن أصدق من الله قيلا** ﴾[2] ، وقوله فى سورة الروم : ﴿ **وعد الله لا يخلف الله وعده** ﴾[3] .

وبمعنى أنه صدق نفسه بنفسه فيما أخبر من حقيقة التوحيد كما جاء فى قوله فى سورة آل عمران : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾[4] ، وفى قوله فى سورة طه : ﴿ **إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ...** ﴾[5]

قال الإمام فخر الدين الرازى فى تفسير الآية السابقة من سورة الحشر : وفى قوله « المؤمن » وجهان : الأول : أنه الذى آمن أولياءه عذابه ... والثانى : أنه المصدق إما على معنى أنه يصدق أنبياءه بإظهار المعجزة لهم ، أو لأجل أن أمة محمد ﷺ يشهدون لسائر الأنبياء كما قال : لتكونوا شهداء على الناس » ، ثم إن الله تعالى يصدقهم فى تلك الشهادة[6] .

فهذه الصفة التى وصف الله ذاته بها صفة قديمة قدم ذاته الإلهية العلية .

٢ ــ إيمان محدث وهو الذى يوصف به الخلق فهو إيمان مخلوق وحادث مثلهم ، قال القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى : ويجب أن يعلم أن الإيمان على ضربين : إيمان قديم ، وإيمان محدث :

---

(١)(٢) سورة النساء ٨٧ ــ ١٢٢ . **(٣)** سورة الروم ٦ .

(٤) سورة ال عمران ١٨ . **(٥)** سورة طه ١٤ ..

(٦) انظر مفاتيح الغيب جـ ٢٩ ص ٢٩٣ والآية المذكورة من سوره البقرة ١٤٣ .

فالقديم إيمان الحق سبحانه وتعالى لأنه سمى نفسه مؤمنا فقال : « السلام المؤمن المهيمن » ، وإيمانه سبحانه وتعالى : تصديقه لنفسه لقوله : « شهد الله أنه لا إله إلا هو » ، وكذلك تصديقه لأنبيائه بكلامه ، وكلامه قديم ،صفة من صفات ذاته .

والإيمان المحدث : إيمان الخلق لأن الله تعالى خلقه فى قلوبهم بدليل قوله تعالى : ﴿ **أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم** ﴾[2] ، لأن إيمان العبد صفة للعبد ، وصفة المخلوق مخلوقة ، كما أن صفة الخالق قديمة ا هـ[3] .

مراتب الإيمان

وللإيمان مراتب أو أقسام أخرى وهى :

ا ـــ الإيمان عن تقليد ، وهو الإيمان الناشىء عن الأخذ بقول الشيخ بدون دليل ، وهو إيمان العوام .

ب ـــ الإيمان عن علم وبينة ، وهو الإيمان الناشىء عن معرفة العقائد بأدلتها ، وهو إيمان أهل النظر .

جـ ـــ الإيمان عن عيان ، وهو الإيمان الناشىء عن مراقبة القلب لله بحيث لا يغيب عنه طرفة عين ، وهو إيمان أهل المراقبة ، ويعرف هذا المقام بمقام المراقبة .

د ـــ الإيمان عن حق ، وهو الإيمان الناشىء عن مشاهدة القلب لله ، وهو إيمان العارفين بالله ، ويعرف بمقام المشاهدة .

هـ ـــ الإيمان عن حقيقة ، وهو الإيمان الناشىء عن كونه لا يشهد إلا الله ، وهو إيمان الواقفين ، ويسمى مقام الفناء لأنهم يفنون عن غير الله ولا يشهدون إلا إياه .

(١) سورة المجادلة ٢٢ . (٢) سورة الحجرات ٧ .

(٣) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به للباقلانى ص ٥٤ ـــ ٥٥ .

و ـ الإيمان عن حقيقة الحقيقة ، وهو إيمان المرسلين ، عليهم أتم الصلوات وأزكى وأكمل التسليمات[1] .

معنى الإسلام لغة وشرعا

ومعنى الإسلام فى اللغة : الامتثال والانقياد والاستسلام .

ومعناه فى الاصطلاح الشرعي : الخضوع الظاهرى والإذعان لجميع ما جاء به الرسول محمد ﷺ مما علم من الدين بالضرورة ، فيشمل الأقوال والأفعال كأداء الصلاة والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من فروع الإسلام وأغصانه التابعة لأركانه .

وذكر أهل اللغة والتفسير هذا المعنى اللغوى والشرعى كقول ابن منظور فى لسان العرب :

والإسلام ، والاستسلام : الانقياد ،، والإسلام من الشريعة : إظهار الخضوع وإظهار الشريعة ، والتزام ما أتى به النبى ﷺ ، وبذلك يحقن الدم ويستدفع المكروه ا هـ[2]

وقول ابن جرير الطبرى فى تفسير قوله تعالى فى سورة الحجرات : ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم** ﴾[3] : ..... أمرهم أن يقولوا القول الذى لا يشكل على سامعيه ، والذى قائله فيه محق ، وهو أن يقولوا : أسلمنا بمعنى دخلنا فى الملة لحفظ الأنفس والأموال بالشهادة ا هـ[4] .

---

(١) انظر شرح البيجورى على جوهرة التوحيد ص ٣٨ ـ ٣٩ .

(٢) انظر لسان العرب لابن منظور ص ٢٠٨٠ ط دار المعارف .

(٣) سورة الحجرات ١٤ .

(٤) انظر جامع البيان للطبرى جـ ٢٦ ص ١٤٣ .

وقول القرطبى فى تفسيرها : وحقيقة الإيمان : التصديق بالقلب ، وأما الإسلام فقبول ما أتى به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم — فى الظاهر ، وذلك يحقن الدم ا هـ[1] .

الفرق بين الإيمان والإسلام والنسبة بينهما

وردت فى القرآن الكريم آيات تفرد كلمة « الإيمان » ومادته بالذكر ، وآيات تفرد كلمة « الإسلام ومادته بالذكر ، وآيات تقرن بين المادتين وتذكرهما معا .

وكذلك الحال فى أحاديث رسول الله ﷺ .

فمن الآيات والاحاديث التى أفردت لفظ « الإيمان » ومادته بالذكر قوله تعالى : فى سورة البقرة : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله** ... ﴾[2] ، وقوله تعالى ق سورة الأنفال : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا** .... ﴾[3] .

وقول الرسول ﷺ فيما رواه مسلم والترمذى وأبو داود وابن ماجه وأحمد بأسانيدهم عن أبى هريرة وغيره من الصحابة رضى الله تعالى عنهم :

لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أولا أدلكم على

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ص ٦١٦٨ .

(٢) سورة البقرة ٢٨٥ .　　(٣) سورة الأنفال ٢ — ٤ .

شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ : أفشوا السلام بينكم »[1] .

ومن الآيات والأحاديث التى أفردت لفظ « الإسلام » ومادته بالذكر قوله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾[2] ، وقوله تعالى فى سورة المائدة : ﴿ **ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾[3] ، وقوله سبحانه فى سورة الأنعام : ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾[4] .

وقول الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فيما رواه الشيخان والترمذى وأبو داود والنسائى والدارمى وأحمد بأسانيدهم عن جابر بن عبد الله وغيره من الصحابة رضى الله تعالى عنهم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .... » الحديث[5] .

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الإيمان باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون جـ ١ صـ ٢٣٦ وسنن الترمذى أبواب صفة القيامة باب / ٢٠ جـ ٤ صـ ٧٤ وأبواب الاستئذان والآداب باب ما جاء فى إفشاء السلام جـ ٤ صـ ١٥٦ وقال : حسن صحيح ، وسنن أبى داود كتاب الأدب باب فى إفشاء السلام جـ ٤ صـ ٣٥٠ ، وسنن ابن ماجه المقدمة باب فى الإيمان صـ ٢٦ وكتاب الأدب باب إفشاء السلام صـ ١٢١٧ ، ومسند أحمد جـ ١ / ١٦٥ / ١٦٧ و جـ ٢ / ٣٩١ / ٤٤٢ / ٤٧٧ / ٤٩٥ / ٥١٢ — وفى الباب عن عبد الله بن سلام ، وشريح بن هانىء عن أبيه ، وعبد الله بن عمرو ، والبراء ابن عازب ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن عمر ، وأبى أمامة ، والزبير بن العوام — رضى الله تعالى عن أصحاب رسول الله أجمعين — .

(٢) سورة آل عمران ١٩ .

(٣) سورة المائدة ٣ .

(٤) سورة الأنعام ١٦٢ — ١٦٣ .

(٥) أنظر صحيح البخارى كتاب الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه =

ومن الآيات التى اقترن فيها اللفظان والمادتان فى الذكر قوله تعالى فى سورة الأحزاب : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ....** ﴾ الآية[1] ، وقوله تعالى فى سورة الحجرات : ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم** ﴾ الآية[2] ، وقوله تعالى فى سورة الذاريات : ﴿ **فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ﴾[3]

ومن الأحاديث مارواه الشيخان والترمذى وأبو داود وابن ماجه والنسائى وغيرهم بأسانيدهم عن عمر بن الخطاب — وغيره من الصحابة رضى الله تعالى عنهم — قال : ..... بينما نحن عند رسول

= ويده ، وباب أى الإسلام أفضل جـ ١ ص ١١ ، وكتاب الرقاق باب الانتهاء عن المعاصى جـ ٨ صـ ١٢٧ . وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب الإيمان باب بيان تفاضل الإسلام وأى أموره أفضل جـ ١ صـ ٢١٤ — ٢١٧ . وسنن الترمذى أبواب صفة القيامة باب / ١٧ ج ٤ صـ ٧١ وقال صحيح غريب ، وأبواب الإيمان باب ما جاء المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده جـ ٤ صـ ١٢٨ — ١٢٩ وقال حسن صحيح ، وسنن أبى داود كتاب الجهاد باب فى الهجرة هل انقطعت جـ ٣ صـ ٤ ، وسنن النسائى كتاب الإيمان وشرائعه باب صفة المؤمن جـ ٨ صـ ١٠٥ ، وسنن الدارمى كتاب الرقاق باب فى حفظ اللسان جـ ٢ صـ ٢٩٩ — ومسند أحمد جـ ٢ / ١٦٠ / ١٦٣ / ١٨٧ / ١٩١ / ١٩٢ / ١٩٥ / ٢٠٥ / ٢٠٦ / ٢٠٩ / ٢١٢ / ٢١٥ / ٢٢٤ / ٣٧٩ — و ج ٣ / ١٥٤ / ٣٧٢ / ٣٩١ / ٤٤٠ / و جـ ٤ / ١١٤ / ٣٨٥ — و جـ ٦ / ٢١ / ٢٢ — وفى الباب عن عبد الله بن عمرو وأبى موسى الأشعرى وأبى هريرة وأنس بن مالك وعمرو بن عبسة وفضالة بن عبيد رضى الله تعالى عنهم .

(١) سورة الأحزاب ٣٥ .

(٢) سورة الحجرات ١٤ .

(٣) سورة الذاريات ٣٥ — ٣٦ .

الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، قال : يامحمد أخبرنى عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، قال : صدقت ، قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرنى عن الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ..... إلى آخر الحديث المشهور المعروف بحديث جبريل عليه السلام (١).

وغير ذلك من الأحاديث التى يطول ذكرها .

وإزاء هذه الآيات والأحاديث المباركة قال العلماء :

إذا ذكر لفظ الإيمان وحده أو لفظ « الإسلام » وحده فى نص ، ولم يوجد ما يقصر « الإيمان » على التصديق الباطنى . أو

---

(١) انظر الحديث بطوله فى صحيح البخارى كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبى ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبى ﷺ له جـ ١ صـ ٢٠ وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان جـ ١ صـ ١٣٣ — ١٤٠ — وسنن الترمذى أبواب الإيمان باب ما جاء فى وصف جبرئيل للنبى ﷺ الإيمان والإسلام جـ ٤ صـ ١١٩ —١٢١ وقال : صحيح حسن . وسنن أبى داود كتاب السنة باب فى القدر جـ ٤ صـ ٢٢٤ ، وسنن ابن ماجه المقدمة باب فى الإيمان صـ ٢٤ — ٢٥ ، وسنن النسائى كتاب الإيمان وشرائعه باب نعت الإسلام جـ ٨ صـ ٩٧ — ١٠٣ — وهو مروى أيضا عن أبى هريرة وأبى ذر الغفارى وطلحة بن عبيد الله وأنس بن مالك رضى الله تعالى عنهم .

يقصر « الإسلام » على الانقياد والإذعان الظاهرى ، فإن النسبة بينهما هى : الترادف : أى أن كلا منهما يطلق على ما يطلق عليه الآخر ، وكل منهما يدل على حقيقة واحدة هى : الهدى ودين الحق الذى أرسل الله به رسوله محمدا ﷺ ، ويكون المقصود بالإيمان أو بالإسلام : الإيمان أو الإسلام المنجى فى الدنيا والآخرة ، ويكون بينهما تلازم شرعى فلا يوجد مؤمن ليس بمسلم ولا مسلم ليس بمؤمن .

والقرآن الكريم والسنة المطهرة صريحان فى الدلالة على ذلك :

فآية سورة الأنفال التى سبق ذكرها : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ... ﴾ ، والآيات التى فى صدر سورة المؤمنون الواصفة لهم ، جعلت : وجل قلوب المؤمنين عند ذكر الله ، وتأثرهم بتلاوة القرآن الكريم وسماعه ، وتوكلهم على الله ربهم ، وإقامتهم للصلاة ، وخشوعهم فيها ، وإعراضهم عن اللغو ، وأدائهم للزكاة ، وحفظهم لفروجهم إلا على من أحل الله ، ومراعاتهم للأمانات والعهود ، ومحافظتهم على الصلوات : جعلت ذلك كله من الإيمان وأدخلته فى حقيقته ومعناه .

وآية سورة الأنعام التى سبق ذكرها : ﴿**قل إن صلاتى ونسكى ومحياى** .... ﴾ اشتملت على الصلاة وكل أنواع العبادة فى الحياة وما يكون عليه المرء من طاعات وإيمان عند الممات وجعلت ذلك من الإسلام وداخلا فى معناه ومفهومه .

وحديث وفد عبد القيس اشتمل على النطق بالشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأداء الخمس من المغنم ، وجعل رسول الله ﷺ ذلك من الإيمان .

وهذا الحديث رواه الشيخان والترمذى والنسائى وغيرهم

بأسانيدهم عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما : فقد طلب وفد عبد القيس من رسول الله ﷺ أن يأمرهم بأمر يخبرون به من وراءهم ويدخلون بسببه الجنة ، فقال ﷺ : « آمركم بالإيمان بالله وحده ، وقال : هل تدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تؤدوا خمسا من المغنم » [1] .

وهذه الأمور المذكورة داخلة فى معنى الإسلام ومسماه كما فى الحديث الذى رواه الشيخان والترمذى والنسائى وغيرهم بأسانيدهم عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال : بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت[2] .

وكما فى حديث جبريل ـــ عليه السلام ـــ السابق المروى عن عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة رضى الله تعالى عنهم .

---

(١) انظر صحيح البخارى كتاب الإيمان باب أداء الخمس من الإيمان جـ ١ صـ ٢١ . وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب الإيمان باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين جـ ١ صـ ١٥٣ ـــ ١٦٥ ، وسنن الترمذى أبواب الإيمان باب ما جاء فى إضافة الفرائض إلى الإيمان جـ ٤ صـ ١٢١ ، وسنن النسائى كتاب الإيمان وشرائعه باب أداء الخمس جـ ٨ صـ ١٢٠ ـــ وروى عن أبى سعيد الخدرى أيضا .

(٢) أنظر صحيح البخارى كتاب الإيمان باب دعاؤكم إيمانكم جـ ١ صـ ١٠ ، وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب الإيمان باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام جـ ١ صـ ١٥٠ ـــ ١٥١ ، وسنن الترمذى أبواب الإيمان باب ما جاء بنى الإسلام على خمس جـ ٤ صـ ١١٩ وقال حسن صحيح ، وسنن النسائى كتاب الإيمان وشرائعه باب على كم بنى الإسلام جـ ٨ صـ ١٠٧ ـــ وروى عن جرير بن عبد الله أيضا .

فمن هذه الآيات والأحاديث يتبين لنا أن مسمى الإيمان وحقيقته هو مسمى الإسلام وحقيقته ، وأن كلا منهما إذا انفرد بالذكر يطلق على مايطلق عليه الآخر ، ويراد به مايراد بالثانى ، وهو الدين المرسل به رسول الله ﷺ ، وأن النسبة بينهما هى الترادف .

فالتصديق والعمل يتناولهما اسم الإيمان والإسلام جميعا ، قال تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ ، وقال : ﴿ **ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ ، وقال : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ ، وقال : ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾ أى صلاتكم .

وقال ﷺ فى حديث جبريل السابق عقب أسئلته له وأجوبته وخروج جبريل وعدم ردهم ورؤيتهم له بعد التماسه : « ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

أما إذا اقترن اللفظان أو مادتا « الإيمان والإسلام » فى الذكر وجاءا فى نص واحد فإن النسبة بينهما — كما يقول العلماء بحق — هى التغاير والتباين كما فى آية سورة الأحزاب : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات** .... ﴾[1] ، وكما فى آية سورة الحجرات : ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم** ﴾[2] .

---

(١) سورة الأحزاب ٣٥ وقال الحافظ ابن كثير فيها : إنها دليل على أن الإيمان غير الإسلام ، وهو أخص منه لقوله تعالى : قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ... الآية : تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٣ صـ ٤٨٧ .

(٢) سورة الحجرات ١٤ — وسبب نزولها أنه أسلم أعراب من بنى أسد بن خزيمة ثم جاءوا إلى رسول الله ﷺ يدعون أنهم بلغوا حقيقة الإيمان وارتقوا إلى درجة اليقين ، وجاءوه =

وكما فى حديث جبريل السابق الذى سأل فيه رسول الله ﷺ عن حقيقة كل من الإسلام والإيمان والإحسان .

ففى حالة اقتران « الإيمان بالإسلام » فى نص يختلف معناهما ويتغايرالمقصود بهما ويكون المراد بالإيمان : التصديق القلبى اليقينى ، ويكون المراد بالإسلام : الانقياد الظاهرى والامتثال للأقوال والأفعال الشرعية .

ويكون بين اللفظين عموم وخصوص وجهى بمعنى أنهما يجتمعان فى المؤمن المسلم أى المصدق بقلبه والمنقاد بظاهره ، وينفرد الإيمان فى الذى يصدق بقلبه فقط كما حصل لمؤمن آل فرعون الذى كان يكتم إيمانه ، وينفرد الإسلام فى الذى ينقاد ظاهرا وشكلا فقط كالمنافق .

فمن خلال ماتقدم يتضح لنا بجلاء : أن الإيمان والإسلام إذا افترقا اجتمعا ، وإذا اجتمعا افترقا .

ومثل كلمتى « الإيمان والإسلام » كلمتا : الرسول والنبى ، وكلمتا : المسكين والفقير .

فى سنة مجدبة طالبين الصدقة ، فأمر الله رسوله ﷺ أن يخبرهم بنزول هذه الآية عليه أنهم ما بلغوا حقيقة الإيمان كما ادعوا وما وصلوا درجة اليقين كما قالوا وإنما هم مسلمون فقط ، فالآية الكريمة فرقت بين الإيمان والإسلام ، قال الحافظ ابن كثير فى تفسيرها : قد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، ويدل عليه جديث جبريل عليه السلام حين سأل عن الإسلام ثم عن الإيمان ، ثم عن الإحسان ، فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه أ هـ تفسير القرآن العظيم للحافظ بن كثير جـ ٤ صـ ٢١٩ .

وفى ضوء ما تقدم يكون كل مؤمن مسلما ، وليس كل مسلم مؤمنا .

ويستثنى من ذلك ماجاء فى السورة التى نحن معها وهى سورة الذاريات فى قوله تعالى : ﴿ **فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ﴾ ،

فعلى الرغم من اقتران الإيمان بالإسلام واجتماعهما معا فى هذا الموضع لا يوجد بينهما تباين وافتراق ، وإنما يوجد بينهما تلازم وتلاحم واتفاق ، لأنهما صفتان للوط عليه السلام ومن اتبعه من أهله بصدق ويقين ، فالمقصود من الإيمان هنا هو نفس المقصود من الإسلام ، والنسبة بينهما هى الترادف والتوارد على معنى ومسمى واحد .

واختلف الوصف للتفنن فى التعبير ، وتلوين الكلام ، والمبالغة فى المدح ، والإشعار بأن كل واحدة من الصفتين يصح أن تكون سببا مستقلا للنجاة من الهلاك ، ولدفع التكرار المؤدى إلى الثقل ، فهذا كقوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام : ﴿ **إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله** ﴾ [1] .

فحقيقة الإيمان والإسلام ثابتة لهم ، وتقدير الكلام : فأردنا أن نخرج من كان فى قرية لوط من المؤمنين ، فما وجدنا فيها أحدا من المؤمنين إلا أهل بيت من المسلمين .

فترادف الإيمان والإسلام هنا صحح الاستثناء وأفاد المعنى المقصود وهو نجاتهم من الهلاك بسبب صدقهم فى اتباعهم نبيهم لوطا عليه السلام .

قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره لآيتى سورة الذاريات :

احتج بهذه الآية من ذهب إلى رأى المعتزلة ممن لا يفرق بين

---

(١) سورة يوسف عليه السلام ٨٦

مسمى الإيمان والإسلام لأنه ــ أى الله ــ أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين ، وهذا الاستدلال ضعيف لأن هؤلاء كانوا قوما مؤمنين ، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس ، فاتفق الاسمان هاهنا لخصوصية الحال ولا يلزم ذلك فى كل حال ا هـ[1] .

وجه صلة العمل الصالح بالإيمان

إن الناظر فى القرآن الكريم والسنة المطهرة يجد مايدل على قوة الصلة ومتانة الارتباط بين العمل الصالح والإيمان ، ويرى التلازم قائما بينهما على الرغم من تغايرهما ، فلا ثمرة للإيمان بدون العمل الصالح ولا طعم له ولا اكتمال لحقيقته إلا بالعمل الصالح .

فمن يجمع بين الإيمان والعمل الصالح يكون إيمانه كاملا له وزنه وثمرته ، وكلما ازداد فى العمل الصالح ازدادت قوة إيمانه ويقينه وازداد اكتمالا وثمارا .

ومن لم يعمل أصلا عملا صالحا فإن إيمانه يكون ناقصا عديم الثمرة قليل الجدوى .

فثمرات الإيمان وحلاوته ، وطعمه ولذته ، وعوائده على العبد تكون حسب إيمانه ووفق أعماله قوة وضعفا ، كما وكيفا ، يزيد إيمانه بأداء الطاعات والإخلاص فيها ، وينقص بنقصها[2] .

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير جـ ٤ صـ ٢٣٦ .

(٢) قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره لآية الأنفال : إنما المؤمنون الذين إذ ذكر الله وجلت قلوبهم الآية ٢ : وقد استدل البخارى وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله فى القلوب كما هو مذهب جمهور الأمة ، بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة كالشافعى وأحمد بن حنبل وأبى عبيد أ هـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٢ صـ ٢٨٥ . =

ومن يعمل أعمالا صالحة وليس عنده إيمان صادق بالله تعالى ورسوله وبما أنزل على رسوله يكون عمله الصالح كعدمه ولا ينفعه عند الله يوم القيامة ، ولا يزكيه ولاينجيه من العذاب ، ولذلك قال الله تعالى فى شأن الكفرة فى سورة هود عليه السلام : ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ماكانوا يعملون** ﴾(١) ، وقال فى سورة الشورى : ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب** ﴾(٢) ، وقال فى سورة الفرقان : ﴿ **وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا** ﴾(٣) ، وقال فى سورة النور : ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه** ﴾(٤) .

فالتلازم بين العمل الصالح وبين الإيمان قائم ولا بد منه ، والأساس فى قبول العمل الصالح هو الإيمان ، أما العمل الصالح فهو شرط فى كمال الإيمان وتمامه وداخل فى مسماه ، وكذلك النطق

= ومعلوم أن الإيمان الذى يزيد وينقص هو إيمان مؤمنى الإنس والجن ، أما إيمان الملائكة فلا يزيد ولا ينقص لأن إيمانهم طبيعى وجبلّى، وأما إيمان الأنبياء عليهم السلام فإنه يزيد ولا ينقص لأنهم معصومون ، ومما يدل على هذا قول إبراهيم الخليل عليه السلام لربه تعالى كما حكى الله فى سورة البقرة ٢٦٠ : ... رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى » ، وأما إيمان الفساق الفجار المتمادين فى الفسق السادرين فى الغى ، المكبين على المعاصى فإنه ينقص ولا يزيد .

(١) سورة هود عليه السلام ١٥ — ١٦ (٢) سورة الشورى ٢٠

(٣) سورة الفرقان ٢٣ (٤) سورة النور ٣٩

بالشهادتين هو علامة على الإيمان وشرط لإجراء الأحكام الدنيوية على الناطق بهما كالتوارث ، ونكاح المسلمة ، والدفن فى مقابر المسلمين ، وغير ذلك .

هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة من السلف والخلف من المفسرين والمحدثين والفقهاء والمتكلمين وغيرهم .

ويدل على ذلك آيات من القرآن الكريم وأحاديث من السنة الشريفة منها : قوله تعالى فى سورة النحل : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون** ﴾[1]، وقوله فى سورة الأنبياء عليهم السلام : ﴿ **فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنّا له كاتبون** ﴾[2] ، وقوله فى سورة الكهف : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا** ﴾[3] ، وقوله فى سورة الأنفال ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** ﴾[4] ، وقوله فى سورة الحجرات : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون** ﴾[5] ، والآيات التى فى صدر سورة المؤمنون ، وهى إحدى عشرة آية .

وقول الرسول ﷺ فيما رواه مسلم والترمذى وأبو داود وابن

---

(١) سورة النحل ٩٧

(٢) سورة الأنبياء عليهم السلام ٩٤ .

(٣) سورة الكهف ٣٠

(٤) سورة الأنفال ٢ — ٤ .

(٥) سورة الحجرات ١٥ .

ماجه والنسائى وأحمد بأسانيدهم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه :

« الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أو بضع وستون شعبة ، أفضلها قول « لا إله إلا الله » وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان »(١) .

فجعل رسول الله ﷺ القول والعمل من الإيمان .

وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما رواه مسلم وأحمد بسندهما عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت : يارسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك ؟ قال : قل آمنت بالله ، ثم استقم »(٢) .

وقوله ﷺ فيما رواه الشيخان والترمذى وأبو داود وابن ماجه والنسائى وأحمد بأسانيدهم عن عبد الله بن مسعود وأنس بن مالك وغيرهما من الصحابة ـــ رضى الله تعالى عنهم ـــ : يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن دينار أو نصف دينار أو شعيرة أوبرة أو خردلة أو ذرة من إيمان » وفى رواية : من خير(٣) .

---

(١) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الإيمان باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان جـ ١ صـ ٢٠٩ ، وسنن الترمذى أبواب الإيمان باب فى استكمال الإيمان والزيادة والنقصان جـ ٤ صـ ١٢٣ وقال حسن صحيح ، وسنن أبى داود كتاب السنة باب فى رد الإرجاء جـ ٤ صـ ٢١٩ ، وسنن ابن ماجه المقدمة باب فى الإيمان صـ ٢٢ ، وسنن النسائى كتاب الإيمان وشرائعه باب ذكر شعب الإيمان جـ ٨ صـ ١١٠ ، ومسند أحمد جـ ٢ / ٣٧٩ / ٤١٤ / ٤٤٥ ـــ ورواه البخارى فى صحيحه فى كتاب الإيمان مختصرا .

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الإيمان باب جامع أوصاف الإسلام جـ ١ صـ ٢١٣ ، ومسند أحمد جـ ٣ / ٤١٣ و جـ ٤ / ٣٨٥ .

(٣) انظر صحيح البخارى كتاب الإيمان باب تفاضل أهل الإيمان فى الأعمال جـ ١ ص ١٣ =

فجعل رسول صلى الله تعالى عليه وسلم الإيمان متفاضلا بتفاضل العمل .

وغير ذلك من الآيات والأحاديث الشريفة العظيمة المباركة الدالة على حتمية الإيمان ، وعلى أن العمل الصالح شرط فى كماله وتمامه ، وكذلك النطق بالشهادتين وغيرها مما يدل على عدم إخلال المرء بهما ، وعلى إيمانه وحسن يقينه وصلته بالله تبارك وتعالى .

قال العلامة ابن كثير فى تفسير قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ... ﴾ الآية[1] قال عن الإيمان :

« فأما إذا استعمل مطلقا فالإيمان الشرعى المطلوب لايكون إلا اعتقادا وقولا وعملا ، هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة ، بل قد حكاه الشافعى وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد إجماعا أن الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص [2] .

= وباب زيادة الإيمان ونقصانه ص ١٨ ، وكتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار جـ ٨ صـ ١٤٤ ، وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه جـ ١ صـ ٢٨٣ ، وسنن الترمذى أبواب صفة جهنم باب ما جاء أن للنار نفسين وما ذكر من يخرج من النار من أهل التوحيد جـ ٤ صـ ١١١ وقال حسن صحيح ، وسنن أبى داود كتاب اللباس باب ما جاء فى الكبر جـ ٤ صـ ٥٩ ، وسنن النسائى كتاب الإيمان وشرائعه باب زيادة الإيمان جـ ٨ صـ ١١٣ ، وسنن ابن ماجة المقدمة باب فى الإيمان صـ ٢٣ ، ومسند أحمد جـ ١ / ٢٩٦ / ٣٩٩ / ٤١٢ / ٤١٦ و جـ ٣ / ١٢ / ١٧ / ٥٦ / ٩٤ / ١٤٤ / ٢٤٨ / ٣٢٦ و جـ ٥ / ٤٣ ــ ورواه من الصحابة أيضا أبو سعيد الخدرى وجابر بن عبد الله وأبو بكرة وعمران بن حصين بروايات متعددة فيها اختلاف فى بعض الألفاظ .

(١) سورة البقرة ٣

(٢) أنظر تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير جـ ١ صـ ٤٠ .

وهنـاك آراء أخـرى لبـعض الفـرق الإسلاميـة فى هذه المسألـــة وغيرها من المسائل الكثيرة المتعلقة بالإيمان والإسلام منها ما هو مرجوح ومنها ما هو مردود مذموم فارجع إليها فى موطنها من كتب علم الكلام إن شئت ، ولا يمكننا أن نسترسل فى بيانها ونستفيض فى ذكرها ومناقشة وجهات نظر أصحابها ونرد عليها بالأدلة النقلية والعقلية لأن ذلك مبحث طويل الذيول كثير النقول وموضوع آخر .

ولأن التطرق إليه والاستفاضة فيه يخرجنا عن موضوعنا الأصلى وغرضنا الجلى إذ الموضوع هو تفسير هذه السورة الكريمة وليس الموضوع الكلام عن الإيمان والإسلام باستيعاب وإسهاب وإشباع كما هو موجود فى علم الكلام وعلى غرار كتب التوحيد الكبيرة ، فلكل موضوع أمهاته وميدانه ، وأهله وفرسانه ، ويكفى أن نأخذ فى التفسير من كل علم بطرف وبالقدر الذى يساعد على فهم الآية أو الآيات وتوضيح معناها وتفسير مرماها وتبيين مغزاها وتجلية ما فيها من هداية وإعجاز ، هذا هو المنهج الأمثل والمسلك الأفضل فى التفسير فإن التوسع فى جانب من الجوانب العلمية والإفراط فيه على حساب الجوانب الأخرى يعد خروجا من ميدان التفسير إلى ميدان العلم الذى أفرط وتوسع فى مسألته .

فعليك فى التفسير بالمنهج الأمثل الذى تقدم ذكره ، ولا تغتر بما يطيل به بعض المفسرين تفاسيرهم من الإسهاب فى مسائل علمية وشطحات زائدة على التفسير فإن ذلك يعد استطرادا فى التفسير وتطويلا لا مبرر له ، ويصيب القارىء والسامع بالملل والسأم و « حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق » ، والله الموفق والهادى .

ويكفى أن نسوق إليك ما قاله الحافظ العلامة الفهامة ابن

حجر فى هذه المسألة فكلمته موجزة جامعة ، قال فى كتابه : فتح البارى عن الإيمان :

« ... فالسلف قالوا : هو اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالأركان ، وأرادوا بذلك أن الأعمال شرط فى كماله ، ومن هنا نشأ لهم القول بالزيادة والنقص كما سيأتى ، والمرجئة قالوا : هو اعتقاد ونطق فقط ، والكرامية قالوا : هو نطق فقط ، والمعتزلة قالوا : هو العمل والنطق والاعتقاد ، والفارق بينهم وبين السلف أنهم جعلوا الأعمال شرطا فى صحته ، والسلف جعلوها شرطا فى كماله ، وهذا كله بالنظر إلى ما عند الله تعالى ......ا هـ[1] .

ولا شك أن آراء هذه الفرق متضاربة ، وتتعارض — باستثناء مذهب السلف الصالح — مع النصوص الشرعية الواردة فى القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وتتصادم معها ، فالقول الحق والمذهب الصدق هو مذهب أهل السنة والجماعة ، أعنى مذهب السلف الصالح رضى الله تعالى عنهم ، فهو الذى تتضافر على صحته النصوص ، وتتطابق

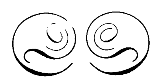
---

(١) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر رحمه الله كتاب الإيمان باب الإيمان وقول النبى ﷺ : بنى الإسلام على خمس جـ ١ صـ ٩٤ .

ومذهب الخوارج قريب من مذهب المعتزلة ، ولابد من العمل عندهم ، فإذا انتفى العمل انتفى الإيمان ، ويكفرون مرتكب الكبيرة ويخلدونه فى النار .

ولا يكون المرء عند المعتزلة مؤمنا لعدم وجود العمل الصالح ، ولا كافرا لوجود التصديق بالقلب ، وإنما يكون على مذهبهم بين الإيمان والكفر أى يكون فى الدنيا فى منزلة بين المنزلتين ويخلد فى النار ويعذب بعذاب أقل من عذاب الكفار ، ولا أدرى لماذا جعل المعتزلة من بهذه الحالة فى منزلة بين المنزلتين وخصوا منزلته بجهنم ، فإنه من الممكن أن يكون فى منزلة بين المنزلتين — حسب قولهم — وتكون منزلته فى الجنة ، ولا حرج على فضل الله فالله واسع عليم وذو فضل عظيم ، هدى الله المعتزلة وعافاهم ، وعاملهم بعدلهم .

على سلامته الأدلة ، وتستريح إليه النفس ، وينثلج له الصدر ، ويتواكب مع العقل الرجيح ، والمنطق الصحيح ، والله تعالى أعلم .



قال تعالى : ﴿ **وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم** ﴾

صلة الآية بما قبلها

وهذه الآية الكريمة اتصالها بما قبلها من الوضوح بمكان ، إذ هي معطوفة على جملة مقدرة تفهم من سياق الكلام وسباقه ، وهى ختام القصة ونهاية المشهد ، وتقدير الكلام : فأهلكنا قراهم بهم وتركنا فيها آية ... إلخ .

وللفظ « الآية » معان لغوية كثيرة ، والمراد بها هنا : العلامة الدالة على إهلاكهم وحلول العذاب بهم .

المراد بالآية المتروكة

واختلف العلماء فى تعيين هذه الآية أى العلامة والدليل :

فقال بعضهم : هى آثار ديارهم التى خربها العذاب ، وقال بعضهم : هى الأحجار التى نزلت عليهم وأمطروا بها وأهلكتهم ، ولا تزال موجودة بديارهم ، وقال بعضهم : هى ماء أسود منتن كريه المنظر والرائحة تفجر من أرضهم وخرج منها بعد عذابهم ، وقال بعضهم : هى الأخبار المحكية والأنباء المتداولة الشائعة عنهم .

ولا مانع من إرادة جميع هذه الأقوال إذ الآية تحتملها كلها ، ومعناها يضمها جميعها ، وكل هذه المعانى تحققت فيها ، والمهم أن الآية باقية للاعتبار والاستبصار والدلالة على قدرة الله عز وجل وقهره للظلمة الفجرة ، وبطشه بالعصاة الكفرة ، ولذا يقول تعالى فى سورة الحجر عن قرية لوط عليه السلام بعد إهلاكها بأهلها الكفرة : ﴿ **وإنها لبسبيل مقيم** ﴾ ، ويقول عن قوم لوط وعن أصحاب الأيكة قوم شعيب عليه السلام : ﴿ **فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين** ﴾[1] ، ويقول فى سورة الفرقان : ﴿ **ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها ...** ﴾[2] ، ويقول فى سورة الصافات :

(١) سورة الحجر ٧٦ ــ ٧٩ (٢) سورة الفرقان ٤٠

﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون ﴾[1] .

فائدة تنكير الآية

ونكرت كلمة «آية» لإفادة التعظيم والتهويل ، ولتذهب النفس فى تفسيرها وتحديدها كل مذهب . والضمير فى قوله « فيها » يعود على قراهم ، وتقع بين الحجاز والشام فى طريق مطروق يمر بها الناس وكانت تسمى قرية « سدوم » ، ويوجد بنفس المنطقة البحر الميت بالأردن ، وتمكن علماء الجيولوجيا من اكتشاف مدن كاملة تحت سطح هذا البحر ، ونصب كانت تقدم عليها القرابين والمذابح ، وبقايا حصون وآثار دمار بجوار ذلك البحر .

ويجوز عود الضمير على « الإهلاكة » التى أهلكوا بها وهى مستفادة من المقام والسياق ، وهى إهلاكة غريبة عجيبة فريدة جديرة بالتعجب منها والاعتبار بها لأنها كانت بخسف الأرض بهم وقلب قراهم وهم فيها وجعل عاليها سافلها وسافلها عاليها وإمطارهم بالحجارة القوية المتتابعة المعلمة المهلكة كأنها قنابل ﴿ والله محيط بالكافرين ﴾[2] .

والظاهر فى عود الضمير هو الوجه الأول .

الحكمة من ذكر الخائفين من العذاب الأليم دون غيرهم

وخص الله ﴿ الذين يخافون العذاب الأليم ﴾ بالذكر مع أن الآية لجميع الناس لأنهم هم المنتفعون بهذه الآية وبنظائرها ، والمتعظون والمعتبرون بها ، فهم أرقاء القلوب ، سليموا الفطرة ، عقلاء ، واقفون عند حدود الله ، لا يقعون فى المعاصى والكبائر التى وقع فيها غيرهم من الفسقة ، وعذبهم الله بسببها ، ولا يفعلون مثل أفعالهم السيئة ، فهم يخشون الله ويراقبونه ، ويرهبونه ويخافون عقابه .

أما الذين قست قلوبهم وتحجرت أفئدتهم وفسدت فطرهم واستحود

(١) سورة الصافات ١٣٧ ــ ١٣٨ (٢) سورة البقرة ١٩

عليهم الشيطان فلا ينتفعون بآيات الله ولا يبالون بها ولا يكترثون بما توحى به من دلائل ويحيون كالسوائم بل هم أضل سبيلا ، وصدق الله العلى العظيم فى قوله فى سورة الفرقان عن أهل مكة المشركين وأمثالهم : ﴿ **ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا** ﴾ (١) وقوله فى سورة يونس عليه السلام : ﴿ **وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون** ﴾ (٢) ، وقوله فى سورة يوسف عليه السلام : ﴿ **وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون** ﴾(٣) .

المقصود بالعذاب الأليم

والمقصود بـ « العذاب الأليم » هنا : العموم : فيشمل : العذاب الشديد فى الدنيا وهو عذاب الاستئصال والإهلاك كما أهلك قوم لوط عليه السلام ولذا يقول تعالى فى ختام قصتهم فى سورة هود عليه السلام : ﴿ **وما هى من الظالمين ببعيد** ﴾(٤) .

والعذاب الأليم فى الآخرة وهو عذاب جهنم بأنواعه وأهواله ، وشدائده وأحواله وألوانه وأشكاله .

سر المغايرة بين هذه الآية وآية سورة العنكبوت

وقال الله تعالى هنا : ﴿ **وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم** ﴾ ، وقال فى سورة العنكبوت : ﴿ **ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون** ﴾(٥) لاختلاف المقام والغرض :

فالغرض من إيراد هذه القصة فى سورة الذاريات تسلية النبى ﷺ والمؤمنين والتسرية عنهم والتخفيف من أحزانهم بسبب الموقف السيء

---

(١) سورة الفرقان ٤٠ (٢) سورة يونس عليه السلام ١٠١
(٣) سورة يوسف عليه السلام ١٠٥ (٤) سورة هود عليه السلام ٨٣
(٥) سورة العنكبوت ٣٥

للخراصين الكافرين من الإسلام ، وفيها بيان للطف الله ورحمته بالمسلمين وتنجيته لهم وتأمينهم حتى لا ييأسوا من رحمة الله ولا يقنطوا من روحه .

والغرض من إيرادها فى سورة العنكبوت تخويف المشركين وتهديدهم بما وقع لقوم لوط ـــ عليه السلام ـــ العصاة البغاة من عقاب عظيم وعذاب أليم ، ولذا جاء فى آية العنكبوت : اللام الدالة على القسم ، وقد الدالة على التحقيق زيادة فى التأكيد ومبالغة فى التخويف والتهديد ، ووصفت الآية بأنها من نفس القرى وجزء منها لا يزول ، وبأنها آية بينة واضحه للعيان ظاهرة لا تخفى على عاقل ، والعاقل أعم من الخائف فإن العاقل قد يخاف العذاب ويهابه وقد لا يخافه ولا يهابه ، واقتصرت آيات سورة العنكبوت على تنجية لوط وأهله دون بيان شاف بنجاة كل المؤمنين والمسلمين من أتباعه وتكفلت سورة الذاريات ببيان حالهم ونجاتهم تطمينا للمسلمين وتأمينا لهم .

هذا ما لاح لى فى سر اختلاف الألفاظ بين هاتين الآيتين رغم وحدة القصة ، وقد أشار الفخر الرازى رحمه الله تعالى إلى شىء من ذلك[1] ، والله أعلم بأسرار كتابه .

ومن المعلوم أن القرآن يفسر بعضه بعضا ويكمل بعضه بعضا ، فلله در هذا التنزيل ، ما أبلغه وأحكمه ، وما أدقه وأعظمه .

---

(١) أنظر مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى جـ ٢٨ صـ ٢١٩

موقف الإسلام من الزنا والشذوذ الجنسى

اتفقت الشرائع السماوية كلها على تحريم الزنا وبيان أنه جريمة نكراء ، وكبيرة شنعاء ، كثيرة الأضرار ، عظيمة الأخطار ، فهو جريمة تؤدى إلى الإعتداء على كرامة الناس وهتك حرماتهم ، وفساد البيوت ، والوقوع فى الفقر والفاقة ، وتدنيس العرض والشرف ، وتلطيخ أهله بالعار والشنار ، وإختلاط الأنساب ، وكثرة اللقطاء ، وتعريض الأولاد للضياع والتشرد ، وإنقطاع النسل بسبب الأمراض التى تصيب الزناة ...

فالزنا شره مستطير ، وضرره خطير ، فيه الأضرار الدينية والخلقية والصحية والإجتماعية والإقتصادية ، وهى أضرار تصيب الأفراد والأسر والمجتمعات إذا ما ظهر الزنا وتفشى ، بل إن فشوه من علامات الساعة .

ولذا كان الإسلام حكيما فى علاج هذه الجريمة ووصف الدواء لهذا الداء الوبيل ، فشرع الحدود ، وجعل حدا للزانى المحصن أى الذى تزوج ، وحدا للزانى غير المحصن أى الذى لم يتزوج ، وهى حدود فى ظاهرها القسوة والغلظة لكن فى باطنها العدل والرحمة ، والخير والنعمة ، ولا تستقيم الحياة إلا بها .

اللواط من الزنا

واللواط لون من ألوان الزنا ، وشكل من أشكاله القبيحة ، ومعناه أن ينكح الرجل الرجل ويأتى الذكر الذكر كما قال تعالى عن قوم

لوط عليه السلام حكاية لما قاله نبيهم لهم فى سورة الشعراء : ﴿ **أتأتون الذكران من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون** ﴾(١) ، وقال فى سورة النمل : ﴿ **أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون** ﴾(٢) .

وسميت هذه الجريمة الشنيعة البشعة باللواط نسبة إلى قوم لوط عليه السلام الذين إبتدعوها وتفشت فيهم وإستمروا عليها رغم نصح نبيهم لوط لهم ونهيهم عنها إلى أن عاقبهم الله تعالى بأقسى عقوبة ، وجازاهم بأغلظ جزاء ، فخسف بهم الأرض ، وقلب قراهم ، وأمطرهم بحجارة من سجيل منضود مسومة ، وسجل ذلك فى قرآن يتلى ويرتل إلى يوم القيامة ليظلوا عبرة للأمم ومثالا سيئا للأجيال ﴿ **وماهى من الظالمين ببعيد** ﴾(٣) ، ﴿ **وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم** ﴾(٤) ، ﴿ **فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين** ﴾(٥) .

ولا يرتكب هذه الجريمة إلا شخص منتكس الفطرة ، منطمس البصيرة ، منغمس فى حمأة القذارة والرذيلة ، فاسد العقل ، شاذ النفس ، مريض التكوين ، فى رجولته انحراف وجناية على حق الأنوثة ، ولذا دمغ لوط عليه السلام قومه كما حكى القرآن الكريم : بالعدوان ، والجهل ، والعناد ، والإجرام ، والإسراف .

---

(١) سورة الشعراء ١٦٥ — ١٦٦ (٢) سورة النمل ٥٥

(٣) سورة هود عليه السلام ٨٣ . (٤) سورة الذاريات ٣٧

(٥) سورة البقرة ٦٦ — وهذه الآية وإن تكلمت عن بنى إسرائيل قوم موسى عليه السلام ينطبق مفهومها ومعناها على قوم لوط عليه السلام وعلى قصتهم وعلى كل من عاقبهم الله تعالى وجعلهم سلفا ومثلا للآخرين إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو معروف .

وهذه الجريمة تعافها الطيور والحيوانات ، ولا يفعلها من الحيوانات إلا الحمير والخنازير ، ولم تعص الله « تعالى » بهذا الذنب أمة من الأمم السابقة على قوم لوط عليه السلام ، لذا إستحق قوم لوط الذين إبتكروا وإبتدعوا هذه الموبقة غضب الله وسخطه عليهم وعذابه وإستئصاله لهم ﴿ **وأملى لهم إن كيدى متين** ﴾[1] .

فكل من يرتكب هذه الجريمة يجب أن يقابل بالشدة ، ويعاقب بالغلظة ، قال الإمام الشوكانى فى كتابه نيل الأوطار :

« وما أحق مرتكب هذه الجريمة ، ومقارف هذه الرذيلة الذميمة ، بأن يعاقب عقوبة يصير بها عبرة للمعتبرين ، ويعذب تعذيبا يكسر شهوة الفسقة المتمردين ، فحقيق بمن أتى بفاحشة قوم ما سبقهم بها من أحد من العالمين أن يصلى من العقوبة بما يكون فى الشدة والشناعة مشبها لعقوبتهم ، وقد خسف الله تعالى بهم وإستأصل بذلك العذاب بكرهم وثيبهم أهـ»[2] .

عقوبة اللواط

وقد إختلف الفقهاء فى عقوبة اللواط على ثلاثة مذاهب :

المذهب الأول : وهو أن للواط حدا ، وحده القتل سواء كان مرتكبه بكرا أو ثيبا ، وسواء كان فاعلا أو مفعولا به ، وهو قول مروى عن أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم ، وهو مذهب الإمام مالك وأحمد ، وروى عن الإمام الشافعى هذا القول ، وقال به طائفة من العلماء منهم الإمام الشوكانى .

---

(١) سورة الأعراف ١٨٣ وسورة القلم ٤٥

(٢) أنظر نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار للشوكانى كتاب الحدود باب من وقع على ذات محرم أو عمل عمل قوم لوط أو أتى بهيمة جـ ٧ صـ ١٣٣ .

واختلف أهل هذا المذهب فى كيفية القتل ، فمنهم من يقول : إن مرتكب اللواط تحز رقبته ، ومن يقول : يحرق ، ومن يقول : يرجم بحجارة ، ومن يقول : يلقى من أعلى مكان ويدفع من أعلى شاهق ، ومن يقول : يهدم عليه جدار .

المذهب الثاني : أن حد اللواط كحد الزنا سواء بسواء ، فيجلد الحر غير المحصن مائة جلدة ويغرب عاما ، ويرجم المحصن حتى الموت ، وهذا المذهب مروى عن بعض التابعين كسعيد بن المسيب وقتادة بن دعامة وإبراهيم النخعى وعطاء رحمهم الله تعالى ، وهو مذهب الشافعية .

المذهب الثالث : أن اللواط ليس له حد ، وإنما له عقوبة هى التعزير ، وتقديرها للإمام ، وهو مذهب الأحناف .

وهذه العقوبة — على اختلاف المذاهب فيها — لابد أن تكون بمشهد ومحضر جمع من الناس .

ولأصحاب كل مذهب من هذه المذاهب أدلتهم النقلية والعقلية ووجهة نظرهم فارجع إليها فى أمهات كتب الفقه وكتب التفسير المعنية بتفسير آيات الأحكام .

اللواط محرم ولو بين الرجل وزوجته

واللواط محرم ولو بين الرجل وزوجته ، أما الآية الكريمة التى فى سورة البقرة وهى : ﴿ **نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم** .. ﴾ [1] : فليس المقصود بها جواز إتيان الرجل امرأته فى الدبر — كما يتوهم بعض الناس ، وكثيرا ما سئلت فى ذلك — ، بل المقصود بها كما هو المعلوم من سبب نزولها أن للرجل أن يأتى امرأته

(١) سورة البقرة ٢٢٣

كيفما شاء وعلى أى وضع أراد بشرط أن يكون فى القبل أى فى الفرج وموضع الحرث الذى أحله الله تعالى وأمر بإتيانه .

وما نسب إلى بعض الفقهاء من أنه أجاز للرجل أن يأتى زوجته فى الدبر فهو افتراء وكذب عليه ، أو لعل هذا الفقيه قصد من كلامه جواز إتيانها فى القبل من جهة الدبر ، أى إتيانها فى القبل وهى مجبية كما كان يفعل بعض الصحابة والتابعين رضى الله عنهم ولم يفهم السائل ولم يعقل كلام وقصد ذلك الفقيه ، فوهم ونسب إليه ما هو منه برىء .

فإتيان الرجل امرأته فى موضع الفرث وتركه موضع الحرث محرم بالإجماع ، ويعد لواطا بدليل عموم الآيات التى تحرم اللواط ، وبدليل الأحاديث الواردة فى كتب السنة كقول الرسول ﷺ فيما رواه الترمذى وأحمد والدارمى وابن ماجه بأسانيدهم عن على بن طلق وخزيمة بن ثابت رضى الله عنهما :

« إن الله لا يستحى من الحق لا تأتوا النساء فى أعجازهن »(١) .

---

(١) أنظر الحديث فى سنن الترمذى أبواب الرضاع باب ما جاء فى كراهيه إتيان النساء فى أدبارهن وقال : حديث على بن طلق حديث حسن جـ ٢ / ٣١٦ ومسند أحمد جـ ٥ / ٢١٣ / ٢١٤ / ٢١٥ ، وسنن الدارمى كتاب النكاح باب النهى عن إتيان النساء فى أعجازهن جـ ٢ صـ ١٤٥ ، وسنن ابن ماجه كتاب النكاح باب النهى عن إتيان النساء فى أدبارهن صـ ٦١٩ وسنده فى ابن ماجه هكذا : حدثنا أحمد بن عبده . أنبأنا عبد الواحد بن زياد ، عن حجاج بن أرطاة ، عن عمرو بن شعيب ، عن عبد الله بن هرمى ، عن خزيمة بن ثابت قال : قال رسول الله قال محقق سنن ابن ماجه : فى الزوائد : فى إسناده حجاج بن أرطاة وهو مدلس ، والحديث منكر لا يصح من وجه كما ذكره غير واحد ، ورواه الترمذى من حديث على بن طلق اهـ

وقوله ﷺ فيما رواه الترمذى بسنده عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : « لاينظر الله إلى رجل أتى رجلا أو امرأة فى الدبر »(١) .

وقوله ﷺ فيما رواه ابن ماجه والدارمى وأحمد بأسانيدهم عن أبى هريرة رضى الله عنه :
« لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته فى دبرها » (٢)

وقوله ﷺ فيما رواه أبو داود وأحمد بسندهما عن أبى هريرة رضى الله عنه : « ملعون من أتى امرأته فى دبرها »(٣)

وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة الموفورة التى تأمر باتقاء الدبر والحيضة ، كما توجد روايات كثيرة عن بعض الصحابة وبعض التابعين فى تحريم جماع الرجل لزوجته فى الدبر ، ووصفت بعض الروايات هذا الفعل بالكفر(٤) ، فارجع إليها فى كتب السنة وكتب التفسير

---

(١) أنظر الموضع السابق فى سنن الترمذى وقال : حديث حسن غريب .
(٢) أنظر سنن ابن ماجه فى الموضع السابق ، وسنن الدارمى كتاب الصلاة والطهارة باب من أتى امرأته فى دبرها جـ ١ صـ ٢٦٠ ، وفى الباب روايات كثيرة .
(٣) أنظر سنن أبى داود كتاب النكاح باب فى جامع النكاح جـ ٢ صـ ٢٤٩ .
(٤) أى كفر النعمة وجحودها والتنكر لها ، وليس المقصود به الكفر الحقيقى المعروف لأن المسلم لا يكفر بمثل هذا الذنب ، أو أن المقصود به الكفر الحقيقى بمعنى أن هذا العمل من أعمال الكفار ولا يليق بالمسلم التلبس به والتشبه بهم ، أو بمعنى أن من يفعل هذا الفعل ويتجرأ عليه سيتجرأ على غيره من الذنوب والكبائر ويتمادى فى ارتكاب الموبقات ولا يبالى بشىء إلى أن يسود قلبه ويقسو طبعه ويجمد فؤاده ويصل إلى درك الكفر ويتلبس به .
فالغرض هو : التنفير من جماع الرجل لزوجته فى الدبر .
ووردت روايات كثيرة عن بعض الصحابة كعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وعمر بن الخطاب ، وعن بعض التابعين كمجاهد بن جبر وطاووس بن =

بالمأثور .

من صر .. والشذوذ الجنسى

وقد اكتشف الأطباء الأضرار الصحية للزنا واللواط والسحاق : أى إتيان المرأة المرأة ، والشذوذ الجنسى ، وذكروا أسماءها ، منها : الروماتويد ، والسل ، والزهرى ، والسيلان القيحى ، والهيربس ، وسرطان الرحم ، وسرطان الأمعاء الغليظة ، وآخرها ظهورا مرض « الإيدز » : وهو مرض سببه فيروس يدخل الجسم ويدمر المناعة الطبيعية التى خلقها الله فى جسم الإنسان .

وأكدت الدوائر العلمية الطبية الإسلامية وغير الإسلامية أن فيروس هذا المرض يعيش بكثرة في : السائل المنوى ، والجهاز العصبى ، والغدد الليمفاوية ، ويأخذ هذا الفيروس أشكالا مختلفة ، وأنماطا متنوعة ، وأماكن متعددة فى الجسم مما يستحيل معه وجود مصل واحد يقضى عليه قضاء مبرما ونهائيا .

كما أكدت الدوائر العلمية الطبية أنه مرض خطير معد يصيب الرجل والمرأة بل والأطفال على السواء ، وأن المرأة المريضة به إذا حملت أضرت بجنينها ، وكذلك الرجل ، حتى إن الأطباء منعوا المريض به من إنجاب أطفال إذ هو مرض يدمر دفاعات الجسم الطبيعية ويهاجم الخلايا الدموية البيضاء ويموت المريض به بعد عام فى الغالب .

وأول من اكتشفه فى عهدنا هو الطبيب الفرنسى : « لوك مونتانيه » .

وظهر بشكل ملحوظ فى العام المنصرم ١٤٠٦ هـ — ١٩٨٦ م فى أمريكا وأوربا ودول الغرب ، وينتشر بشكل بارز فى أمريكا وفرنسا

= كيسان وسعيد بن المسيب وعطاء بن أبى رباح وغيرهم ، رضى الله تعالى عنهم ورحمهم برحمته الواسعة .

وانجلترا وإيطاليا ، وصارت صورة هذا المرض مفزعة مقلقة ورعبا يجتاح العالم الكافر ، وقد لقى عشرات الألوف من المصابين به حتفهم فى العام الماضى ، والبقية تأتى : ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا** ﴾ (١) .

ومن شدة رعب الغرب الكافر من فظاعة هذا المرض الذى يعد طاعون القرن العشرين الذى سلطه الله على الكافرين بدأ بعضّ الكفار يتخذون سبل وقاية :

فبعض الأثرياء فى أمريكا جعلوا لأنفسهم بنوكا من الدم يحتفظون بها فى بيوتهم على نظام القطاع الخاص حتى إذا ما مرض أحدهم نقل إليه الدم من بيته أو من بنكه ولا يأخذ دما من شخص غريب لا يعرفه .

وقررت الصين منع استيراد أى دم أجنبى إلى بلادها .

ويلبس رجال الشرطة بأمريكا فى أيديهم قفازات من المطاط وبخاصة عندما يحملون مريضا ينزف دما .

وبعض النصارى فى الكنائس الأوربية والغربية رفضوا الارتشاف من الكئوس الموجودة بالكنائس ، وهى رشفة تقليدية تكون بعد أداء طقوسهم الدينية ، خوفا من وجود الفيروس فى اللعاب .

---

(١) سورة نوح عليه السلام ٢٦ / ٢٧ — وصدق رسول الله ﷺ فى قوله :... لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا . انظر سنن ابن ماجه كتاب الفتن باب العقوبات ص ١٣٣٣ وهو مروى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، ورواه غير ابن ماجه من أهل الكتب الحديثية .

ويتشدد القائمون على دفن الموتى وتجهيزهم حتى إنهم يطالبون بإحكام التوابيت ووضع عوازل عليها حتى لا تتسرب منها رائحة خوفا من فيروس هذا المرض الخطير .

وكلها محاولات وقائية بقدر المستطاع .

من أعراض مرض الإيدز

ومن أعراض هذا المرض أن صاحبه يفقد المناعة ، ويصير جسمه نهبا للأمراض فلا يقوى على مقاومة أى مرض ، ولا دفع أى ميكروب ، ويكون صاحبه عرضة للسرطان ، والالتهاب الرئوى ، ونقص الوزن ، والإسهال المستمر ، وارتفاع درجة الحرارة ، والعرق الغزير فى الليل ، ويتورم جسمه ووجهه ، وتتورم الغدد الليمفاوية ، ويكون مختل الشخصية ، متغير السلوك ، سيء الطبع ، حاد المزاج ، وتظهر على جسمه بثور وتقرحات وقشور ، وبعد عام من هذه الويلات يموت ، ولا يوجد له علاج إلى الآن على الرغم من أن الأمريكان أنفقوا عليه ملايين الدولارات ، ويوجد الشذوذ الجنسى بنسبة ١٠ ٪ فى العائلات الأمريكية والغربية .

وقد نصح الأطباء بالوقاية من هذا المرض ، ومن سبلها :

١ ــ فحص دم أى متبرع بدمه أو كليته [١] أو نخاع عظمه .
٢ ــ مراقبة المصاب وعدم قبول تبرعه بشيء من جسمه .
٣ ــ عدم استعمال أدوات المصاب ولوازمه الشخصية كفرشة الأسنان .
٤ ــ تجنب القبلات مع الغرباء ، والالتزام بالخلق والسلوك السوى .
٥ ــ منع المصابين بهذا المرض من الإنجاب وملامستهم لغيرهم .

---

(١) كلية بضم الكاف ، وجمعها كلى بضم الكاف ، وكسر الكاف فى الإفراد أو التثنية أو الجمع خطأ شائع .

والغرب الكافر يحاول إلصاق تهمة هذا المرض وسببه إلى إفريقيا ، وهذا مغالطة وينطبق عليهم المثل العربى « رمتنى بدائها وانسلت » فإن من يموتون بإفريقيا يموتون من الجوع الذى ينخر عظامهم وينهش أجسامهم ، ولسوء تغذيتهم تفقد أجسامهم مناعتها فيموتون بسبب المجاعة والمسغبة .

وليس هذا بغريب ولا بمستبعد على الكفار فى الغرب فقد اتهموا الإسلام بأنه دين الهمجية ، ودين العنف ، ودين الفوضى ، ودين التخلف ، ودين يدعو إلى الجنس ويهتم به ، ومن قالوا إنه دين يدعو إلى الجنس هم أنفسهم الذين قالوا إنه دين الكبت الجنسى ، وهذا من حيرتهم فى الحكم على الإسلام وتخبطهم فى دياجير الظلام وانغماسهم فى الشهوات وغرقهم فى اللهو والملذات حتى إن دولة السويد تفكر فى إباحة نكاح المحارم أى ينكح الرجل أمه وأخته وابنته وعمته وخالته ونحوهن ، ويبيح الغرب الكافر تبادل الزوجات واتخاذ الخليلات بدل الحليلات والشذوذ الجنسى بين النساء وتزوج الرجل بالرجل ، وقد وقع هذا لممثل أمريكى هو : « روك هدسون » حيث نشرت الصحف بعد مرضه أنه كان متزوجا برجل آخر بعقد مدنى ، بل يوجد فى بعض البيوت النكاح بواسطة الحيوانات كالكلاب ونحوها ، والذى يقضى العجب أن الكفار لا يخجلون من مزاولة الشذوذ الجنسى بأنواعه والدعوة إليه ولا يتورعون عن الإعلان عن أنفسهم بذلك و « على نفسها براقش تجنى » .

ومما تقدم نفهم حكمة الحكيم العليم واللطيف الخبير فى تحريم الزنا ، وتحريم الاقتراب منه ، وفى تحريم اللواط ، ومحاربة الشذوذ الجنسى عموما ، وفى عدم حل زواج المرأة بأكثر من رجل واحد ، وفى وجود

العقاب الصارم الرادع ، والعلاج الشافى الناجع لجريمة الزنا واللواط ، وهو الحدود الشرعية المذكورة والمبينة فى القرآن الكريم والسنة المطهرة .



إرسال موسى عليه السلام إلى فرعون
وموقفه منه وعاقبته

قال الله تعالى :

﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

نبذة عن موسى عليه السلام

هو موسى بن عمران ، ينتهى نسبه إلى إبراهيم الخليل عليهما السلام ، ولد فى مصر فى عهد أحد الفراعنة الحكام الجبابرة الذى كان يذبح أبناء بنى إسرائيل ويستحيى نساءهم لأن كهانه قالوا له : سيولد ذكر فى بنى إسرائيل يكون هلاكه وزوال ملكه على يده وبسببه ، فخافت أمه عليه بعد ولادته من بطش فرعون ، فألهمها الله تعالى أن تضعه فى صندوق وتلقيه فى اليم ، ووعدها برده إليها وجعله من المرسلين ، ففعلت ، وسار الصندوق به فى اليم إلى أن التقطه آل فرعون ، وأراد فرعون قتله ولكن امرأته أبت وقالت : ﴿ **هو قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا** ﴾ .

وأبى موسى عليه السلام أن يلتقم ثدى مرضع ، وشاء الله أن

يعود بواسطة أخته التى تبعته إلى أمه فى بيتها ليرضع منها وتأخذ أجرا عظيما على إرضاعه وظل عندها إلى أن فطمته ، فعاد إلى قصر فرعون وتربى فيه وشب وترعرع ، وحفظه الله من التدنس فى عبادة الأصنام أو فعل شيء أو قول شيء مما كان يفعله ويقوله الكهنة ، فقد تربى بعين الله وحفظه وكلاءته ورعايته .

ثم خرج من مصر فارا بنفسه إلى أرض مدين بسبب وكزه للمصرى الذى كان يتشاجر مع الإسرائيلى وكزة قضت عليه ، وندم موسى على ما فعل .

وعاش فى أرض مدين يرعى الغنم لشيخ كبير لمدة عشر سنوات ، وتزوج بابنة الشيخ الكبير صاحب الغنم ، ثم عزم على العودة إلى مصر ، ولما سار بأهله وجد فى جانب الطور نارا فاتجه إليها لعله يأتى منها بقبس أو يجد من يهديه الطريق ، ولما اقترب منها سمع نداء ربه : ناداه وأمره أن يخلع نعليه وأخبره بأنه اختاره للنبوة والرسالة وأن بورك من فى النار ومن حولها ، وأوحى إليه ما أوحى ، وأمره بالذهاب إلى فرعون ودعوته ، وأعطاه الله آيات بينات ومعجزات باهرات ، فذهب ومعه أخوه هارون بأمر الله تعالى إلى فرعون ، ودار بينهما حوار وجدال وأراه المعجزات الدالة على صدقه ، فزعم فرعون أنه ساحر ، ودعا كل سحار عليم ليقابلوا سحر موسى ويبطلوه ، فعجزوا وانقلبوا صاغرين وآمنوا برب موسى وهارون ، وهددهم فرعون بالقتل والصلب على جذوع النخل فلم يعبأوا به ، كما هدد موسى بالقتل والسجن ، وطلب بناء صرح للصعود إلى إله موسى ، ورمى موسى بالكذب والجنون ، وأرغى وأزبد ، وعيره بتربيته له فى بيته .... وحفظ الله موسى ومن معه فأوحى إليه أن يسرى بهم ليلا ويعبر البحر الأحمر

إرساله إلى فرعون

بعد أن يضربه بعصاه ، ففعل ، وانفلق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم ، وعبر موسى ومن معه إلى الشاطىء الثانى ، وجاء فرعون ومن كانوا معه ليلحقوا بموسى ومن معه ليقتلوهم ، ولما نزلوا البحر أسال الله المياه وأطبقها عليهم فأغرقهم وأهلكهم جميعا ، ومات فرعون ومن معه كفارا فجارا وصاروا عبرة للمعتبرين وعظة للمتقين .

وقصة موسى عليه السلام مع فرعون طويلة أوجزتها بقدر الإمكان ، وذكرها الله تعالى فى سورة الأعراف فى الآيات ١٠٣ ــ ١٣٧ ، وسورة يونس عليه السلام فى الآيات ٧٥ ــ ٩٢ ، وسورة هود عليه السلام فى الآيات ٩٦ ــ ٩٩ ، وسورة الإسراء فى الآيات ١٠١ ــ ١٠٤ ، وسورة طه فى الآيات ٩ ــ ٧٩ ، وسورة المؤمنون فى الآيات ٤٥ ــ ٤٩ ، وسورة الفرقان فى الآيتين ٣٥ ــ ٣٦ ، وسورة الشعراء فى الآيات ١٠ ــ ٦٨ ، وسورة النمل فى الآيات ٧ ــ ١٤ ، وسورة القصص فى الآيات ٣ ــ ٤٢ ، وسورة غافر فى الآيات ٢٣ ــ ٤٦ ، وسورة الزخرف فى الآيات ٤٦ ــ ٥٦ ، وسورة الدخان فى الآيات ١٧ ــ ٣٣ ، وسورة الذاريات فى الآيات ٣٨ ــ ٤٠ ، وسورة النازعات فى الآيات ١٥ ــ ٢٦

قال تعالى : ﴿ **وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين** ﴾ .... إلخ :

صلة الآيات بما قبلها

وهذه الآيات متصلة بما قبلها ومرتبطة بها ارتباطا لفظيا ومعنويا :
ففى قوله تعالى ﴿ وفى موسى ﴾ أوجه إعرابية منها :

أن هذا الجار والمجرور معطوف على « فيها » فى قوله تعالى : ﴿ **وتركنا فيها آية** ﴾ وهو عطف بإعادة حرف الجر « فى » لأن المعطوف عليه ضمير مجرور واشترط ذلك بعض النحاة .

ومتعلق الجار والمجرور هو كلمة « تركنا » ، ويكون من عطف المفردات أى وتركنا فى قصة موسى آية ، ويجوز أن يكون متعلق الجار والمجرور فعلا مقدرا تقديره : وجعلنا فى قصة موسى آية ، ويكون من عطف الجمل ، ولابد من تقدير المضاف والمفعول المذكورين والذين يدل عليهما سياق الكلام لأن نفس موسى عليه السلام ليس آية باقية مستمرة وإنما الآية الباقية المستمرة هى قصته المذكورة فى القرآن الكريم وما يستفاد منها من عبر .

وقيل إن هذا الجار والمجرور معطوف على قوله تعالى : ﴿ **وفى الأرض آيات للموقنين** ﴾ ، وما بين المعطوف عليه والمعطوف اعتراض لتسلية رسول الله ﷺ ، أى فى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم آيات وفى قصة موسى آيات كذلك .

وهذا الوجه قال به الزمخشرى وابن عطية وهو وجه مرجوح بل بعيد ولا مبرر له ولا داعى إليه لما فيه من التكلف وينزه القرآن الحكيم عن مثله كما قال العلامة أبو حيان (١) ، والراجح هو الوجه الأول .

فبين هذه الآيات التى تتحدث عن موسى وفرعون وبين الآيات السابقة ارتباط بيّن لا يخفى ، أى وجعلنا فى قصة موسى مع فرعون آية بينة وعبرة قوية تدل على وحدانية الله وقدرته ، وسعة علمه وإرادته ، ونصره لعباده وأوليائه ، وخذلانه للطغاة وأعدائه ، وجعلنا فيها كذلك تسلية لرسول الله محمد ﷺ ولكل مؤمن ، وتهديدا وتخويفا لكل باغ متكبر متجبر .

إعراب إذ

وكلمة « إذ » ظرف لما مضى من الزمان ، وفى إعرابها أوجه :

---

(١) أنظر البحر المحيط لأبى حيان جـ ٨ صـ ١٤٠

فيجوز أن تكون ظرفا لآية أى المفعول به المقدر أى وتركنا فى قصة موسى علامة دالة على قدرتنا فى وقت إرساله بأمرنا إلى فرعون وملائه .

ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف يقع هذا المحذوف صفة لآية أى وتركنا فى قصة موسى آية كائنة فى وقت إرسالنا إياه إلى فرعون وملائه .

ويجوز أن تكون متعلقة بكلمة « تركنا » ، أو بكلمة « جعلنا » المقدرة المفهومة من السياق .

ويجوز أن تكون بدل اشتمال من « موسى » أى فى وقت إرساله إلى فرعون وملائه .

المراد بالسلطان

و « السلطان » كلمة تجرى مجرى المصدر فلا تجمع ، والمراد به : الحجة الساطعة والبراهين الناصعة وكل ما جاء به موسى ، وقد أيد الله تعالى موسى بالمعجزات الباهرة وأعطاه أدلة تسعة ظاهرة تؤيده فى دعواه النبوة ، وتصدقه فى أنه رسول من رب العالمين إلى فرعون وقومه ، ومن الآيات والأدلة التسع : العصا واليد ، وهما آيتان كبريان ، وبرهانان عظيمان اقترنت بهما رسالته ، ولذا قال تعالى عنهما فى سورة القصص : ... ﴿ **فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوما فاسقين** ﴾ (١) أى العصا واليد برهانان من الله ومعجزتان كبيرتان تدلان على صدق موسى فى أنه رسول من الله تعالى .

وكلمة « مبين » صفة لسلطان ، من أبان اللازم أى أرسلناه إلى فرعون بحجة واضحة ، أو من أبان المتعدى أى أرسلناه بحجة

---

(١) سورة القصص ٣٢

أبانت الحق وأوضحته لفرعون ، أو أبانت وأوضحت كون موسى رسولا حقا .

معنى التولى والركن وبيان مافى الجملة من مجاز

« فتولى بركنه » : جملة معطوفة على كلمة « أرسلناه » وذكر الفاء يدل على سرعة الإعراض والمفاجأة وعدم التأنى ، أى أن فرعون فاجأ موسى — بمجرد دعوته إلى الله وتفوهه بأنه رسول منه إليه — بالتولى والإعراض بدون تأمل ولا تمهل ولا تفكر ولا ترو ، فدل ذلك على منتهى جهله وغبائه وغاية تكبره وعناده وشدة حنقه وحمقه .

والركن فى الأصل اسم جنس ، ويطلق على ركن البيت وعماده الذى يتقوى به ، والمراد به هنا : ملك فرعون وعزته وجنوده ، وأبهته وحشوده ، وكل ما تقوى به ، فأطلق الركن وأريد به ما كان يتقوى به فرعون على سبيل الاستعارة ، بأن يشبه ما كان يتقوى به من الأشياء المذكورة بالركن الذى يتقوى به البنيان بجامع مطلق التقوى فى كل ، ثم حذف المشبه واستعير المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، والباء للملابسة أو المصاحبة ، وكونها للسببية بعيد لأن جعلها للسببية يبعد عنه عزته وعظمته وقدرته فى ذاته .

ونظير هذه الكلمة قول لوط عليه السلام : .... ﴿ **أو آوى إلى ركن شديد** ﴾ [1] .

﴿ وقال ساحر أو مجنون ﴾ :

أى قال فرعون عن موسى عليه السلام : هو ساحر أو مجنون .

المراد بأو

و « أو » هنا للشك : ففرعون يعلم أن موسى عليه السلام نبى حق ورسول صدق وأن ما ظهر على يديه معجزات بلا ريب ولكنه

---

(١) سورة هود عليه السلام ٨٠

نزل نفسه منزلة الشاك فى شأنه ، والمتحير فى أمره ، وتلون كالحرباء يموه على قومه ويعمى عليهم ، فنسب ما ظهر على يد موسى من آيات باهرة ومعجزات ظاهرة قاهرة إلى الجن ، وأظهر التشكك والتردد فى وصفه ، فوصفه بالسحر أو بالجنون ، وردهما إلى الجن : أى إن كان الجن يأتونه بسعيه واختياره فإنه يكون ساحرا ، وإن كانوا يأتونه بلا سعى منه ولا اختيار له فإنه يكون مجنونا ، فأوهنا للشك مثل « أو » فى قوله تعالى فى سورة الكهف : ﴿ **لبثنا يوما أو بعض يوم** ﴾ (١) .

ويجوز أن تكون « أو » للإبهام أى التشكيك : ففرعون مع علمه فى قرارة نفسه بصدق موسى عليه السلام يشكك قومه ويبهم عليهم ويوقعهم فى الحيرة لينال رضاهم وتستمر طاعتهم له ويظل استعلاؤه عليهم ، فـ « أو » تكون للإبهام مثل « أو » فى قوله تعالى فى سورة سبأ : ﴿ **وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين** ﴾ (٢) .

ويجوز أن تكون « أو » بمعنى الواو باعتبار أن فرعون وصف موسى بالوصفين معا ونعته بهما كما قال تعالى فى آية أخرى حكاية لكلام فرعون وملائه عن موسى عليه السلام : ﴿ **إن هذا لساحر عليم** ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ **إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون** ﴾ (٤) .

موسى منزه عن السحر والجنون وكذلك سائر الأنبياء

وليس موسى عليه السلام ساحرا ولا مجنونا كما ادعى فرعون ، بل فرعون نفسه يعلم ويوقن أن السحر ليس من الجن ولا دخل لهم فيه :

---

(١) سورة الكهف ١٩ ومثلها رقم ٢٥٩ سورة البقرة ورقم ١١٣ سورة المؤمنون ، وقال فرعون عن موسى كما حكى الله فى سورة الإسراء ١٠١ : إنى لأظنك يا موسى مسحورا .

(٢) سورة سبأ ٢٤

(٣) سورة الأعراف ١٠٩

(٤) سورة الشعراء ٢٧

فالسحر : صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره ، وهو يشبه الأمر الخارق للعادة ، وهو فن له قواعده وأصوله وكتبه التى يعرفها الساحرون من البشر ، ويمكن تعلمه ، وله حقيقة وتأثير فى الواقع بإذن الله كما يرى جمهور العلماء ، ويشتهر اليهود به وبالشعوذة منذ زمن بعيد سحيق .

ويعلم فرعون أن موسى ليس بمجنون وإنما هو فى تمام العقل وكمال الإدراك والوعى ، لقد تربى فى بيته من قبل ويعرفه تمام المعرفة ولكنه يخادع ويحتال ويعمى على قومه وملائه ، وكيف يأتى المجنون بما يعجز عنه العقلاء ؟ إن من يأتى بما يعجز عنه العقلاء يكون أعقل العقلاء ، وجميع الأنبياء والرسل عليهم السلام أعقل العقلاء وأفطن الفطناء و ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾[1].

ففرعون [2] كان يحكم مصر وكان رجلا طاغية ظالما عاليا متكبرا متجبرا يدعى الإلهية ويُعبَد من دون الله ، أرسل الله إليه موسى [3] ــ ومعه أخوه هارون وزيرا ورسولا عليهما السلام ــ ليدعوه هو وقومه إلى الإيمان بوجود الله ووحدانيته وكماله ، وترك الاستكبار والاستعلاء فى الأرض ، وأمره الله وأوصاه أن يكون لينا معه فى القول لعله يتذكر أو

---

(١) سورة الأنعام ١٢٤

(٢) فرعون لقب لكل من حكم مصر فى العصور البعيدة التى قبل الميلاد ، فليس هذا اللفظ إسما لشخص معين وإنما هو لقب ، ومثله لفظ : قيصر ، وكسرى ، ومثله فى عصرنا لفظ : رئيس ، وإمبراطور ، وملك ، وفرعون موسى الذى أهلكه الله كان أسمه رمسيس الثانى .

(٣) قيل إن الذى سماه بهذا الاسم زوجة فرعون وقيل ابنته ، وكلمة موسى تنطق باللغة العبرية : موشى بإمالة الشين ، ومعناها : الملتقط من الماء .

يخشى ، وأيده بمعجزات تسع من أهمها معجزتا العصا واليد .

وبمجرد أن ذهب — ومعه أخوه هارون وزيرا ورسولا — إلى فرعون والتقى به ودعاه إلى الله وأفحمه بجواره تكبر فرعون وتعاظم ، وتعالى وتفاخم ، وهدد وأوعد ، وأرغى وأزبد ، وادعى الإلهية والربوبية فى حضرة موسى وهارون وقال ما حكاه الله تعالى فى سورة القصص : ﴿ **يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين** ﴾ (١) ، وقال فى سورة غافر : ﴿ **يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا** ﴾(٢) ، وقال فى سورة النازعات : ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ (٣) .

ورمى موسى بالسحر والجنون والكذب وعيره بتربيته له فى بيته وهو وليد إلى أن كبر وبقتله للقبطى المصرى ﴿ **ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين** ﴾ (٤) ، كما عيره بما كان فى صوته ولسانه : ﴿ **أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين** ﴾ (٥) .

واستمر فرعون ومن معه من أعوانه وأشياعه مصرين على نكوصهم وإعراضهم عن موسى ودعوته ، وإبائهم الإيمان وعنادهم له ولرسالته ، فكانت عاقبتهم الهلاك والدمار كما قال تعالى فى هذه السورة :

---

(١) سورة القصص ٣٨
(٢) سورة غافر ٣٦ — ٣٧
(٣) سورة النازعات ٢٤
(٤) سورة الشعراء ١٨ — ١٩
(٥) سورة الزخرف ٥٢

﴿ **فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم** ﴾ :

سر ذكر الفاء العاطفة فى الأفعال الثلاثة

فجملة « فأخذناه » معطوفة على جملة « فتولى بركنه » ، وذكر الفاء فى الأفعال الثلاثة : فتولى ، فأخذنا ، فنبذنا » يدل على التعقيب والسرعة أى دعا موسى عليه السلام بأمر الله فرعون وقومه إلى الإيمان بالله وحده فأعرض فرعون ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله وقذفه بالسحر والجنون ووافقه أتباعه على ما قال وتابعوه فأخذهم الله بذنوبهم فألقاهم وطرحهم فى اليم أى البحر الأحمر وأطبقه عليهم بعد نزولهم فيه فغرقوا جميعا وفرعون يلوم نفسه ويتظاهر بتوبته وإيمانه ولم ينفعه ذلك لأنه إيمان يائس وفى وقت الغرغرة ولم يكن صادقا فى إيمانه وأبى أن ينطق بلفظ الجلالة ويجريه على لسانه فقال : .. ﴿ **آمنت بالذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين** ﴾ [(١)] ، وصدق الله العظيم فى قوله فى سورة النساء : ﴿ **إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما** ﴾[(٢)] .

وفى قوله فى سورة الأنعام : ... ﴿ **يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا** ﴾ [(٣)] .

فجملة « وهو مليم » حالية أى فرعون آت بما يلام عليه وهو الكفر

---

(١) سورة يونس عليه السلام ٩٠

(٢) سورة النساء ١٧ — ١٨

(٣) سورة الأنعام ١٥٨

سبب اللوم وبيان ما فى الجملة من مجاز

والطغيان ، من « ألام » الرباعى ، أى أتى بما يلام عليه ، فالفعل الرباعى كالفعل الثلاثى فى المعنى .

ومثله كلمة « أغرب » إذا أتى أمرا غريبا عجيبا .

والملام عليه هنا هو الكفر والطغيان ، وفى الجملة الحالية مجاز عقلى حيث أطلق اسم الفاعل على اسم المفعول للمبالغة ، ففرعون ملوم وليس مليما لكن هذا الإسناد المجازى أفاد المبالغة فى اللوم ، فهو مثل قوله تعالى عن المؤمن فى سورة الحاقة : ﴿ **فهو فى عيشة راضية** ﴾ [1] .

لوم فرعون غير لوم يونس عليه السلام

ومقدار اللوم يكون على حسب سببه : فالكافر ملوم على مقدار كفره ، ومرتكب الكبيرة ملوم على مقدار كبيرته ، ومرتكب الصغيرة ملوم على مقدار صغيرته ، ومرتكب الخطأ والزلل ملوم على مقدار خطئه وزلته ، فمقدار اللوم يكون على حسب سبب ونوع الملوم عليه وقدر مرتكبه ، ولذا فإن لوم فرعون هنا غير لوم يونس بن متى عليه السلام المذكور فى سورة الصافات فى قوله تعالى عنه : ﴿ **فالتقمه الحوت وهو مليم** ﴾ [2] .

فى الآية وعد ووعيد

وفى هذه الآية تشريف لموسى وهارون عليهما السلام ، وبيان لقربهما من الله حيث إنهما دعوا على فرعون وملائه بأن يهلكهم الله بعد يأسهما من إيمانهم ، فاستجاب الله دعاءهما ، كما قال تعالى حكاية لقولهما فى سورة يونس عليه السلام : ﴿ **ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ،**

---

(١) سورة الحاقة ٢١

(٢) سورة الصافات ١٤٢ وانظر الكشاف لجار الله الزمخشرى جـ ٤ صـ ٣١ .

قال، قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ (١) .

وفيها بشارة لسائر المؤمنين على مر العصور وبيان أن الله معهم وناصرهم ومنجيهم .

وفيها نذارة وتخويف وتهديد لسائر المكذبين والمعاندين لشرع الله ومنهجه على مر العصور وكر الدهور ، وبيان أن الله خاذلهم ومخزيهم ، وساخط عليهم ومعاقبهم بأشد العقاب ، وأمر العذاب .

ففى قصة موسى (عليه السلام) مع فرعون ومع بنى إسرائيل آيات بينات ، وعظات بالغات ، وعبر واضحات ، ولذا طالت هذه القصة فى القرآن الكريم ، وتكرر ذكرها ، وتوزعتها كثير من السور حتى كاد القرآن يكون عن موسى ومن أرسل إليهم ، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

وكل آية من الآيات الثلاث المذكورة هنا فى سورة الذاريات فى قصة موسى عليه السلام تشير إلى مرحلة عظيمة مشحونة بالأحداث العظام ، والمواقف الجسام .

---

(١) سورة يونس عليه السلام ٨٨ — ٨٩

موقف عاد من نبيهم هود عليه السلام وعاقبتهم

قال الله تعــالى :

﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾

التعريف بهم وبموقفهم وجزائهم

عاد بن عوص اسم لجد القبيلة وأبيهم الأول وهم من العرب[1] ، كان عددهم كثيرا ، وكانوا يعيشون على أرض تسمى بالأحقاف ، وتقع فى شمال حضرموت ، ويقع فى شرقها عمان ، وأرض هذه المنطقة اليوم جرداء وبها رمال وصحراء بعد أن كانت أرضا خصبة خضراء معمورة بالسكان والزرع والضرع ، وفيها الخير الوفير والنعيم الكثير ، فقد ذكر القرآن ما يدل على أنهم كانوا أقوياء ويتمتعون بصحة جيدة وطول مفرط وكانوا كثيرا ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد** ﴾ [2] ، وكانت لهم أنعام وزروع وأولاد ، واغتروا بسبب هذه النعم والقوة والمنعة التى جعلتهم مضرب

(١) أنظر قصص الأنبياء للحافظ ابن كثير صـ ١١٣ .
(٢) سورة الفجر ٦ ــ ٨

الأمثال ، فتكبروا وبطشوا بالمارين وعبدوا الأصنام واتخذوها آلهة من دون الله وضاهوا فى عبادتها قوم نوح ، « وهم أول من عبدوها بعد الطوفان » (1) .

فلما ضلوا عن سواء السبيل وعاثوا فى الأرض فسادا وقالوا من أشد منا قوة أرسل الله إليهم نبيهم هود بن شالخ ، وكان رجلا طويل القامة عظيم الجسم فى مثل أجسامهم أبيض اللون طويل اللحية من أوسطهم نسبا وأصبحهم وجها وأحسنهم شكلا ، فدعاهم إلى الإقرار بوجود الله وتوحيده وعبادته ، والكف عن ظلم الناس وعن العتو والبغى ، فأبوا وكذبوه وتطاولوا وتباهوا وقالوا من أشد منا قوة .

فلم ييأس هود (عليه السلام) منهم وظل يرغبهم فى توحيد الله وطاعته وينذرهم ويحذرهم عقابه وسخطه ويضرب لهم المثل بقوم نوح ويذكرهم بنعم الله وفضله عليهم إذ زادهم فى الخلق بسطة وجعلهم خلفاء من بعد قوم نوح وبوأهم أرضا تدر عليهم من بركاتها فتخرج لهم الزرع الذى يأكلون منه ، وتنبت لهم الكلأ الذى ترعى فيه مواشيهم ودوابهم ، وطالبهم أن يفكروا ويتأملوا ويستعملوا عقولهم ليستبين لهم أن الأصنام التى يعبدونها من دون الله لا تنفعهم ولا تضرهم ، ولا تملك شيئا لنفسها فضلا عن غيرها ، ويتيقنوا أن الله هو الذى يملك النفع والضر ، وهو الذى أغدق عليهم نعمه وأسبغها عليهم ، وهو خالقهم وبيده محياهم ومماتهم ومقاليد السماوات والأرض ، وأنهم إذا عرفوه وآمنوا به حق الإيمان واتقوه وإستغفروه فسيرسل السماء عليهم مطرا غزيرا يكفيهم ويزيد عن حاجتهم ويكون خاليا من الضرر ، ويمدهم بالأموال والبنين ، ويزيدهم قوة إلى قوتهم ،

---

(1) أنظر قصص الأنبياء لابن كثير صـ ١١٤ .

ويمنحهم عزا على عزهم .

وبين الحين والحين والنصح والنصح يبين لهم هود عليه السلام ويذكرهم أنه لا يطلب أجرا منهم على نصحه لهم ، ولا يطمع فى رياسة عليهم ، ولا يطمح فى سلطة ، فهو بعيد عن أى تهمة كل البعد ، وكل الذى يريده منهم ويرجوه هو إستجابتهم لدعوته المرسل بها من الله ، وهدايتهم إلى صراطه المستقيم ، ونعيمه المقيم ، فآمن به بعضهم وهم قلة ، وكفر به بعضهم وهم كثرة كاثرة وسوادهم الأعظم ، فتعقبوه بالإهانة والتجريح والرمى بالسفاهة والكذب ، ولم يعبأوا بحججه القاطعة وبراهينه الساطعة التى أقامها للدلالة على صدقه ، وكلما جادلهم بالتى هى أحسن قابلوه بالتى هى أخشن وقالوا : ﴿ **ياهود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ، إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء** ﴾ (١) .

وكان هود عليه السلام رابط الجأش كاظم الغيظ حليما صبورا ، تذرع بالحلم والصبر أمام موقفهم الجامد المخزى ، فلم ييأس منهم وإنما ظل يراجعهم ويمحض لهم النصح ويخلص لهم فى الإرشاد ، ويخوفهم عقاب الله وإبادتهم إن لم يستجيبوا له ، وأن الله إن أبادهم سيستخلف قوما غيرهم ، لكنهم إستمروا على عتوهم ، وإستمرأوا عصيانهم له ، وجحودهم لآياته التى أقامها عليهم فى أنه رسول من عند الله رب العالمين ، وظلوا سادرين فى غيهم ، منغمسين فى ضلالهم ، متبعين أمر كل جبار عنيد ، إلى أن جفت ينابيع الأمل فى إيمانهم ولم يبق فائدة فى إنذارهم ، فأنزل الله عليهم عقابه وأحل بهم نقمته فى الدنيا .

---

(١) سورة هود عليه السلام ٥٣ ــ ٥٤

ومن فضل الله ورحمته أنه أنذرهم قبل إهلاكهم فأمسك عنهم المطر حتى قحطوا وجهدوا لعلهم يرعـوون عن غيهم ، ويثوبون إلى رشدهم وصوابهم ، لكن مازادهم ذلك إلا عتوا وفسادا ، وبغيا وعنادا ، وكان هود يذكرهم بهذا القحط ، ويحذرهم هذا الجهد ، ويبين لهم أن لا كاشف لهذا البلاء ، ولا رافع لهذا الضر إلا إستجابتهم لله ، وإيمانهم بدعوته ، وعملهم بنصائحه ، فلما لم يستجيبوا ولم ينفعهم الإنذار والإرهاب ، وتبجحوا وقالوا له : ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » ، أرسل الله عليهم الريح العقيم ، وسلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، أى متتابعة وباردة ، وشؤما ، خالية من أدنى خير ، فأهلكهم الله بها وأبادهم ، وصاروا صرعى كأنهم أعجاز نخل منقعر ، وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، وصاروا عبرة لغيرهم من المعتبرين ، ومثلا للمتعظين ، وصارت ديارهم أطلالا بالية خربة، وأجسامهم عظاما نخرة ، ونجى الله هودا ومن إتبعه من المؤمنين ، من ذلك العذاب المهين .

وقوم عاد الذين أهلكهم الله وإستأصلهم بسبب عصيانهم لنبيهم هود عليه السلام هم عاد الأولى ، وكانوا يحيون بأرض الاحقاف كما سبق ، أما قبيلة عاد الثانية فهم قوم يمنيون كانوا يسكنون اليمن وكانوا من قحطان وسبأ .

ويقال إن هودا عليه السلام إنتقل بعد هلاك قومه إلى بلاد حضر موت وعاش بها إلى أن توفاه الله تعالى ، وإنه دفن فى شرق حضر موت فى مكان قريب من مدينة تريم قرب وادى برهوث ، وقيل إنه مات ودفن بفلسطين .

وذكر الله تعالى قصة عاد قوم هود عليه السلام فى سورة الأعراف فى الآيات ٦٥ ــ ٧٢ وسورة هود عليه السلام فى الآيات

٥٠ — ٦٠ وسورة الشعراء فى الآيات ١٢٣ — ١٤٠ وسورة فصلت فى الآيات ١٣ — ١٦ وسورة الأحقاف فى الآيات ٢١ — ٢٦ وسورة الذاريات فى الآيتين ٤١ — ٤٢ وسورة القمر فى الآيات ١٨ — ٢١ وسورة الحاقة فى الآيات ٤ — ٨ وسورة الفجر فى الآيات ٦ — ٨ .

قال تعالى :

﴿ وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ... ﴾ :

صلتهما بما قبلهما

يقال فى إعراب الجار والمجرور ، وفى إعراب « إذ » هنا ، وفى وجه إرتباط هاتين الآيتين بما سبقهما ما قيل فى إعراب وإرتباط قوله تعالى : وفى موسى إذ أرسلناه » بما قبله .

فالإعراب : الإعراب ، والعلاقة : العلاقة .

أى وجعلنا فى قوم عاد الذين عصوا رسولهم هودا عليه السلام وتمردوا عليه آية وقت إرسالنا عليهم الريح العقيم المهلكة لهم .

المراد بالريح

وهذه الريح هى الدبور لقوله ﷺ فيما رواه الشيخان وأحمد وابن جرير بأسانيدهم عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما :

« نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور » [1] .

---

(١) أنظر صحيح البخارى كتاب الاستسقاء باب قول النبى ﷺ : نصرت بالصبا جـ ٢ صـ ٤٠ وكتاب بدء الخلق باب ما جاء فى قوله : وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته جـ ٤ صـ ١٣٢ ، وكتاب الأنبياء باب قول الله عز وجل : وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية صـ ١٦٦ وكتاب المغازى باب غزوة الخندق وهى الأحزاب جـ ٥ صـ ١٤٠ وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب صلاة الاستسقاء جـ ٢ صـ ٥٥٩ ، ومسند أحمد جـ ١ / ٢٢٣ / ٢٢٨ / ٣٢٤ / ٣٤١ / ٣٥٥ / ٣٧٣ — وجامع البيان للطبرى جـ ٢٧ صـ ٥ .

وقيل فى تسميتها غير ذلك كالنكباء ، والجنوب . والمعول عليه هو ما قاله رسول الله ﷺ لأن ذلك من تفسير القرآن الكريم بالسنة المطهرة ، وهى مرتبة تلى تفسير القرآن بالقرآن ، ولأن تسمية الريح المهلكة لهم بغير ذلك — وهى أمر غيبى — ضرب من الحدس والتخمين ونوع من التفسير بالرأى المذموم ، فالعبرة بما قاله رسول الله ﷺ الذى يوحى إليه ولا ينطق عن الهوى .

معنى « عقيم » وبيان ما فيها من مجاز »

و « عقيم » صفة مشبهة بمعنى عاقم ، وهى من الفعل اللازم : عقم ، يقال : عقمت المرأة ، ويقال : أعقم الله المرأة ، ويقال : عقمت المرأة ، ببنائه لما لم يسم فاعله صورة ، ويقال : امرأة عقيم أى لا تلد ، ونساء عقم أى لا يلدن ولا يتناسلن ، ورجل عقيم ، وريح عقيم . ويصح أن تكون الكلمة بمعنى الفاعل أى ريح لا تلقح سحابا ولا شجرا ، أو بمعنى المفعول كالعجوز العقيم ، وهى التى لا تقبل أثر الخير ، وإذا لم تقبل أثر الخير ولم تتأثر لم تعط ولم تؤثر(١) .

فوصف الريح بالعقم معناه : أنها ريح خالية من البركة والنعمة ، والفائدة والمنفعة ، فلم ينزل الله بسببها مطرا ، ولم تلقح سحبا ولا شجرا ، ولم تحمل لهم نفعا كما توقعوا ، وإنما كانت ريحا قارسة البرد ، شديدة عاتية ، عاصفة مزمجرة ، مهلكة مدمرة .

فوصفها بما هو صفة لبعض النساء من باب الاستعارة : شبه خلوها من المنفعة وانقطاعها عن الخير وإهلاكهم بها بعقم بعض النساء وعدم تناسلهن بجامع مطلق عدم النفع وعدم العمار فى كل ثم

---

(١) أنظر المفردات فى غريب القرآن للراغب صـ ٣٤٢ ، والصحاح للجوهرى صـ ١٩٨٨ — ١٩٨٩ والمصباح المنير للفيومى صـ ٤٢٣ ، والقاموس المحيط للفيروزابادى جـ ٤ صـ ١٥٢ .

حذف المشبه واستعير المشبه به له على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية لأنه صرح بالمشبه به ولأنها فى مشتق وهو « عقيم » .

﴿ **ما تذر من شى أتت عليه إلا جعلته كالرميم** ﴾ :

صلة الآية بما قبلها

وهذه الآية متصلة بما قبلها لأن موقعها الإعرابى النصب على أنها حال مقدرة أى أرسلنا الريح عليهم صالحة لإهلاكهم ومقدرا فيها ذلك .

ويصح أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيا فتكون جوابا لسؤال مقدر كأن سائلا سأل : ما الذى صنعته الريح المرسلة عليهم ؟ ، فبينها وبين ما قبلها شبه كمال اتصال .

ويصح أن تكون مفسرة للعقم الموجود فى الآية السابقة ومبينة للمعنى المراد منها ولا محل لها من الإعراب على الوجهين الأخيرين .

المراد بـ « شىء »

والمراد بلفظ « شيء » : قوم عاد وأرضهم وأبنيتهم وعروشهم وزروعهم ، فهو لفظ عام أريد به خاص ، فهذه الريح التى مرت بهم وسلطت عليهم أهلكتهم وقطعت دابرهم ولم تبق إلا مساكنهم كما قال تعالى فى سورة الأحقاف :.. ﴿ **ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم** ﴾ [1] .

ومما يدل على أنه عام أريد به خاص بقاء مساكنهم بدون تدمير « فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم » ، وقوله تعالى ﴿ **تدمر كل شيء بأمر ربها** ﴾ أى أن الريح كانت تدمر ما أمرها الله تعالى بتدميره ، وقوله تعالى هنا : ﴿ **ما تذر من شيء أتت عليه** .... ﴾ فهذا يفيد

---

(١) سورة الأحقاف ٢٤ ــ ٢٥

أنها أتت وسلطت على أشياء دون أشياء ، فسبحان من جمع بين الوعيد والوعد ، وقرن بين الهلاك والنجاة .

وكانت ريحا شديدة البرودة أحرقت بشدة بردها أجسامهم وأشجارهم وأثمارهم وغير ذلك وسودتها بقسوة بردها كما قال تعالى فى سورة الحاقة : ﴿ **وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية** ﴾ (١) .

وقيل إنها كانت ريحا حارة شديدة الحرارة ، والأول أظهر وأشهر وأوفق بسياق الآيات القرآنية واللغة العربية .

معنى الرميم

و « الرميم » من رم العظم يرم بكسر الراء رمة إذا بلى وتقطع وتفتت : ومنه قوله تعالى عن الكافر : ﴿ **قال من يحيى العظام وهى رميم** ﴾ (٢) ، والمراد به : كل شىء بلى وتفتت من عظم أو نبات أو حصى ونحوه ، وخصه بعضهم بالتراب والرماد المدقوق الناعم ، وخصه بعضهم بما ديس عليه وتفتت من النبات اليابس الجاف ، لكن المعنى الأول أظهر وأشمل وأعم وأكمل .

ففى قصة عاد قوم هود عليه السلام آيات بينات تدل على عظم سلطان الله ، وسعة قدرته ، ونفاذ إرادته ، وغضبه للحق وأهله ، حيث أنزل نقمته على هذه الفئة الطاغية ، وأحل عذابه بهذه الحفنة الباغية ، بتسليط الريح عليهم ، وأنجى المؤمنين المطيعين منهم ، واستلهم من بينهم كما تسل الشعرة من العجين ، ويقول بعض المفسرين : ما فتح على عاد من هذه الريح وما سلط عليهم منها إلا شىء يسير كقدر منخر الثور .

---

(١) سورة الحاقة ٦ — ٨ (٢) سورة يس ٧٨

الدعـــاء مستحب إذا إشتدت الريح

هذا ، ويستحب اللجوء إلى الله تعالى والدعاء بالخير والاستعاذة به من الشر إذا هاجت الريح واشتدت وعصفت ، أو ظهر فى الأفق سحاب وغيم فقد كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك ، روى مسلم والترمذى وابن ماجه وأبو داود وغيرهم بأسانيدهم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان النبى ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إنى أسألك خيرها ، وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها ، وشر ما فيها ، وشر ما أرسلت به ، قالت : وإذا تخيلت السماء تغير لونه ، وخرج ودخل ، وأقبل وأدبر ، فإذا مطرت سرى عنه ، فعرفت ذلك فى وجهه ، قالت : فسألته فقال : لعله يا عائشة كما قال قوم عاد : فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا » .

وفى رواية أنها قالت له : يا رسول الله أرى الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرفت فى وجهك الكراهية ؟ فقال : يا عائشة ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ، قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا »(١) .

وهذا المسلك من سيدنا رسول الله ﷺ من شدة خوفه من الله ، وحبه لأمته ، ورحمته بها ، وشفقته عليها .

---

(١) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى كتاب صلاة الاستسقاء جـ ٢ صـ ٥٥٧ ــ ٥٥٨ ، وسنن الترمذى أبواب الدعوات باب ما جاء يقول إذا هاجت الريح جـ ٥ صـ ١٦٦ وحسنه ، وسنن ابن ماجه كتاب الدعاء باب ما يدعو به الرجل إذا رأى السحاب والمطر صـ ١٢٨٠ ، وسنن أبى داود كتاب الأدب باب ما يقول إذا هاجت الريح جـ ٤ صـ ٣٢٦ . و « تخيلت السماء » من المخيلة بفتح الميم أى سحابة فيها رعد وبرق يخيل إليه أنها ماطرة ، ويقال أخال إذا تغيمت .

موقف ثمود من نبيهم صالح عليه السلام وعاقبتهم

قال الله تعالى :

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾

التعريف بهم وبموقفهم وجزائهم

ثمود اسم لقبيلة كبيرة عربية ينسب أهلها وأفرادها إلى جدهم وأبيهم الأول : ثمود بن عاثر بن إرم بن سام ، وكانوا يعيشون بمكان يسمى بالحجر ، وهو بين الحجاز وتبوك إلى وادى القرى ، وقصتهم متأخرة فى الزمن عن قصة عاد قوم هود عليه السلام ، فقد كان يقال لعاد قوم هود : عاد إرم ، فلما بادوا وهلكوا قيل لثمود : ثمود إرم ، ويقال إن ديار ثمود كانت مستعمرة من قبل لقوم عاد .

وأفراد هذه القبيلة « ثمود » عاشوا فى أمن ورخاء ، ورغد وهناء ، وعلى أرض خصبة ذات جنات وبساتين وعيون وزروع وضروع ، ونخل وماشية ، وكانوا أقوياء البنية أصحاء الأجسام ، نحتوا من الجبال بيوتا فارهين ، وكانوا فى عزة واعتزاز وافتخار بأنفسهم ، غير

أنهم دنسوا حياتهم وعزهم بعبادتهم الأصنام واتخاذها من دون الله آلهة ، فاصطفى الله عز وجل رجلا منهم هو صالح عليه السلام وأرسله إليهم بالهدى ودين الحق ، فأمرهم صالح بإفراد الله بالعبادة ، وترك ما هم عليه من أصنام ، ونبذ ما هم فيه من ضلال وظلام ، وذكر لهم أدلة قاطعة وبراهين ساطعة على وجود الله ووحدانيته ، وأنه مرسل إليهم من قِبَله ، وأن مسلكهم فى العبادة ومنهجهم فى الحياة مخالف لمنهج الله وما يجب أن يتحلوا به ، فآمن به بعضهم وهم المستضعفون منهم ، وكفر به المستكبرون الطاغون ، وقالوا للمستضعفين باستهزاء ما حكاه الله تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ **أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون** ﴾ فأجابوهم فى تكبر وخيلاء بقولهم : ﴿ **إنا بالذى آمنتم به كافرون** ﴾ (١) .

ثم اقترح هؤلاء المستكبرون على صالح عليه السلام ليتبعوه أن يأتيهم بآية تدل على صدقه وتكون بمرأى منهم ، فطلبوا منه أن يخرج لهم ناقة من صخرة عينوها له (٢) ، فدعا الله عز وجل فتمخضت الصخرة عن ناقة كبيرة عشراء خرجت منها ، فقال لهم صالح إن آيته هى الناقة وإن لها يوما معلوما ترد فيه ماءهم لتشرب ، ولهم يوم آخر معلوم لشربهم ، وأنهم إن أطاعوه واتبعوه ولم يمسوا الناقة بأذى وتركوها تأكل فى أرض الله فسيحيون حياة طيبة هادئة فى دنياهم وأخراهم ، وإن عصوه ومسوا الناقة بسوء وتعرضوا لها بأذى فى نفسها أو فى أكلها أو فى شربها فإن الله سيغير حالهم ويغضب لها وينتقم منهم .

---

(١) سورة الأعراف ٧٥ ــ ٧٦

(٢) أنظر قصص الأنبياء للحافظ ابن كثير صـ ١٣٩ .

وكانت الناقة آية تحتوى آيات : فقد أخرجها الله من الصخرة ، وكانت تشرب الماء يوما ويشرب قوم ثمود يوما آخر ، وكانوا يشربون من لبنها ما يشاءون فى اليوم الذى كانت تشرب فيه الماء ، وكانت تعرف يومها الخاص بشربها ، ولا ترد الماء فى غير يومها .

فسلامتهم وسعادتهم كانت مرهونة بطاعته عليه السلام وسلامة الناقة ، وهلاكهم كان منوطا بعصيانه وإيذائها .

لكن المستكبرين عصوا صالحا عليه السلام ، وأبوا الإيمان به وبمعجزته ، وكفروا برسالته وجحدوها ، وظلوا عاكفين على عبادة الأصنام ، ساخرين من نبيهم ، سادرين فى ضلالهم ، ماضين فى طغيانهم ، واستمر صالح عليه السلام يدعوهم إلى الله تعالى ويرشدهم إلى الحق والهدى ، ويحذرهم طريق الردى ، ويصبر على عداوتهم له ومحاربتهم لدعوته ، إلى أن نفدت جهوده معهم ، وزعموا أن الناقة تؤذى مواشيهم وتخيفها ، وعتوا عن أمر ربهم ، وأجمعوا على عقرها والتخلص منها ، وكان ذلك بتحريض امرأتين كافرتين فاجرتين ثريتين من قومهم ، أغرتا رجلين منهم وأغوتاهما بعقر الناقة وذبحها ، فقام أحدهما وهو قدار بن سالف بن جندع باعتراضها وضربها بسيفه فأصاب عرقوبها ثم نحرها ، ويقال إنه ذهب خلف فصيلها ليلحق به ويذبحه ففر إلى الجبل ورغا ثلاث مرات ثم اختفى (١) ، وقيل إنه أصابه بسهم فخر على الأرض فلحق به ونحره وجمع لحمه على لحم أمه واقتسم اللحم من أراد من هؤلاء الكافرين الطاغين .

فأخبرهم صالح عليه السلام أنه بلغهم رسالة ربه ، وأنهم

---

(١) أنظر المرجع السابق صـ ١٤٢

عصوه وانتهكوا حرمة ناقة الله وآذوها ، وأنذرهم بحلول العذاب واستحقاقه ، فاستهزأوا منه كعادتهم ، وسخروا به وبما أوعدهم كدأبهم ، وتحدوه أن يأتيهم بالعذاب ، وأقسم من تآمروا على عقر الناقة وشاركوا فى ذبحها وتقسيم لحمها أن يقتلوا صالحا وأهله ثم يقولوا لوليه : ﴿ **ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون** ﴾ ، فلما عزموا على تنفيذ قسمهم أرسل الله عليهم ملائكة قذفتهم بالحجارة فأهلكتهم ونجى الله صالحا وأهله من مكرهم وشرهم ، وأخبر صالح الباقين العاصين الراضين بما فعلوا أن عذابهم قريب ، وسيأتيهم بعد ثلاثة أيام ، وهو وعد غير مكذوب ، وستصفر وجوههم فى صباح اليوم الأول ، وتحمر فى صباح اليوم الثانى ، وتسود فى صباح اليوم الثالث، ويأتيهم العذاب فى صباح اليوم الرابع .

وقد تحقق ما أخبرهم به صالح عليه السلام ، فأهلكهم الله بالصاعقة : ﴿ **فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولايخاف عقباها** ﴾ ، ووصف عذابهم فى القرآن الكريم بأنه كان بالصاعقة ، وبالصيحة ، وبالرجفة ، وبالطاغية ، ولا تناقض بين الآيات وهذه الأوصاف : فعذابهم الذى أهلكوا به وصف بها كلها ، فإن الصاعقة كانت قوية وصحبها صوت هائل عظيم هو الصيحة ، وصحبتها من هولها وقوتها رجفة شديدة كالزلزال ، وأهلكت كل الكافرين منهم وطغت عليهم واحتوتهم ولم يفلت منها أحد منهم وصاروا كهشيم المحتظر .

ونجى الله صالحا ومن آمنوا معه — وكانوا قلة — من العذاب الذى حل بقومهم الكفار — وكانوا كثرة — ، وذهبوا إلى أرض فلسطين وعاشوا بها إلى أن ماتوا طيبين طاهرين وقيل إنهم ذهبوا إلى مكة وأقاموا بها إلى أن ماتوا وقبورهم تقع غرب الكعبة ، والظاهر هو القول

الأول لأنهم كانوا أهل زرع وضرع ، وأرض فلسطين خصبة خضراء ، وأقرب البلاد إليهم وفيها الماء الموفور بخلاف مكة المكرمة .

ولاتزال مدائن صالح التى حل العذاب بأهلها الكافرين باقية إلى اليوم ، ولا يزال المكان الذى كانت به ديارهم باقيا إلى اليوم ، ويعرف بـ « فج الناقة » .

وذكر الله تعالى قصة ثمود مع نبيهم صالح عليه السلام فى سورة الأعراف فى الآيات ٧٣ ــ ٧٩ وسورة هود عليه السلام فى الآيات ٦١ ــ ٦٨ وسورة الشعراء فى الآيات ١٤١ ــ ١٥٩ وسورة النمل ٤٥ ــ ٥٣ وسورة فصلت فى الآيات ١٣ ــ ١٨ وسورة الذاريات فى الآيات ٤٣ ــ ٤٥ وسورة القمر فى الآيات ٢٣ ــ ٣١ وسورة الحاقة فى الآيتين ٤ ــ ٥ وسورة الفجر فى آية ٩ وسورة الشمس فى الآيات ١١ ــ ١٥ .

قال تعالى : ﴿ **وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين** ... إلخ :

صلة الآيات بما قبلها

وهذه الآيات متصلة بما قبلها إذ هى قصة أخرى ذكرها الله عز وجل لتسلية رسوله محمد ﷺ والمؤمنين به وتطمينهم ، وترهيب الكافرين وتحذيرهم ، وفيها آيات بينات ، وعظات بالغات .

ويقال فى إعراب قوله تعالى : ﴿ **وفى ثمود إذ قيل لهم** ﴾ : ما قيل فى إعراب قوله تعالى : ﴿ **وفى موسى إذ أرسلناه** ﴾ ، فالإعراب : الإعراب ، والمناسبة : المناسبة .

مدة تمتعهم

والذى أمرهم بالتمتع هو نبيهم صالح عليه السلام ، فهو أمرهم أن يتمتعوا بعيشهم وحياتهم إلى انقضاء آجالهم التى قدرها الله لهم ،

فإن سمعوه فى دنياهم وصدقوا فى اتباعه وطاعته تم لهم التمتع وكملت لهم السعادة وتحقق لهم العز فى الدارين .

وإن رغبوا عنه وعن دعوته واستنكفوا وجحدوا رسالته فتمتعهم دنيوى فقط ، وهو ناقص أبتر ، ولا يعد تمتعا ، وليس لهم فى الآخرة أى نصيب .

وعلى هذا الرأى فالأمر بالتمتع كان قبل عقرهم الناقة ، وكان ترغيبا لهم فى طاعة نبيهم صالح وتذكيرا لهم بنعم الله عليهم ولفتا لنظرهم إلى فيضه ورحمته بهم وجوده عليهم .

ويؤيد هذا الرأى قوله تعالى هنا : ﴿ **فعتوا عن أمر ربهم** ﴾ ، وعتوهم وعصيانهم بدأ قبل عقر الناقة ، وقوله تعالى فى سورة فصلت : ﴿ **وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون** ﴾(1) .

وقيل إن المراد بالتمتع : تمتعهم بدنياهم لمدة الأيام الثلاثة التى أوعدهم صالح بالعذاب عقبها ، وأوعدهم بتغير ألوان وجوههم فيها .

وعلى هذا الرأى فالأمر بالتمتع كان بعد عقرهم الناقة ، ومدة التمتع ثلاثة أيام .

ويؤيد هذا قوله تعالى فى سورة هود عليه السلام : ﴿ **تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام** ﴾(2) ، أما قوله تعالى هنا : ﴿ **فعتوا عن أمر ربهم** ﴾ فمعناه على هذا الرأى : فاستمروا بعد الوعيد على عتوهم وصلفهم وزادوا فيه .

والمقصود بـ ﴿ **أمر ربهم** ﴾ : أمرهم بتوحيده وطاعته وطاعة

---

(1) سورة فصلت ١٧ — (2) سورة هود عليه السلام ٦٥

نبيهم ومحافظتهم على ناقة الله .

وهؤلاء لما عصوا نبيهم صالحا ونبذوا دعوته ووقفوا فى طريقها وازدادوا طغيانا وإيذاء ، وكفرا وإباءا ، وسخرية وازدراء ، أهلكهم الله بالصاعقة وهم ينظرون بعد إمهالهم ثلاثة أيام لعلهم يرعوون أو يحدث الوعيد لهم ذكرا .

معنى الصاعقة وما ورد فيها من قراءات متواترة

و « الصاعقة » قرأها الكسائى « الصعقة » بإسكان العين وبدون ألف بعد الصاد ، وقرأها باقى القراء العشرة بألف بعد الصاد وبكسر العين (١) .

والمراد بها العذاب الذى أهلكهم ودمرهم ، وقيل إنها نار هبطت من السماء وصحبها رعد شديد وصوت هائل فأحلت بهم وأهلكتهم .

المقصود بالنظر

وجملة : « وهم ينظرون » جملة حالية محلها النصب ، وإختلف العلماء فى هذا الفعل فقيل إنه من النظر لأن الصاعقة حلت بهم نهارا وهم ينظرون إليها ويبصرونها بأعينهم .

وهذا يدل على غاية ضعفهم ، وخوار قواهم ، ووهن أبدانهم ، وعدم قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم ، أو الفرار ، وعلى استسلامهم وإستكانتهم ، وهذا يشبه قولك لشخص : « فلان يضربك وأنت واقف تنظر إليه » : تريد أنه ضعيف لا يقوى على الدفاع عن نفسه ، غير قادر على رد أذى خصمه .

وقيل إن « ينظرون » من الانتظار لأن صالحا عليه السلام

---

(١) أنظر حجة القراءات لأبى زرعة صـ ٦٨٠ ، والنشر فى القراءات العشر لابن الجزرى جـ ٢ صـ ٣٧٧ ، وإتحاف فضلاء البشر للدمياطى صـ ٣٩٩ .

أنذرهم بالعذاب وأخبرهم بموعده وزمانه بعد ثلاثة أيام فكانوا منتظرين حلوله بهم .

وهو يدل على عذابهم النفسى والبدنى فإن إنتظار العذاب عذاب ، كما يدل على منتهى الغباء والجهل والبلادة ، والعناد والسفاهة ، لأن صالحا عليه السلام حدد لهم موعد العذاب وأخبرهم بعلامات تقع علامة منها فى كل يوم من الأيام الثلاثة ، فكان الواجب — لو كانوا عقلاء يبغون الحق — أن يصدقوه ويؤمنوا به ، ويبادروا بالتوبة والأوبة إلى الله ، ويندموا على ما فاتهم وضيعوه ، ولا يستمروا فى طغيانهم وجحودهم إلى لحظة حلول العذاب والبوار بهم وبديارهم .

ويدل كذلك على أنهم أخذوا أهبتهم ، وأعدوا عدتهم ، وإحتاطوا لأنفسهم ، ومع ذلك أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وإن أخذه أليم شديد ، فلم يأخذهم على غفلة أو غرة ، أو يوقع بهم العذاب بغتة ، وإنما أوعدهم الله بالعذاب وعين موعده لهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى عبدوها من دون الله ، وأهبتهم التى أعدوها من شىء لما جاء أمر ربك ، ومازادهم ذلك إلا هلاكا ودمارا ، وخزيا وبوارا .

﴿ **فما إستطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين** ﴾ :

صلة الآية بما قبلها

وهذه الآية الكريمة متصلة بما قبلها إذ الفاء فى قوله « فما » للفصيحة أفصحت عن معطوف عليه مقدر أى عجزوا عند نزول العذاب بهم فلم يستطيعوا دفعه ، فهى آية مكملة لقصتهم ومبينة لحالتهم وقت حلول العذاب بهم وأنهم كانوا فى ذهول واستسلام تام وهو استسلام يائس بائس ، فلم يستطيعوا حماية أنفسهم ودفع العذاب عنهم بأى شىء ، لا بأنفسهم ولا بمعاونة غيرهم .

المقصود بالقيام

وهذه الآية الكريمة تتكون من جملتين : الجملة الأولى قوله تعالى : ﴿ **فما استطاعوا من قيام** ﴾ ، وهى جملة تبين عجزهم الكامل عن الفرار والهرب من العذاب لأن السين والتاء للطلب ، فهم يطلبون من أنفسهم القدرة على درء العذاب فلا يجدونها ، و « من » حرف جر زائد من حيث الإعراب لا من حيث المعنى ، فوجوده يزيد المعنى بلاغة وقوة .

وليس المقصود بالقيام : الوقوف والإنتصاب ، بل المقصود به هنا : القيام بالشيء وتحمله والنهوض به ، من قولك : قام فلان بكذا أى تحمله ونهض به وأخذ فيه ، فهو من باب المجاز لأن عدم القيام بالشيء لازم لعدم القيام بمعنى عدم الوقوف ، فهو مجاز علاقته اللازمية والملزومية ، والقرينة حالية .

والجملة الثانية قوله تعالى : ﴿ **وماكانوا منتصرين** ﴾ أى وما كانوا منتصرين على العذاب بغيرهم ، وذكر الكينونة هنا يفيد المبالغة .

فهذه الآية الحكيمة وصفت حالتهم إبان حلول العذاب بهم على سبيل المبالغة ، والمبالغة فى القرآن المجيد حقيقة ووصف مطابق للواقع ، وليست خيالا ولا إدعاء ، فهم عجزوا عجزا كاملا عن درء العذاب عن أنفسهم بأى وسيلة ، فلم يقووا على مجرد القيام ، ولا على الفرار أو الهرب ، أو اتخاذ أى طريقة تقيهم العذاب المحيط والمحدق بهم وتحقق لهم النجاة ، وما انتصروا بغيرهم على دفعه ، ولو طلبوه من غيرهم ما إستطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وصدق الله العلى العظيم فى قوله عنهم فى سورة هود عليه السلام : ﴿ **وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا**

ربهم ألا بعدا لثمود ﴾[1] .

فسبحان الله العزيز الجبار ، المنتقم القهار .

موقف المسلم من ديار ثمود

هذا ، وينبغى أن لا يذهب المسلم إلى ديار ثمود والمنطقة التى حل بها العذاب ، فإن ذهب فعليه أن يكون باكيا معتبرا ، وأن لا يتناول شيئا مما يجده هناك ، وأن يعجل بمغادرة المكان عملا بأمر رسول الله ﷺ ونصحه ، ففى أثناء ذهابه إلى غزوة تبوك فى العام التاسع من الهجرة مر بأصحابه بديار ثمود بوادى الحجر ، فقنع رأسه ، وأسرع راحلته ، ونهى عن دخول منازلهم إلا أن يكونوا باكين ، وأمرهم أن يسقوا دوابهم من البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، وأمرهم أن يسرعوا خشية أن يصيبهم مثل ما أصابهم ، ولما ملأ بعضهم القدور والآنية من الماء وعجنوا عجينا أمرهم بإراقة القدور وعلف العجين الإبل والدواب .

وهذا من سعة رحمته بأصحابه وأمته ، وعظيم حبه ورأفته ، وكريم أخلاقه ، صلى الله تعالى عليه وسلم .



(١) سورة هود عليه السلام ٦٧ ــ ٦٨

موقف قوم نوح عليه السلام من رسالته وعاقبتهم

قال الله تعالى :

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (٤٦)

نبذة عن نوح عليه السلام وعن قومه وموقفهم وجزائهم

نوح هو : نوح بن لامك ، يتصل نسبه بإدريس نبى الله عليه السلام ، وإدريس جده الثانى ، ويسمى إدريس بأخنوخ ، ونوح هو النبى الثالث فى البشرية بعد آدم وإدريس عليهم السلام ، وهو أول الرسل إلى أهل الأرض ، وروى عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام[1] .

نشأ نوح عليه السلام فى وسط قومه الذين ضلوا عن الهدى وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت ويتخذونها آلهة من دون الله وهى : ود ، و سواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر[2] .

---

(١) أنظر قصص الأنبياء لابن كثير صـ ٧٤ ـــ ٨٥ .

(٢) وأسماء هذه الأصنام فى الأصل أسماء لرجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا زين الشيطان لقومهم أن ينصبوا فى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا ويسموها بأسمائهم حبًا لهم ، ففعلوا ولم تعبد ، فلما مضى الزمان وهلك من نصبوها وانتسخ العلم عبدت من دون الله واتخذوها آلهة واستسقوا بها المطر ، ثم سرت عدواها فى الأمم وانتقلت إلى العرب فيما بعد ، كما حكى ابن عباس ، وعكرمة مولاه ، والضحاك ، وقتادة بن دعامة ، وغيرهم =

وشب نوح عليه السلام وترعرع طاهرا مطهرا مبتعدا عما يراه من قومه ويفعلونه ، ثم إجتباه الله للنبوة والرسالة وهو فى سن الأربعين — كما يقال — فدعا قومه إلى عبادة الله وحده ، وذكرهم بنعم الله عليهم وما حباهم به من آلاء ، وأنذرهم عذابه الأليم إذا خالفوه وتمادوا فى ضلالهم ، وبين لهم سوء مسلكهم فى العبادة وأنه بتبليغه رسالة ربه لا يطلب منهم أجرا من مال أو سلطان أو جاه ، وإنما الذى يطلبه منهم هو الإقرار بوحدانية الله وإفراده بالعبادة وإتباع ما يأمر الله به وإجتناب ما ينهى عنه .

ولكن قومه كذبوه وإحتقروه وتمالأوا على بغضه ومحاربته ومجانبة دعوته .

وإستمر فى دعوتهم بالترغيب والترهيب بمختلف السبل ، وإقناعهم بمتنوع الوسائل ، وإقامة الحجة عليهم بشتى الطرق ، حتى قالوا له : ﴿ **يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا** ﴾(١) .

ولم ييأس نوح عليه السلام من فرارهم منه وتحرزهم عنه ، فظل يدعوهم إلى الله بلا قنوط ، فآمن به عدد قليل من ضعفاء قومه ، أما الأكثرون من قومه فأصروا على كفرهم وإستكبروا إستكبارا وبدأوا فى التمحلات والتعلات فطلبوا منه أن يطرد من مجلسه ومن دينه من آمن به من الضعفاء ، ووصفوهم بالأراذل أنفة وتقززا واشمئزازا منهم وإزدراء لهم حتى لا يجتمعوا معهم فى مجلس واحد ولا يجمعهم دين واحد ،

=رضى الله عنهم ورحمهم : أنظر صحيح البخارى كتاب التفسير تفسير سورة نوح عليه السلام جـ ٦ صـ ١٩٩ وجامع البيان للطبرى جـ ٢٩ صـ ٩٩ وقصص الأنبياء لابن كثير صـ ٨٣ — ٨٤ .

(١) سورة هود عليه السلام ٣٢

ولكن نوحا عليه السلام أبى تلبية طلبهم وعرف أنه مجرد تمحل وتعلل ، وأخبرهم أنه سبب لعقاب الله وسخطه وغضبه ومقته ، ووصفهم بالجهل والعمى (١) .

وإستمر قوم نوح عليه السلام على جمودهم ، وتمادوا فى كفرهم وطغيانهم ، وإتهموه بأنه مجرد بشر مثلهم لا يمتاز عنهم بشىء ، وكذبوه وعاندوه وأخبروه أنهم لن يتركوا عبادة الأصنام ولن يتبعوا ما جاءهم به ، وطلبوا منه أن ينزل عليهم العذاب الذى توعدهم به وأن يستعجله .

فلما عاش نوح فيهم يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما ، وطفح الكيل ونفد صبره عليهم ولم يؤمن به إلا عدد قليل وهم ستة نفر ، وقيل أربعة عشر رجلا ، وقيل أربعون رجلا وامرأة ، وأوحى الله إليه : ﴿ **لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون** ﴾(٢) دعا الله عليهم بقوله : ﴿ **رب إن قومى كذبون ، فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين** ﴾(٣) ﴿ **رب انصرنى بما كذبون** ﴾(٤) ، ﴿ **إنى مغلوب فانتصر** ﴾(٥) ، ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا** ﴾(٦) .

واستجاب الله دعاءه وأخبره أن عذابه نازل بهم ، وأمره أن

---

(١) طلب مشركو مكة نحو هذا الطلب من رسول الله ﷺ فنهاه ربه عن تلبية طلبهم كما فى سورة الأنعام ٥٢ وسورة الكهف ٢٨ .
(٢) سورة هود عليه السلام ٣٦ (٣) سورة الشعراء ١١٧ ـــ ١١٨
(٤) سورة المؤمنون ٢٦ (٥) سورة القمر ١٠
(٦) سور نوح عليه السلام ٢٦ ـــ ٢٧

يصنع سفينة لينجو بها من العذاب هو ومن معه من المؤمنين ، وهى سفينة عظيمة لم يكن لها نظير من قبل .

بيوت الأنبياء معصومة من الزنا

وفى أثناء صنعه للسفينة كانوا يسخرون منه ويهزأون به وبما يصنعه ، ويصفونه بالجنون ، وكانت ، زوجته كافرة به كافرة بنعمة العشير جاحدة لحق الزوجية خائنة ، اسمها : والغة ، ومثلها إمرأة لوط عليه السلام واسمها : والهة[1] .

كانت المرأتان خائنتين ، وليست خيانتهما خيانة عرض وشرف لأن بيوت الأنبياء معصومة من الزنا مصونة من الفاحشة والخنا ومن كل شىء منفر ويصل أثره إلى سمعتهم وينفر أتباعهم منهم ومن دعوتهم ، ولذا قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : مازنت إمرأة نبى قط » ، فخيانة المرأتين كانت كفرا بالرسالة وبنعمة العشير .

فامرأة نوح كانت كافرة به وبرسالته ، وتصفه بالجنون وتسخر منه كعادة قومها معه .

وامرأة لوط كانت كافرة به وبرسالته ، وترضى بتصرف قومها وسوء سلوكهم ، وقبيح فعلهم .

والمطلوب من الزوجة أن تكون سندا لزوجها فى الخير ومعوانة له على البر وطاعة الله ، وإذا كان هذا مطلوبا فى سائر الأزواج اللائى يقترن بأزواج عاديين فما بالك بأزواج النبيين والمرسلين حملة الدعوات الإلهية والرسالات السماوية ، إن ذلك مطلوب منهن ومفروض عليهن أكثر من غيرهن ، وصدق الله فى قوله فى سورة الأحزاب : ﴿ **يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين**

---

(١) أنظر قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٣٥ .

وكان ذلك على الله يسيرا ، ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما ، يا نساء النبى لستن كأحد من النساء .. ﴾[1] .

فخيانة هاتين المرأتين كانت فى الدين ، وليست فى عرضهما وشرفهما .

وكان قومه يسخرون من صنعه للسفينة ، وكان هو يسخر منهم لعنادهم له وغفلتهم عن الحق وعدم إيمانهم به وصلفهم وغرورهم .

ولما تم صنع السفينة وحان وقت وقوع العذاب أمره الله أن يحمل معه فى السفينة أهله والمؤمنين به إلا زوجته وإبنه الذى شفع له عند الله بحنان الأب فلم يتقبل الله بعدله شفاعته فيه إذ كان ولدا كافرا وأبى الإيمان برسالة والده ومجرد ركوب السفينة معه ، فكان ولدا عاقا عديم البر والإحسان ، وإسمه : « يام » ، ويسميه أهل الكتاب : كنعان ، وأمره كذلك أن يحمل معه فى السفينة من كل نوع من الحيوان والطيور والوحوش ونحوها زوجين إثنين لبقاء النسل .

ولما نفذ نوح عليه السلام ذلك وحقق ما أمر الله تعالى به واستوى على السفينة هو ومن معه ودعا الله بالخير وأثنى عليه بما هو أهله حل بقومه العذاب وهو الطوفان : فتح الله أبواب السماء بماء منهمر ، وفجر الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر ، ونجى الله نوحا ومن كانوا معه فى السفينة التى جرت بعناية الله وكلاءته ، ثم إنحسر الطوفان بأمر الله تعالى فأمر الأرض أن تبلع الماء ، والسماء أن تقلع عن إنزاله ، وبدأت الأرض فى الجفاف ، وتم هلاك الظالمين الباغين من

---

(١) سورة الأحزاب ٣٠ ــ ٣٤

قومه ، ونجاة نوح ومن معه ، وإستوت السفينة على الجودى — وهو جبل بأرض الجزيرة — ، وهبط منها نوح بسلام من الله وبركات عليه وعلى أمم ممن معه .

وإختلف العلماء فى الطوفان فيرى بعضهم أنه كان عاما أى عم الأرض كلها ، ويرى بعضهم أنه كان خاصا أى اقتصر على أرضه التى عاش عليها هو وقومه .

فياله من يوم عظيم ومشهد فخيم لا يقادر قدرهما ولا يعرف هولهما . ويقال إن نوحا عليه السلام عاش بعد الطوفان قرابة ستين سنة .

وذكر الله تعالى قصة نوح عليه السلام وموقف قومه منه فى سورة الأعراف فى الآيات ٥٩ — ٦٤ وسورة يونس عليه السلام فى الآيات ٧١ — ٧٣ وسورة هود عليه السلام فى الآيات ٢٥ — ٤٩ وسورة الأنبياء فى الآيتين ٧٦ — ٧٧ وسورة المؤمنون فى الآيات ٢٣ — ٣١ وسورة الفرقان فى الآية ٣٧ وسورة الشعراء فى الآيات ١٠٥ — ١٢٢ وسورة العنكبوت فى الآيتين ١٤ — ١٥ وسورة الصافات فى الآيات ٧٥ — ٨٢ وسورة الذاريات فى الآية ٤٦ وسورة القمر فى الآيات ٩ — ١٦ وسورة نوح عليه السلام كلها .

قال تعالى : ﴿ **وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين** ﴾ :

صلة الآية بما قبلها

وهذه الآية الكريمة مرتبطة بما قبلها إرتباطا لفظيا ومعنويا ولذا عطفت بالواو .

توجيه القراءات التى فى كلمة « قوم »

وقرىء لفظ « قوم » بالجر والنصب والرفع :

فعلى قراءة الجر — وهى لأبى عمرو وحمزة والكسائى وخلف —

يكون لفظ « **قوم** » **معطوفا على لفظ** « **ثمود** » **بإعتباره أقرب مذكور** ، **ويقوى هذا العطف قراءة عبد الله** بن مسعود رضى الله عنه : وفى **قوم** نوح ، وهى قراءة شاذة ، وقيل فى إعرابه على قراءة الجر غير ذلك من الأوجه الإعرابية المرجوحة . وعلى قراءة النصب — وهى لباقى القراء العشرة —[1] يكون مفعولا لفعل مقدر يفهم من سياق الآيات تقديره : وأهلكنا قوم نوح كذلك ، أو يكون الفعل المقدر : إذكر ، أى اذكر قوم نوح وموقفهم وعاقبتهم ، والمخاطب هو رسول الله ﷺ وكل من هو أهل للمخاطبة ، أو يكون معطوفا على الضمير المنصوب محلا فى قوله تعالى فى شأن فرعون ومن معه من الكفرة ﴿ **فنبذناهم فى اليم** ﴾ باعتبار أن فرعون ومن معه غرقوا كما غرق قوم نوح بالطوفان ، فالفريقان يجمعهم الغرق بالماء وإن اختلفت الكيفية ووسيلة الغرق ، وهذا الوجه الإعرابى أقل فى الأولوية من الوجهين السابقين لبعد المعطوف عليه .

وعلى قراءة الرفع وهى قراءة شاذة لأبى السمأل وابن مقسم — يكون لفظ « **قوم** » مبتدأ ، وخبره مقدر أى وقوم نوح أهلكناهم من قبل ، وتكون جملة : ﴿ **إنهم كانوا قوما فاسقين** ﴾ تعليلية ، أو خبره جملة : إنهم كانوا قوما فاسقين ويكون محلها الرفع .

وهذه الآية الكريمة تجمل قصة أخرى لقوم كفروا بنبيهم نوح عليه السلام ونكصوا عن دعوته وكفروا بها وآذوه ، فأهلكهم الله بذنوبهم وبظلمهم لأنفسهم ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

---

(١) أنظر حجة القراءات لأبى زرعة ص ٦٨٠ ، ٦٨١ ، والنشر لابن الجزرى جـ ٢ ص ٣٧٧ وإتحاف فضلاء البشر للدمياطى ص ٤٠٠ .

معنى الفسق

والتعبير القرآنى بكلمة « كانوا » باعتبار سبقهم الزمنى وتقدمهم على غيرهم من الأقوام المذكورين فى السورة ، وتفيد هذه الكلمة كذلك : تأصل الفسق فيهم وملازمتهم له وعدم تخليهم عنه .

والفسق هو : الخروج عن الأمر ، ومنه قوله تعالى فى شأن إبليس فى سورة الكهف بعد إبائه السجود لآدم عليه السلام : ﴿ ... **ففسق عن أمر ربه** ﴾[1] أى خرج ، ويقال : فسقت الرطبة : أى خرجت عن قشرتها .

فقوم نوح عليه السلام خرجوا عن أمر ربهم وعصوا رسوله المرسل إليهم والمختار من بينهم ، وظلوا عاكفين على كفرهم مكبين على معاصيهم مستمسكين بضلالهم وطاغوتهم إلى أن يئس من إيمانهم نبيهم الناصح الأمين فاستحقوا الهلاك بعد أن أعذرهم وأنذرهم وبذل مافى وسعه من نصح لهم .

ترتيب القصص المذكور هنا مخالف لترتيبه فى سور أخرى

هذا ، ونلاحظ أن القصص المذكور فى هذه السورة أوجزه الله إكتفاء بذكر موضع العبرة ومكمن الدليل على صدق رسول الله ﷺ ، ورتبه الله هنا ترتيبا يختلف عن ترتيبه فى بعض السور الأخرى لحكم سامية :

فقصة لوط قرنت بقصة إبراهيم مع ضيوفه عليهم السلام لأن لوطا كان فى زمنه وهو ابن أخيه ، أو عمه ، وسبق ذكر الحكمة فى تقديم قصة إبراهيم عليه السلام .

وقدمت قصة لوط مع قومه على قصة موسى مع فرعون لأنها أمكن فى التخويف من غيرها وأبلغ فى التهديد فإن عذاب قوم لوط قد

---

(١) سورة الكهف ٥٠ .

شاهد أهل مكة مثله ينزل على أصحاب الفيل .

وقدمت قصة موسى على قصة عاد وثمود لأنها أبلغ فى تسلية الرسول ﷺ وفيها مايدعو الرسول ﷺ إلى التأسى به .

وقدمت قصة عاد على ثمود لأنهم كانوا قبلهم زمانا كما قال تعالى حكاية لقول نبيهم صالح فى سورة الأعراف : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد** ﴾(1) .

وأخرت قصة نوح مع قومه فى الذكر رغم أنهم متقدمون زمانا عن الأقوام المذكورين من قبل فى هذه السورة لأن من مقاصد ذكر القصص فى القرآن تسلية النبى ﷺ والمؤمنين به والتسرية عنه بدليل قوله فى أواخر هذه السورة : ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾ ، وقصة نوح عليه السلام أعظم هذه القصص فى التسلية وتعد أكبر زاد لرسول الله ﷺ وأصحابه وأجمع لأطراف العظات والعبر ، فقد عاش نوح قرونا يدعو قومه إلى الله ويلح فى دعوتهم وما آمن معه إلا قليل يعدون على الأصابع كما تقدم .

وفى هلاك قومه بالماء الذى فار من التنور الذى يخبز فيه ومن غيره(2) ، وبالماء الذى انهمر من السماء حتى عمهم الطوفان وغشيهم وأغرقهم ذلك الكرب العظيم فأدخلوا نارا عبر وآيات تدل على وحدانية الله وقدرته على مايشاء وإتصافه بما هو أهله .

من فوائد ذكر القصص القرآنى

فذكر القصص يسلى رسول الله وأصحابه والمؤمنين به ويعطيهم شحنة روحية وثباتا على الحق واستمساكا بالصبر ومضيا فى الدعوة إلى

(1) سورة الأعراف ٧٤ .

(2) التنور : وجه الأرض كما قال على رضى الله عنه وكرم وجهه ، فالماء نبع من سائر أرجاء الأرض ووجهها حتى إنه نبع من التنانير التى يخبز فيها والتى هى محال النيران .

الله بهمة ونشاط وعزم وثبات ووثوق فى رحمة الله ونصره وإقتداء بهؤلاء الأنبياء والمرسلين : ﴿ **حتى إذا إستيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين** ﴾(١) .

وذكرها أيضا يرهب الكافرين ويرعبهم ، ويملأ قلوبهم فزعا وهلعا أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة الغابرة الكافرة ، فقد دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها .

ولذا ختم الله قصة قوم لوط الذين أهلكوا بالحجارة بقوله فى سورة هود عليه السلام : ﴿ **وماهى من الظالمين ببعيد** ﴾(٢) ، وختم قصة عاد قوم هود عليه السلام بقوله فى سورة الأحقاف ﴿ **كذلك نجزى القوم المجرمين** ﴾(٣) ، وقال عن الكافرين والمؤمنين فى سورة يونس عليه السلام : ﴿ **فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ، ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين** ﴾(٤) ، وغير ذلك من الآيات .

وهكذا نرى فى قصصهم عبرة لأولى الألباب وأصحاب النهى ، وكلها حقائق ثابتة ، ووقائع ماثلة ، وأعظمها فى الآيات والعبر قصة نوح عليه السلام ، فعلى الرغم من إجمالها ووجازتها هنا تعد مسك الختام ، فى تسلية خير الأنام ، وأصحابه العظام ، والمؤمنين به على مر الأعوام ، ولذا أخرت .

على نوح وسائر الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة وأزكى السلام .

---

(١) سورة يوسف عليه السلام ١١٠ .
(٢) سورة هود عليه السلام ٨٣ .
(٣) سورة الأحقاف ٢٥ .
(٤) سورة يونس عليه السلام ١٠٢ — ١٠٣ .

من مظاهر عظمة الله عز وجل

قال الله تعالى :

وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾

صلة الآيات بما قبلها

وهذه الآيات متصلة بما قبلها إتصالا لفظيا ومعنويا ، فلفظ « السماء » منصوب لفعل مقدر يفسره الفعل المذكور أى مفعول به والجملة من باب الإشتغال وهى جملة فعلية معطوفة على جملة مقدرة فى الآية السابقة : أى أهلكنا قوم نوح وبنينا السماء بنيناها

وقيل فى إعرابها غير ذلك .

وقرأ بعضهم — كأبى السمأل وابن مقسم ومجاهد — « السماء » بالرفع على أنها مبتدأ خبره جملة « بنينا » وهى قراءة شاذة .

فالله عز وجل بعد أن ذكر بعض قصص الأنبياء مع أممهم تسلية لرسوله محمد ﷺ والمؤمنين ، وتخويفا لأعدائهم الكافرين

وتهديدا لهم ، أقام الدليل على وحدانيته وكمال قدرته ونفاذ إرادته وإحاطة علمه بكل شيء ، فذكرهم ببنيان السماء وخلقها ، وتذليل الأرض وفراشها ، ولفت أنظارهم إلى ما فيهما من آيات دالة على وحدانيته وكماله وجلاله ، وأن من قدر على رفع السماء بغير عمد ، وبسط الأرض على سعتها ، وإيداع مافيهما من العجائب والمخلوقات ، فهو أقدر على إعادتهم وبعثهم بأرواحهم وأجسادهم للحساب والجزاء وإنزال العقاب بهم ، وهم يعلمون أن الله هو خالق السماوات والأرض ، ومسخر الشمس والقمر ، ورازقهم ، ومالك السمع والأبصار ، ومخرج الحي من الميت ، والميت من الحي ، ومنزل الماء من السماء ، ومحيي الأرض بعد موتها ، ومدبر الأمر ، وأن معبوداتهم لا تملك شيئا من ذلك ، كما أخبر الله في آيات كثيرة : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله** ﴾ ... ﴿ **ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله** ﴾ (١) ، وغير ذلك من الآيات البينات .

ولذا قال تعالى في سورة غافر : ﴿ **لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾(٢) ، وفي سورة يس : ﴿ **أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم** ﴾(٣) ، وفي سورة لقمان : ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة** ﴾(٤) .

سر تقديم المفعول

وقدم المفعول في الجملتين في قوله : ﴿ **والسماء بنيناها ، والأرض فرشناها** ﴾ للدلالة على المعنى المراد بسرعة ، والمبادرة بذكره ولفت نظر السامع إليهما من أول الأمر إذ الآيات سيقت للدلالة على

(١) سورة العنكبوت ٦١ – ٦٣ . (٢) سورة غافر ٥٧ .
(٣) سورة يس ٨١ . (٤) سورة لقمان ٢٨ .

عظمة الله وقدرته وسلطانه ووحدانيته فعظم السماء والأرض وما فيهما يدل على عظم الخالق والمبدع .

المراد بالسماء والبناء

والسماء فى اللغة : كل ما علاك وأظلك ، والمراد بها هنا : الجرم العلوى المخصوص الدال على قدرته تعالى وكمال ذاته وصفاته وأفعاله ، وأل فيها للجنس إذ المقصود بها السماوات السبع بما فيها ومن فيها .

وكلمة « بنى » فعل ماض مشتق من البناء ، وبابه : رمى ، يقال : بنى يبنى بنيا ، كرمى يرمى رميا ، ويقال : بناء وبنيانا .

والمقصود ببنائها : إحكام خلقها ، وإرتفاعها بغير عمد ، وتسويتها ، وتزيينها بالكواكب والنجوم التى كالمصابيح ، ووجود الملأ الأعلى فيها ، وعدم تغيرها ، وانتفاء تأثرها على مر العصور وكر الدهور ، وبقاءها محكمة بلا خلل أو فطور ، على الرغم من وجود أبواب فيها ، ولذا قال تعالى فى صدر هذه السورة ﴿ **والسماء ذات الحبك** ﴾ ، وقال فى سورة النبأ : ﴿ **وبنينا فوقكم سبعا شداد** ﴾[1] ، وقال فى سورة النازعات : ﴿ **أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها** ﴾[2] .

ووصفت « السماء » بالبناء فى آيات كثيرة ، وهو وصف أليق بحالها وأوفق .

فائدة ذكر نون العظمة

وذكر نون العظمة فى الآيات للدلالة على عظمته تعالى فالعظيم لا يصدر عنه إلا العظيم .

---

(١) سورة النبأ ١٢ .
(٢) سورة النازعات ٢٧ — ٢٩ .

معنى أيد والمراد بها

وكلمة « بأيد » جار ومجرور متعلق بقوله : « بنيناها » والباء للسببية ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف يقع حالا من فاعل « بنيناها » أو من المفعول وتكون الباء للملابسة أى بنيناها حال كوننا ملتبسين بقوة وقدرة ، أو حال كونها ملتبسة بقوتنا وقدرتنا .

و « أيد » : مصدر يقال آد الرجل يئيد أيدا ، كباع يبيع بيعا : إذا قوى وإشتد ، فالأيد والآد بمعنى القوة والشدة ، ومنه قوله تعالى فى سورة ص : ﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد** ﴾ ، ﴿ **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار** ﴾(1) .

ويجوز أن يكون جمعا مفرده يد ، وهنا يختلف السلف والخلف :

فالسلف يثبتون لله تعالى ما أثبته لنفسه من صفات بلا تمثيل ولا تعطيل ولا تكييف ، فيمرون مثل هذه الآية كما وردت ، ويصفونه بما وصف نفسه به ويكلون علمها إليه تعالى مع تنزيه عن مشابهته للحوادث .

وورد فى القرآن مجيؤها مفردة : ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾(2) ، ومثناة : ﴿ **مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى** ﴾(3) ، وجمعا كما هنا وكما فى سورة يس : ﴿ **أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما** ﴾(4) .

أما الخلف فيقولون إن المراد هنا : القوة العظيمة والقدرة الباهرة

---

(1) سورة ص ١٧ — ٤٥ .
(2) سورة الفتح ١٠ .
(3) سورة ص ٧٥ .
(4) سورة يس ٧١ .

التامة ولذا جمع اللفظ ، فالكلام من باب المجاز المرسل من إطلاق الملزوم وإرادة اللازم إذ يستحيل وصف الله بهذا الوصف الحادث وفهم الكلام على ظاهره ، فاليد باعتبارها مصدر الأفعال والمزاولة لها أطلقت وأريد منها لازمها وهو القدرة الكاملة والقوة التى لاحدود لها .

المراد بالإيساع

وجملة « وإنا لموسعون » حالية من الفاعل أو المفعول ، وكلمة « موسعون » من أوسع ، وهو لفظ يستعمل متعديا ولازما .

أى لموسعون بناءها بمعنى : جاعلوها واسعة تسع ما تحتها وتكون سقفا له فالله تعالى بعد أن ذكر أنه بنى السماء بقوته وقدرته ذكر أنه خلقها واسعة تسع الأرض وما فيها حتى إن الأرض بكل ما عليها بالنسبة إلى السماء كحلقة فى فلاة أو كنقطة وسط الدائرة ، وقد نطق العلم الحديث بما يشير إلى أن هذه الآية معجزة من معجزات القرآن العلمية حيث أثبت أن الفضاء يتسع كلما كان الصعود إلى أعلى ، وأن الكون العلوى فى تمدد وتوسع مطرد ، وأن فى السماء مئات الملايين من المجرات ومئات الملايين من النجوم التى لا يحصيها إلا الله .

وهذا يدل على عظمة الله وقدرته فإن المهندسين البنائين إذا عزموا على بنيان قبة واسعة إلى حد ما فإنهم يحارون فى رسم أعمدتها التى تحملها ، وتحديد مسافتها التى تتحملها ، وكيفية إستدارتها ، وتماسك أجزائها ، وإمكان بقائها ومدى مكثها ، وهذه السماوات على اتساعها الهائل مرفوعة بغير عمد وباقية كذلك منذ خلقها إلى قيام الساعة ، ففيها من الدلائل على عظمة الله ما يبهر العقول ويجعل أصحابها مسلمى وجوههم لله بإخلاص وصدق .

ويجوز أن يكون المعنى : لموسعون ما بينها وبين الأرض ،

والمسافة بين السماء والأرض وبين كل سماء وأختها لا يعلمها على الحقيقة إلا الخالق جل وعلا .

ويجوز أن يكون المعنى : لموسعون الرزق على العباد ، كما قال فى أوائل السورة ﴿ **وفى السماء رزقكم وما توعدون** ﴾ .

ويجوز أن يكون المعنى : لموسعون أى نحن أغنياء قادرون ، من أوسع الرجل إذا صار ذا غنى وقدرة ، ومنه قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **على الموسع قدره** ﴾(١) ، أى القوى على الإنفاق ، فإن السعة تأتى بمعنى : الغنى ، والقوة،والقدرة ، والطاقة ، لأنها من باب المشترك اللفظى .

لاتعارض بين الأقوال

والآية الكريمة تحتمل هذه المعانى كلها وتندرج تحت عمومها وشمولها ولا تنافى بينها . ﴿ **والأرض فرشناها فنعم الماهدون** ﴾ :

صلتها بما قبلها

وهذه الآية معطوفة على الآية السابقة وهى مقابلة لها إذ الأرض تقابل السماء ، وكثيرا ما يقترنان فى الذكر فى القرآن الكريم ، ويقال فى إعراب هذه الآية ما قيل فى السابقة .

وهى آية أخرى سيقت للدلالة على عظيم قدرة الله ووحدانيته وسعة علمه بكل شىء .

المقصود بالأرض والفرش

والمقصود بالأرض هنا : الجرم السفلى الذى نعيش عليه بما فيه من ظهر وبطن ، و « فرش » من باب نصر ، أى مهدناها وبسطناها كما قال تعالى فى سورة نوح عليه السلام : ﴿ **والله جعل لكم الأرض بساطا** ﴾(٢) ، وفى سورة النبأ : ﴿ **ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال**

---

(١) سورة البقرة ٢٣٦ وأنظر سورة الطلاق ٧ .

(٢) سورة نوح عليه السلام ١٥

أوتادا ﴾(١) .

الأرض جامعة بين الانبساط والتكور ولا تعارض بين الآيات

ووصف الأرض فى آيات بأنها مبسوطة ومفروشة ومهاد دليل على اليسر والراحة والعناية ولا ينافى ما جاء فى آيات أخرى من إشارة إلى تكورها كقوله تعالى فى سورة الزمر : ﴿ **يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر** ﴾(٢) .

لأن الأرض جامعة بين الانبساط والتكور ومنبعجة عند خط الاستواء وتشبه البيضة ، فالأرض مبسوطة فى نظر العين ولسعتها يتم الإنتفاع بها ولا يظهر للعين المجردة كرويتها ، وكرويتها لا تنافى بسطها وبسطها لا ينافى كرويتها لأنها جامعة بينهما معا ، ولذا عظم الإنتفاع بها وكانت آية كبرى من آيات الله .

وأخطأ من قال من العلماء القدامى إنها مبسوطة تمام البسط ، ومن قال إنها مكورة تمام التكور ، ولهم عذرهم لأن العلم لم يكن تطور فى عهدهم ولم تتوفر لزمانهم آلات تطوره ووسائله .

والأرض تدور حول نفسها وحول الشمس وهى ممسوكة كالسماء بقدرة الله كما قال تعالى فى سورة فاطر : ﴿ **إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده** ﴾ : الآية(٣) .

معنى الماهدون وبيان المقصود بالجملة

و « الماهدون » جمع ماهد من مهد الأمر أو الشىء بمعنى : سواه وأصلحه ، وهو من باب : نفع أى مهد يمهد ، ومنه قوله تعالى فى سورة الروم : ﴿ **ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون** ﴾(٤) .

---

(١) سورة النبأ ٦ ٧ .
(٢) سورة الزمر ٥ .
(٣) سورة فاطر ٤١ .
(٤) سورة الروم ٤٤ .

والمقصود بهذه الجملة المشتملة على المدح : تذكير العباد بمنن الله ونعمه عليهم ، ورحمته بهم ، وإستحقاقه للعبادة والشكر ، ليقوموا بشكره على هذه المنن والنعم ، وقد شكر الله نفسه وأثنى على نفسه فى الأزل لعلمه أن الخلق لا يطيقون شكره ، ولا يوفونه حقه فى الثناء والحمد ، والتعظيم والمجد .

الأرض مخلوقة قبل السماء

ولا تظن — أخى القارىء — من تقديم السماء على الأرض فى الآيتين المذكورتين وفى غيرهما من آيات القرآن الكريم أن السماء خلقت قبل الأرض : لأن المعروف من مجموع الآيات القرآنية والآثار(1) التى تحدثت عنهما أن الأرض خلقها الله أولا غير مدحوة فى يومين ، وقدر الله دحوها ولم يدحها بالفعل ، ثم خلق السماء فى يومين آخرين ، ثم دحى الأرض بالفعل فى يومين ، فكانت أيام الخلق ستة أيام .

ولعل الحكمة فى إستغراق خلق الأرض ودحوها مدة ضعف مدة خلق السماء مع أن السماء أعظم منها :

لفت أنظارنا إلى عظمة الأرض وإهتمام الله بها ، وحفزنا إلى عمارتها واستغلال خيراتها والانتفاع بما فيها وكأنها هى المقصودة

(1) أنظر قوله تعالى فى سورة البقرة ٢٩ : ﴿ هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ثم إستوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ﴾ ، وقوله تعالى فى سورة فصلت ٩ — ١٢ ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض أئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سماوات فى يومين ﴾ ، وقوله تعالى فى سورة النازعات بعد كلامه عن السماء ٢٧ — ٣٣ ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها .. ﴾ وما أثر عن ابن عباس رضى الله عنهما — فى ذلك .

بالذات والأصل فى الكون ، وإظهار منن الله وآلائه على الثقلين الإنس والجن الذين يسكنونها ليدفعهم ذلك إلى عبادة الله وحده والثناء عليه بما هو أهله حيث إنهم يتنعمون فى نعمه الموفورة وهى ملموسة لهم وتحت أيديهم يتقلبون فيها ، وإشارة إلى تعليمنا كيفية البناء والتعمير والاهتمام بالأسس فى كل شىء لنسعد فى حياتنا فإن الأرض بالنسبة إلى السماء بمثابة الأساس بالنسبة إلى البناء والسقف ، فالأرض أساس والسماء سقف ، فكما عنى الله بالأساس ينبغى أن نعنى بالأسس والدعائم فى كل شىء .

فياله من رب رءوف رحيم ، كريم حليم حكيم .

المعنى العام

فالله عز وجل ساق هاتين الآيتين للدلالة على عظمة سلطانه وواسع قدرته وبالغ حكمته ونفاذ إرادته وشمول علمه حيث بنى السماء وأحكم صنعها ، ورفعها بغير عمد ، وجعل فيها ملائكته وأشياء خلقها لا يحيط بها وبملائه الأعلى إلا هو ، وأعطاها خصائص إستحقت أن تكون بها سماء ، وحفظها حفظا كاملا على مر الأزمنة ، وأشار إلى سعتها ، وسعة ما بينها وبين الأرض ، وما بين كل سماء وأختها ، وإلى غناه عن خلقه ، وإلى باهر قدرته .

وحيث مد الأرض وبسطها ، وغمرها بالنعم والخيرات الظاهرة والباطنة ، وجعلها مستقرا لخلقه ومتاعا إلى حين ، وهى مع بسطها متكورة ، فهى تجمع بين البسط والتكور ، وتشبه البيضة ، ومع هذا يتم الانتفاع بها ، وأعطاها الله الخصائص التى جعلتها تستحق أن تكون أرضا وموطنا للخلائق .

وهذا يدل على أن للكون خالقا حكيما ، ومدبرا عليما ، وإلا لكان الكون موجودا بلا موجد ، ولكان هناك تخصيص بدون

مخصص ، وهو أمر بين البطلان ، ومن الوضوح بمكان ، ويستحيل أن يكون الأثر عين المؤثر : ﴿ **أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون ، أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون ..** ﴾[1] .

فوجود السماء والأرض وإمساكهما بقدرته تعالى ورحمته أن تزولا ، وتدبير الأمر من السماء إلى الأرض ، وتسيير الكون بدقة وإحكام ، وإتقان ونظام : دليل على وجود خالق عظيم ، ورب حكيم ، له الكمال الأكمل والجلال الأتم ، ويستحق من خلقه الحمد والشكر والإقرار بنعمه وآلائه ، وقد حمد نفسه ومدحها قبل أن يحمده ويثنى عليه غيره من خلقه لعلمه أنهم لا يطيقون الثناء عليه ولا يقدرون على توفيته حقه .

﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ :

صلتها بما قبلها

وهذه الآية متصلة بما قبلها ، فجملة « خلقنا » معطوفة على جملة « بنينا » ، أى بنينا وفرشنا وخلقنا ، وهى آية ثالثة تدل على وجوده تعالى ووحدانيته وعظم قدرته وإرادته وواسع علمه .

فائدة تقديم الظرف

وصدرت الآية الكريمة بذكر الجار والمجرور للإهتمام به إذ هو موضع العبرة وموطن الإستدلال على قدرته تعالى وكماله ، فالله جل وعلا بعد أن ذكر ما يدل على وجوده ووحدانيته وقدرته وعلمه المحيط بالسماء والأرض ذكر دليلا آخر على ذلك وهو ما خلقه وأبدعه بينهما فقال بادئا بالجار والمجرور والإضافة : ﴿ **ومن كل شيء خلقنا زوجين** ﴾ .

---

(1) سورة الطور ٣٥ ـــ ٣٧ .

المراد بالشيء

والمراد بالشيء : الجنس ، أى ومن كل جنس خلقنا نوعين ، فالجنس المادى مثلا يوجد فيه نوعان وهما : النامى والجامد ، والجنس النامى يوجد فيه نوعان : وهما : المدرك والنبات ، والجنس المدرك يوجد فيه نوعان وهما : الناطق والصامت ،... وهكذا .

والزوج ضد الفرد ، كالاثنين ضد الواحد ، ويطلق هذا اللفظ على ما زاوج غيره أى قابله ، فكل واحد منهما يقال له زوج ، ويقال عنهما : هما زوجان ، ويقال : هما زوج .

ويجوز أن يكون المراد بالشيء : الموجود مطلقا مما نشاهده ونراه ونعلمه ومما لا نشاهده ولا نراه ولا نعلمه ، والمقصود بالزوجين : المتقابلان على سبيل التضاد ولو كانا معنويين : كالأرض والسماء ، والبر والبحر ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والضياء والظلام ، والجنة والنار ، والإيمان والكفر ، والهدى والضلال ، والسعادة والشقاوة ، والذكر والأنثى ، والسواد والبياض ، والصحة والمرض ، والصيف والشتاء ، وغير ذلك من الأمور الحسية والمعنوية[1] .

الإزدواجية فى الكائنات

ونرى التقابل موجودا فى الإنسان والحيوان والنباتات والحشرات ، بل نرى الازدواجية فى الجمادات ، فكل كائن له ثان مخالف له فى معناه ، وفى عصرنا تقدم العلم وتفتتت الذرة وتبين أنها تتكون من جزئيات وأن كل الطاقات الكهربية والمغناطيسية والأشعة الكونية ونحوها تتكون من موجب وسالب .

فهذه الآية العظيمة من معجزات القرآن الحكيم العلمية أيضا ،

---

(١) أنظر مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى جـ ٢٨ ص ٢٢٧ . والبحر المحيط لأبى حيان جـ ٨ ص ١٤٢ وروح المعانى للألوسى جـ ٢٧ ص ١٧ — ١٨ .

وصدق الله العظيم فى قوله فى سورة يس : ﴿ **سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾ (١) ، وقوله فى سورة الزخرف : ﴿ **والذى خلق الأزواج كلها** ... ﴾ (٢) .

قال العلامة مجاهد بن جبر أحد التابعين رحمهم الله : إن الله تبارك وتعالى خلق لكل ما خلق من خلقه ثانيا له ، مخالفا فى معناه ، فكل واحد منهما زوج للآخر ا هـ (٣) .

فلله در مجاهد حيث ذكر هذا المعنى العظيم الواسع العميق الدال على دقة فهمه وبعد نظره وقوة بصره ونفاذ بصيرته .

وهذا المعنى أعظم فى الاستدلال على قدرته تعالى وكماله لأنه معنى أوسع دائرة وأشمل من المعنى الأول وإن كان لا ينفيه .

أى ومن كل شيء من الموجودات أوجدنا وأبدعنا صنفين متقابلين وكلها دالة على قدرتنا واتصافنا بما يليق بنا .

معنى « لعل »

والمعنى الأصلى لكلمة (لعل) : التوقع ، وهذا التوقع إن كان لأمر محبوب يكون ترجيا ، وإن كان لأمر مكروه يكون إشفاقا .

وهذا التوقع بمعنييه لا يكون من الله سبحانه بحسب الظاهر المتبادر منه لأنه يستلزم الجهل والعجز والله منزه عن ذلك .

ولذا فإن التوقع هنا ليس من الله وإنما هو على لسان المخاطبين ، فهم إذا علموا عظمة الكون وكثرة الأجناس والأصناف المتقابلة يتوقعون لأنفسهم العبرة والتذكر ويعرفون أن الله هو الحق المبين

---

(١) سورة يس ٣٦ . (٢) سورة الزخرف ١٢ .

(٣) أنظر جامع البيان للطبرى جـ ٢٧ ص ٨ .

فيؤمنون به حق الإيمان ويعملون بأوامره ويجتنبون نواهيه .

ويجوز أن يكون المقصود بـ (لعل) : التعليل بالعلة الغائية المعبر عنها بالحكم والمصالح العائدة على العباد ، وكافة أفعاله تعالى لا تخلو من الحكم البالغة والمصالح العظيمة ، فلا يفعل فعلا عبثا ، وتكون (لعل) بمعنى : كى ، أى خلقنا وأبدعنا خلقنا كى تتذكروا وتعتبروا ، ويكون فى الآية استعارة تصريحية تبعية فى الحرف وهو (لعل) .

ولا يصح أن يكون المراد بالعلة : العلة الباعثة ، لما يلزمها من المحال على الله وهو أن يكون محتاجا إلى العلة فى أفعاله ويكون كاملا بها ناقصا بدونها ، فأفعاله تعالى كاملة لا تعلل بعلة باعثة لأنه كامل بذاته ، وإنما تعلل بعلة غائية .

معنى تذكرون وذكر ما ورد فيها من قراءات متواترة

« تذكرون » : والتذكر من الذكر بضم الذال وهو ما يكون بالقلب ، أما الذكر بكسر الذال فهو ما يكون باللسان ، وحذفت إحدى التاءين من الفعل تخفيفا وهى قراءة عشرية قرأ بها حفص وحمزة والكسائى وخلف ، لأن أصله « تتذكرون » ، وقرأ باقى القراء العشرة بتشديد الذال أى بقلب التاء الثانية ذالا وإدغامها فى الذال [1] .

وحذف متعلق التذكر لإفادة العموم والشمول ولتذهب النفس فيه كل مذهب .

المعنى العام

فالله عز وجل فعل ما فعل من بنيان السماء وإيساعها ، وفرش الأرض وبسطها ، وتمهيدها ومدها ، وتذليلها للمعايش والمنافع ، وخلق صنفين متقابلين من كل شىء موجود لنتذكر بقلوبنا ونتعقل عظمة

---

(١) أنظر إتحاف فضلاء البشر للدمياطى ص ٤٠٠ .

هذه المخلوقات ونتدبر ما فيها من حكم ومصالح ونصل منها إلى وجوده ووحدانيته وكماله فى ذاته وصفاته وأفعاله فتلهج ألسنتنا وقلوبنا بالثناء عليه بما هو أهله ونخبت لتعاليمه .

ولا ريب أن قانون التزاوج الذى نوهت إليه الآية الكريمة يؤكد ذلك ، فإذا كانت كافة المخلوقات متزاوجة ، وتزاوجها دال على نقصها وعجزها ، لأن كل زوج ناقص فى ذاته محتاج إلى الآخر المقابل له ومفتقر إليه ليكمله ، لزم وحدانية خالقها وكماله فى ذاته وصفاته وأفعاله واستحقاقه للعبادة والثناء لأنه الخالق القادر المبدع الكامل ، أما غيره فهو مخلوق عاجز ناقص :

﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون** ﴾[1] .



(١) سورة النحل ١٧ .

تفرده تعالى بالألوهية واستحقاقه للعبادة

قال تعالى :

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥١ ﴾

صلتهما بما قبلهما

وهاتان الآيتان متصلتان بما قبلهما ، والفاء فى قوله « ففروا » للفصيحة أفصحت عن شرط مقدر يفهم مما قبلها ، أى إذا علمتم مما تقدم عظمة الله وأيقنتم أنه خالق الأزواج كلها وأنه ليس بزوج وإنما هو الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الغنى عن العضد والسند ، الموصوف بصفات الكمال والجلال ، ولا ملجأ منه إلا إليه ، ففروا إليه ، ولا تجعلوا معه إلها آخر .

معنى فر وفائدة ذكرها دون غيرها

و « فر » من باب : ضرب ، يقال : فر فلان من خصمه فرارا أى هرب ، ويقال : فر الفارس فرا أى أوسع الجولان ليتمكن من التحرك والانعطاف .

وفى ذكر كلمة الفرار دون غيرها تهديد وتخويف فهى توحى بأن العقاب الشديد والإهلاك العظيم سريع وعلى وشك الوقوع لا يحتمل التأخير والتأجيل ولا منجى منه إلا سرعة اللجوء إلى الله تعالى

وطاعته ، ففى ذلك نجاة من أليم عقابه ، وفوز بعظيم ثوابه .

و « إلى » حرف جر معناه الانتهاء ، فالله عز وجل هو المهروب إليه وهو المنتهى كما قال فى سورة النجم : « **وأن إلى ربك المنتهى** » [1] .

المهروب منه

وأما المهروب منه فمفهوم مما سبق وهو العذاب والدمار الذى حل بالأمم الغابرة بسبب معاصيهم وكفرهم بأنبيائهم ، فقوم لوط عليه السلام عذبوا بإمطارهم بالحجارة ، وقوم فرعون أهلكوا بالغرق فى اليم وغشيهم منه ما غشيهم ، وقوم هود عليه السلام دمروا بالريح الدبور الصرصر العاتية ، وقوم صالح عليه السلام أخذوا بالصاعقة المصحوبة بالصيحة وهم ينظرون ، وقوم نوح عليه السلام أهلكوا من قبلهم جميعا بماء منهمر من السماء وانفجرت به الأرض وفاق حجمه الحد وغمرهم فكان طوفانا مهلكا مخربا .

ويجوز أن يكون المهروب منه عاما ويكون الفرار إلى الله تعالى من كل ما سواه أى يجب على الإنسان أن يكون الله على ذكر منه دائما ولا يغفل عنه طرفة عين ولا يغيب عنه كما قال فى سورة البقرة : ﴿ **فاذكرونى أذكركم** ﴾[2] ، وفى ذلك الفوز والسعادة والهناء والرضا فى الدنيا والأخرى حيث يحيا فى الدنيا حياة طيبة ، ويرضى عنه الله فى الأخرى ويحل عليه رضوانه ، ويهبه تفضلا منه حياة هنيئة خالدة دائمة ، ويتقلب فى نعيم الجنة وخيراتها ، وفيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ومما مر يتجلى أن الفرار إلى الله نوعان :

---

(١) سورة النجم ٤٢ .   (٢) سورة البقرة ١٥٢ .

الفرار إلى الله تعالى نوعان

أ ـــ فرار العوام وهو من الكفر إلى الإيمان ، ومن المعاصى إلى الطاعات .

ب ـــ فرار الخواص وهو الفرار إلى الله من كل ما عداه ، فالعبد يفر من عبودية غير الله إلى عبوديته له تعالى ، ومن محبته غيره إلى محبته ، ومن التوكل على غيره والخوف منه ورجائه إلى التوكل على الله والخوف منه ورجائه وحده .... وهكذا يكون العبد متألها ربانيا ، وهذه درجة عظيمة ، ومكانة كريمة ، جعلنا الله بفضله من أربابها وأهليها .

﴿ إنى لكم منه نذير مبين ﴾ :

فائدة هذه الجملة وعظمتها

وهذه الجملة تعليلية ، وفيها زيادة تهديد ووعيد وحث على سرعة الامتثال ، واحتوت على المرسل إليهم ، والمرسل وهو الله تعالى ، والمرسل وهو الرسول محمد ﷺ ، وبينت عظمة الرسول ومكانته عند ربه ثم عند الناس كافة ، فبعد أن تحدث الله عن الكون الدال على قدرته وكماله وأمر بالفرار إليه تحدث عن محمد ﷺ وبين وظيفته ومرتبته ، فالمرسل من العظيم ومن قِبَله يكون عظيما وتكون مهمته عظيمة ويجب أن يستمع إليه ويطاع بإذن الله : **﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾**[1] .

وقدم المرسل إليهم فى الذكر « لكم » لبيان العناية بشأنهم والاهتمام بهم وترغيبهم فى الانقياد والامتثال .

وذكرت النذارة وهى : الإخبار بما يسىء ، دون البشارة ، مراعاة للمقام ، فالمقام مقام تخويف وترهيب ، وتهديد ووعيد .

---

(١) سورة النساء ٦٤ .

﴿ ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إني لكم منه نذير مبين ﴾ .

صلتها بما قبلها

وهذه الجملة المشتملة على النهى معطوفة على جملة الأمر بالفرار إلى الله ، فهما جملتان إنشائيتان أمرت الأولى بالفرار إلى الله من العذاب ، ونهت الثانية عن أعظم ذنب وأكبر سبب لنزول العذاب والانتقام وهو الشرك بالله : **﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾**[1] ، **﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين ﴾** [2] ، فالآية الثانية مؤكدة لمعنى الآية الأولى ومتممة لها .

الجملة التعليلية غير مكررة

والآية الأولى بأمرها بالفرار إلى الله أثبتت وجوده ووجوب طاعته ، وحذرت من الاستنكاف عن عبادته ، والنكوص عن طاعته ، وعدم الإذعان لأوامره .

والآية الثانية نهت عن الإشراك به ، وحذرت من الشرك الذى يفضى إلى العذاب ويستلزم الخلود الدائم فى جهنم ، ولا ريب أن النهى عن الشرك يقتضى الأمر بضده وهو التوحيد ، فمجموع الآيتين أثبت أن الله المتصف بما سبق موجود ، وأنه واحد لا شريك له .

وبهذا التوجيه يتبين أن بين الإنذارين فى الآيتين تغايرا .

سر ذكر الجعل دون غيره من الألفاظ

وفى ذكر كلمة « الجعل » فى جملة النهى دليل على أن آلهتهم مجعولة مخلوقة مصنوعة حادثة فلا يصح أن تعبد أو تؤله ، وإنما الذى يجب ويتحتم أن يفرد بالعبادة والإلهية والربوبية واللجوء إليه هو الله الخالق المدبر الذى بيده الملك والأمر : **﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك**

---

(١) سورة النساء ٤٨ .   (٢) سورة الأنفال ٣٨ .

الله رب العالمين ﴾ [١] .

عظمة الآيتين ومغزاهما

فهاتان الآيتان كقوله تعالى فى سورة الكهف : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ [٢] : حيث قدم الأمر بالعمل الصالح على النهى عن الشرك للاهتمام والعناية بالعمل ، ولاشك أن فى العمل الصالح إقبالا على الله ولجوءا وفرارا إليه ، وكقوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا** ﴾ [٣] .

ففى الآيتين الكريمتين الحكيمتين دعوة قاطعة صريحة عظيمة من عظيم بواسطة عظيم إلى أمر عظيم هو الإيمان بوجود الله وإفراده بالعبادة واللجوء إليه فى كل حال ، واجتناب الشرك لأنه يجلب غضب الله ومقته وسخطه وبغضه ويتسبب فى عـ[illegible]ـه الدائم والخلود فى جهنم .

وفيهما تحذير من مخالفة أمر الله وأمر رسوله ، وبراءة لرسوله وإخلاء لنفسه من عهدة التبليغ فقد بلغ رسالة ربه إلى أمته ، وحذرهم من مخالفته ، فإن خالفوه ونبذوا تعاليمه وأَوْلَوْها ظهورهم وأدبارهم وحل بهم العذاب فلا يلومُن إلا أنفسهم :

﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾ [٤]

---

(١) سورة الأعراف ٥٤ .
(٢) سورة الكهف ١١٠
(٣) سورة النساء ٣٦ .
(٤) سورة النور ٦٣ .

تسلية رسول الله ﷺ والتسرية عنه

قال الله تعالى :

كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾

صلة الآيات بما قبلها

وهذه الآيات متصلة بما قبلها : فبعد أن سلى الله تعالى رسوله محمدا ﷺ وأصحابه والمؤمنين به بذكر قصص بعض الأنبياء السابقين ، وبيان نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين ، وبين ببنيان السماء ، وبسط الأرض وخلق الأصناف والأنواع المتزاوجة ، الدليل على عظمته وقدرته الباهرة ، ووجوب وجوده وعبادته ، واجتناب الإشراك به ، سلى رسوله الله ﷺ مرة ثانية ، وهى تسلية خاصة به ، فيها بيان لعلو مكانته ، ورفيع رتبته عند ربه ثم عند الناس ، فذكر أن حال المشركين من أهل مكة وسائر المكذبين به كحال من كفروا برسلهم من الأمم السابقة ،

وكأن الكفار جميعا على مر العصور وكر الدهور قد تواصوا بتكذيب المرسلين ، واتهامهم بالسحر والجنون وهم يعلمون أنهم برءاء من ذلك .

إعـــراب « كذلك »

والكاف فى « كذلك » اسم بمعنى مثل ، خبر لمبتدأ محذوف ، واسم الإشارة يعود على من تقدم ، أى حال المكذبين بك من أمتك كحال المكذبين برسلهم من الأمم السابقة فلست بدعا من الرسل ، وما وقع لك قد وقع لغيرك من الرسل السابقين ، فاقتد بمن سبقك منهم ، واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق من عدم إيمانهم ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات .

فجملة : ﴿ **ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أومجنون** ﴾ تعد تفسيرا وبيانا للمبتدأ المقدر واسم الإشارة المذكور ، أى تكذيب المكذبين من أمتك وأمرهم معك كتكذيب المكذبين من الأمم السابقة لرسلهم .

والضمير فى قوله « من قبلهم » يعود على المكذبين من مشركى مكة وأمثالهم .

المراد بأو

و « أو » فى قوله : « ساحر أو مجنون » للتفصيل أى مانعة خلو ، فمن المكذبين من قالوا عن رسولهم هو ساحر ، ومن قالوا هو مجنون ، ومن قالوا الوصفين معا ، ففى الآية الكريمة محسن بلاغى بديعى وهو الجمع ثم التفريق حيث جمع الله القائلين فى قوله : (قالوا) ، ثم فرقهم فى قوله (ساحر أو مجنون) .

مافى الآية من بلاغة

وهذه الآية تعد عودا على بدء إذ لها تعلق بقوله تعالى فى صدر السورة : ﴿ **إنكم لفى قول مختلف** ﴾ كما سبق بيانه ، ففيها رد العجز على الصدر وهو محسن بديعى .

فائدة ذكر المكذبين دون المصدقين

وذكر المكذبين هنا دون ذكر الناجين أوفق وأليق بالمقام إذ المقام تسلية رسول الله ﷺ والتنفيس عنه ، ولأن كل أمة من الأمم السابقة أرسل الله إليهم رسولا كفر معظمهم به ، فالحكم المستفاد من صيغة الحصر باعتبار الأعم والأغلب ، وهذا لا ينفى أن فى كل أمة من الأمم السابقة الغابرة مؤمنين صادقين .

﴿ **أتواصَوا به بل هم قوم طاغون** ﴾ :

الغرض من الإستفهام

والهمزة للاستفهام الإنكارى بمعنى النفى ، وفيه معنى التعجب ، وذكر التواصى دون غيره من الصيغ والألفاظ للدلالة على مدى حرصهم على هذه المقولة وإطباقهم عليها حتى صارت بمثابة الوصية التى يوصى بعضهم بعضا بها .

سر إسمية الجملة

والضمير فى « به » عائد على القول المستفاد من ﴿ **قالوا ساحر أو مجنون** ﴾ و « بل » للإضراب الانتقالى ، والطغيان من طغى يطغى ، كسعى يسعى ، وهو مجاوزة الحد فى الكفر والعناد ، والعصيان والفساد ، وفى مجىء الجملة اسمية ﴿ **هم قوم طاغون** ﴾ دلالة على تأصل الطغيان فيهم وثباتهم عليه واستمرارهم فيه وملازمتهم له وعدم تخليهم عنه .

صلة الآية بما قبلها

وبين هذه الآية وبين ماقبلها شبه كمال اتصال لأنها جواب سؤال مقدر انبثق من الآية السابقة كأن سائلا قال : هل سبب إجماع السابقين واللاحقين على هذا القول القبيح والوصف الشنيع للرسل هو تواصى بعضهم بعضا به أو أن هناك سببا آخر لذلك ؟

فأجاب الله بالآية الثانية بأنهم لم يتواصوا به لأنهم لم يجتمعوا فى زمن واحد ولم تأتهم كل الرسل فى زمن واحد ، وإنما أتفقوا وتواطئوا عليه

بسبب طغيانهم وقبح طبائعهم وفساد طويتهم وخبث جبلتهم ، فاتفاقهم فى الكفر والطغيان ، والضلال والبهتان ، والعناد والعدوان ، أوصلهم إلى هذا القول الزرى القبيح وهو أشنع وأبشع من التواصى به .

الغرض من الآيتين

ففى الآيتين تسلية خاصة برسول الله ﷺ حتى لا يأسى على من يكفر به من قومه وأمته ، وعلى ما يلقى من مشركى مكة من صدود وإعراض ، وإيذاء وعناد ، فما من رسول جاء قومه برسالته من الله إلا ووجه بمثل ما ووجه به رسول الله من قومه .

ورَمْى رسل الله — عليهم السلام — بالسحر أو الجنون أو بأى وصف قبيح فيه منقصة لهم وتنفير منهم هو مجرد اتهام وتلمس عذر وتعلل لعدم الإيمان بهم ، فللسحر علاماته الدالة عليه وهم يعرفون طبيعته وطبيعة السحرة ولا تنطبق على أى رسول من رسل الله .

وللجنون أماراته وأوصافه ولا يوجد شىء منها فى أى رسول من رسل الله ، وهم يوقنون أن رسل الله هم أكمل الخلق ، وأن كل رسول أفضل أمته منبتا ومعدنا ، وله صفاته الكاملة وخصاله الفاضلة و ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾(١) .

ولكن الكفار استحبوا العمى على الهدى ، واستمرأوا الكفر والعناد وتمنوا الردى ، وحقدوا على رسل الله وسخروا منهم ، واستحوذ عليهم الشيطان ، وصاروا حزبه وأولياءه .

قال تعالى لرسوله محمد ﷺ فى سورة البقرة : ﴿ ... **كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم** ﴾(٢) ، وفى سورة

---

(١) سورة الأنعام ١٢٤ .

(٢) سورة البقرة ١١٨ — والعبرة بعموم الآية وشمول لفظها .

الأنعام : ﴿ **قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله** ﴾[1] ، وفى سورة يوسف عليه السلام : ﴿ **حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين** ﴾[2] ، وفى سورة النمل : ﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا** ﴾[3] ، وفى سورة فصلت : ﴿ **ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك** ﴾[4] ، وغيرها من الآيات التى فيها تسليته والترويح عنه وتطييب خاطره ، وفيها دفاع عظيم عنه ، وتبرئته من أدنى عيب أو نقص ، وتهديد للكفرة الفجرة المردة ، وبيان أن العيب فيهم هم لا فيه ولا فى رسالته ، ولذا أمره بالتولى عنهم وبتذكيرهم وتبليغهم الرسالة مهما كان موقفهم فقال :

﴿ **فتول عنهم فما أنت بملوم ، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾ :

صلة الآية بما قبلها

والفاء فى قوله « فتول » للسببية والفصيحة لأن ما بعدها مسبب عما قبلها ، ولأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر ، إذا كان أمرهم كأمر السابقين فى الكفر والطغيان وقذف المرسلين — وأنت منهم — بالسحر والجنون ، وكانوا متفقين معهم فى ذلك فتول عنهم ولا لوم ولا عتاب عليك من الله ولا من غيره فقد بذلت جهدا مضنيا فى دعوتهم وأفرغت وسعك فى نجدتهم وانتشالهم مما هم فيه من ضلال وبطلان ، وفساد وكفران .

---

(١) سورة الأنعام ٣٣ — ٣٤ .

(٢) سورة يوسف عليه السلام ١١٠ . (٣) سورة النمل ١٤ .

(٤) سورة فصلت ٤٣ وفى الآية الكريمة معنى آخر يفهم من تكملة قراءتها ولا تنافى بين المعنيين .

المراد بالتولى

وليس المراد بالتولى : الإعراض الكامل الدائم عنهم ومقاطعتهم واجتنابهم بالمرة وإنما المراد به الإعراض عن مجادلتهم ومناقشتهم الحساب وإرهاقه نفسه معهم ، فهذه الآية لا تتنافى مع قوله بعد : ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾ لأنه ﷺ مأمور بالأمرين معا : أى مأمور بالإعراض عن مجادلتهم ومناقشتهم الحساب ومقابلة أذاهم بأذى ومواجهتهم بمثل ما يواجهونه به ، وبعدم تأثره بوصفهم له بالسحر والجنون والشعر والكهانة ونحوها .

ومأمور كذلك بتذكيرهم ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة وجدالهم بالتى هى أحسن وتبليغهم رسالة ربهم بالرفق واللين لعل الله يهدى منهم من يريد هدايته .

ولا تعارض بين الآيتين حتى يقال إن حكم الثانية ناسخ لحكم الأولى ، بل بينهما الوئام والوفاق ، والانسجام والعناق ، فهما كقوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ **أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا** ﴾[1] ، وقوله فى سورة الأحزاب : ﴿ **ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا** ﴾[2] ، وقوله فى سورة المزمل ﷺ : ﴿ **واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا** ﴾[3] ، ونحوها من الآيات .

مغزى الآيتين وهدفهما

ففيهما تسلية أخرى لرسول الله ﷺ وإذهاب لهمه ، وإزالة لحزنه وحسرته ، وأسفه ولوعته ، فكان من عظيم خلقه ورفيع قدره ونبيل محتده وكريم طبعه يظن أنه مقصر فى التبليغ وأنه لو زاد فى إرهاق نفسه

---

(١) سورة النساء ٦٣ . (٢) سورة الأحزاب ٤٨ .
(٣) سورة المزمل ﷺ ١٠ .

لآمنوا ، فكان يرهق نفسه ويتجشم كبير المصاعب وعظيم المتاعب أملا فى إيمانهم ، وحرصا وطمعا فى تصديقهم حتى قال له ربه فى سورة الكهف : ﴿ **فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** ﴾(١) ، وفى سورة الشعراء : ﴿ **لعلك باخع نفسك أن لايكونوا مؤمنين** ﴾(٢) ، وفى سورة فاطر : ﴿ **فلا تذهب نفسك عليهم حسرات** ﴾(٣) ، وغيرها من الآيات ، فالعيب فيهم هم ، واللوم عليهم لا فيه ولا فى رسالته .

روى من طريق مجاهد بن جبر عن على رضى الله عنه وكرم وجهه أنه قال : لما نزلت : ﴿ **فتول عنهم فما أنت بملوم** ﴾ لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة إذ أمر النبى ﷺ أن يتولى عنا ، فنزلت : ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾ فطابت أنفسنا .

وروى عن قتادة بن دعامة السدوسى رحمه الله أنه قال : ذكر لنا أنه لما نزلت : فتول عنهم ... : الآية اشتد على أصحاب رسول الله ﷺ ورأوا أن الوحى قد انقطع : وأن العذاب قد حضر ، فأنزل تعالى : ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾(٤) .

ومن هاتين الروايتين يظهر أن الآيتين لم تنزلا معا دفعة واحدة وإنما نزلت الأولى ثم بعد مدة نزلت الثانية ، وأن الفاصل بينهما زمن وجيز ، وأن الصحابة رضى الله عنهم وجلت قلوبهم من هذا الإنذار العظيم المباشر والتهديد والوعيد ، وتوقعوا انقطاع الوحى وحلول العذاب بالكفار كما حل بكفار الأمم السابقة المكذبين لرسلهم .

---

(١) سورة الكهف ٦ . (٢) سورة الشعراء ٣ . (٣) سورة فاطر ٨ .

(٤) أنظر جامع البيان للطبرى جـ ٢٧ ص ١١ ولباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص ٢٠٦ ، وروح المعانى للألوسى جـ ٢٧ ص ٢٠ .

المراد بالتذكير وفوائده

والمراد بالتذكير : الوعظ والترغيب فى الطاعة وتحصيل الثواب ، والتنفير من المعاصى والترهيب من سخط الله والعقاب ، ويكون التذكير بالقرآن ونحوه مما يحقق ذلك كما قال تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ **وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون** ﴾(١) وفى سورة ق : ﴿ **نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد** ﴾(٢) ، وفى سورة الغاشية : ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر** ﴾(٣) .

والفعل : « ذكر » منزل منزلة اللازم أى افعل التذكير فى ما تراه من أوقات مناسبة ولا تتركه كلية .

وما من شك فى أن فى التذكير نفعا للمذكر كتحصيل الأجر والثواب ورضا الله تعالى ، ونفعا للمذكَّرين : فالمؤمن يزداد إيمانا ويقينا وثباتا على صراط الله المستقيم ، والكافر يرق قلبه بتكرر التذكير وقد يؤمن وينتفع به .

ويجوز أن يكون الفعل متعديا ومفعوله محذوف للعلم به أى وذكرهم .

المقصود بالمؤمنين

والمقصود من المؤمنين : المؤمنون بالفعل لأنهم هم المنتفعون المهتدون بالتذكير والعظات المستفيدون المعتبرون(٤) ، أما غيرهم فلا فائدة فى تذكيرهم لفساد طبيعتهم وخبث طويتهم فلا يرجى منهم خير ، ويكون

---

(١) سورة الأنعام ٥١ . (٢) سورة ق ٤٥ . (٣) سورة الغاشية ٢١ — ٢٢ .

(٤) لفظ المؤمنين عام ، ولايدخل فيه الملائكة لأن إيمانهم جبلى ويزيد ولا ينقص وهم فى طاعة لله مستمرة دائمة فليسوا فى حاجة إلى التذكير والوعظ وهم مستغنون عن ذلك ، ولأن رسول الله ﷺ لم يرسل إليهم .

فى الآية الكريمة تعريض بهم لعدم إيمانهم ولقساوة قلوبهم حتى كانت كالحجارة أو أشد قسوة .

ويجوز أن يكون المقصود بهم : المؤمنين مطلقا أى منهم مؤمنون بالفعل ومن هم كفار وعلم الله أنهم سيؤمنون فى المستقبل وينتظمون فى سلك المؤمنين ، وسموا مؤمنين مجازا باعتبار المآل ، فهذا كقوله تعالى حكاية لقول من كان فى السجن مع يوسف عليه السلام : ﴿ **إنى أرانى أعصر خمرا** ﴾(١) ، ويكون اللفظ مستعملا فى حقيقته ومجازه ، وقد أجاز بعض العلماء الجمع بين الحقيقة والمجاز فى اللفظ الواحد .

ومن يمنع الجمع بينهما من العلماء يعتبر اللفظ من عموم المجاز وهو استعمال اللفظ فى معنى عام وتكون الحقيقة والمجاز فردين من أفراده فيكون المؤمن : من قدر إيمانه سواء قدر إيمانه فى الماضى وآمن بالفعل أو قدر إيمانه فى المستقبل وآمن وكان فى الماضى كافرا .

ففى الآيتين الحكيمتين تسلية أخرى لرسول الله ﷺ ،وإعلاء لقدره ، ورفع لمكانته ، ونفى النقص عنه وعن رسالته ، وبيان لوظيفته ، وتهديد عظيم لمن تنطمس بصائرهم ، وتزين ذنوبهم على قلوبهم ، فيكفرون به ويعادونه ، ويحاربونه ويناوئونه :

﴿ **والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾(٢) .

---

(١) سورة يوسف عليه السلام ٣٦ — وسمى العصير خمرا باعتبار ما سيئول إليه .
(٢) سورة يوسف عليه السلام ٢١ .

الغاية من خلق الجن والإنس

قال الله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾

صلة الآيات بما قبلها

وهذه الآيات لها اتصال ظاهر بما قبلها ، فالواو فى قوله « وما خلقت » للاستئناف النحوى ، وهذه الآية مؤكدة لمضمون ما قبلها فإن خلق الجن والإنس لعبادة الله تعالى مما يحفز رسول الله ﷺ على تذكيرهم وانتفاعهم به[1] .

وقيل إن الواو للحال ، فسياق الآيات من قبل فيمن كذبوا رسلهم ورموهم بالسحر والجنون ومنهم مشركو مكة وكأن الله يقول : رغبوا عن عبادة الله وأشركوا به وحاربوا رسله والحال أنهم ما خلقوا إلا لعبادته واتباع رسله .

المراد بالخلق

والمراد بالخلق المنسوب إلى الله : الإيجاد والإبداع على غير مثال

(١) انظر إرشاد العقل السليم لأبى السعود جـ ٨ ص ١٤٤ .

سبق .

المراد بالجن

ولم يذكر الملائكة فى الآية الكريمة لأن عبادتهم لله أمر مقطوع به غير محتاج إلى تنبيه : فهم عباد مكرمون ، لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، ويسبحونه وله يسجدون[1] ، إلى آخر الأوصاف القرآنية الدالة على طاعتهم الكاملة لله وثباتهم على عبادته وتمجيده والثناء عليه بما هو أهله .

بخلاف الجن والإنس فهم خلقوا لعبادة الله فعبده بعضهم ، ولم يعبده أكثرهم[2] .

ويجوز أن يكون لفظ الجن مشتملا على الملائكة ، فالاجتنان معناه الاستتار ، والملائكة مستترون عن الإنس .

سبب تقديم الجن على الإنس

وقدم لفظ « الجن » على لفظ « الإنس » لاشتماله على الملائكة وهم أكثر العابدين لله وأخلصهم فى العبادة ، ولأن الجن مخلوقون قبل الإنس فهم سابقوهم فى الوجود ، قال تعالى فى سورة الحجر : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ، والجان خلقناه من قبل من نار السموم**[3] ﴾ .

(١) أنظر سورة الأنبياء ١٩ ـــ ٢٠ ـــ ٢٦ ـــ ٢٧ وسورة الأعراف ٢٠٦ وسورة التحريم ٦ وغيرها من السور والآيات .

(٢) مدلول العبادة فى الإسلام ليس مقصورا على مجرد إقامة الشعائر وأداء الأركان وإنما هو أوسع وأشمل من ذلك ، فمن عبد الله والتزم منهجه الإلهى فقد حقق غاية وجوده وخلافته فى الأرض ونال السعادة والرضا فى الدنيا والآخرة ، ومن لم يعبده ولم يلتزم منهجه الإلهى يكون مبطلا لغاية وجوده ، مضيعا لسعادته ، مغضبا لربه ، ويحيا كاسف البال ، خائب المآل .

(٣) سورة الحجر ٢٦ ـــ ٢٧ .

ويجوز أن تكون « أل » فى الجن والإنس للاستغراق ، واللام فى قوله (ليعبدون) للعلة الغائية ، وليست للعلة الباعثة كما سبق بيانه .

ـد بالعبادة

وليس المراد بالعبادة : العبادة بالفعل لأن كثيرا من الجن والإنس لم يعبدوا الله ، وإنما المراد بها أنه تعالى أعدهم وهيأهم لها وهداهم إليها وأمرهم بها ، فالله خلقهم فى أحسن صورة وخلقة ، وجعل لهم العقل والحواس السليمة ، وأعطاهم القدرة التى تكون بها العبادة ، وارسل إليهم الرسل لهدايتهم وتعليمهم وتعريفهم بربهم وكيفية عبادته ، وهذه أمور متحققة فيمن يؤمنون ويعبدون الله بالفعل وفيمن يكفرونه ولا يعبدونه .

ويكون إطلاق العبادة على ما به الاستعداد والتهيؤ لها من باب المجاز المرسل من إطلاق الملزوم وإرادة اللازم لأن العبادة فى اللغة : غاية الخضوع والتذلل لله ، وفى الاصطلاح : جميع التكاليف الشرعية التى أمر الله بها ، والعبادة بهذا المعنى اللغوى والشرعى تستلزم ما به الاستعداد والتهيؤ لها لأنها لا تكون إلا من العاقل سليم الحواس الأهل للتكليف .

فالله عز وجل خلق الملائكة والجن والإنس لعبادته اختيارا لا تسخيرا ، وهيأهم لها ، فعبده الملائكة كلهم أجمعون بفطرتهم وجبلتهم ، وعبده بعض الجن والإنس ولم يعبده أكثرهم ، قال تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ **وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله** ﴾ [1] ، وقال فى سورة الأعراف : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس** ... ﴾ [2] .

---

(١) سورة الأنعام ١١٦ .   (٢) سورة الأعراف ١٧٩ .

وقيل إن المراد بالعبادة معناها اللغوى وهو : الخضوع والتذلل ، ويكون بالتسخير لا بالاختيار ، فكل المخلوقات من جن وإنس ونبات وحيوان وطيور وجبال وأشجار وغيرها خاضعة لله تعالى مخلوقة له مسخرة بأمره مفتقرة إليه دالة على قدرته وكماله ، قال تعالى فى سورة النحل : ﴿ **ولله يسجد مافى السماوات ومافى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون** ﴾(١) ، وقال فى سورة الحج : ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب** ﴾(٢) ونحوهما من الآيات .

وهذا المعنى — وإن كان صحيحا ودلت عليه آيات أخرى — لا يستفاد من ظاهر الآيات هنا إذ الظاهر من سياقها أن المقصود بالعبادة : العبادة بالاختيار لا بالتسخير أى العبادة الشرعية لا اللغوية وحدها .

ويجوز أن تكون (أل) فى الجن والإنس للعهد ، والمعهود هم مؤمنو الجن والإنس ، والمراد بالعبادة التوحيد كما قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : كل عبادة فى القرآن المراد بها التوحيد(٣) ، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى من قبل : ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾ ، وقراءة عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وأبى بن كعب رضى الله عنهم : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليوحدون** ﴾ ، وهى قراءة شاذة تفسيرية .

وخرج من الآية الكريمة من يكفرون من الجن والإنس ولم

---

(١) سورة النحل ٤٩ . (٢) سورة الحج ١٨ .

(٣) أنظر روح المعانى للألوسى جـ ٢٧ ص ٢١ .

يوحدوا الله أصلا : ﴿ **ولقد ذرأنا لجنهم كثيرا من الجن والإنس** ... ﴾ ، وخرج الصبيان الذين ماتوا قبل التكليف ، ومن أصيبوا بالجنون وعدم التمييز .

فالآية الكريمة دخلها التخصيص بمن ذكروا كما قال القشيري[1]

ويجوز أن يكون معنى العبادة على قراءة ابن عباس وغيره : الطاعة والعمل الصالح ، وتكون اللام فى قوله ﴿ ليعبدون ﴾ للغاية الحقيقية ، أى وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين المطيعين إلا للعبادة والطاعة والعمل الصالح

وهذا المعنى قريب من سابقه لأنه يلزم من الطاعة وأداء العمل الصالح توحيد الله تعالى ومعرفته والوقوف عند تعاليمه .

لاتعارض بين الآية وبين آية سورة هود عليه السلام

ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله تعالى فى سورة هود عليه السلام : ﴿ **ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم** ﴾[2] حيث تفيد الآية التى معنا أنه خلقهم للعبادة ، وتفيد الأخرى أنه خلقهم للاختلاف إذا كان اسم الإشارة عائدا على الاختلاف : لما سبق بيانه فى توجيه معنى الآية ، ولأن اللام فى الآية الأخرى للعاقبة والصيرورة أى كانت عاقبة خلقهم اختلافهم ، ولأن الحصر فى آية الذاريات إضافى أى خلقت الجن والإنس للعبادة دون ضدها ودون اختلافهم المذكور ودون طلب الرزق أو الإطعام .

﴿ **ماأريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون** ﴾ :

صلة الآية بما قبلها

وهذه الآية مستأنفة مؤكدة لمضمون ماقبلها من أن الجن

---

(١) أنظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ص ٦٢٢٥ ،وفتح القدير للشوكانى جـ ٥ ص ٩٢ .

(٢) سورة هود عليه السلام ١١٨ ــ ١١٩ .

والإنس خلقوا لعبادة الله ، ومع تأكيدها لمعنى سابقتها يوجد بينهما شبه كمال اتصال لأن استئنافها بيانى فهى جواب لسؤال مقدر كأن سائلا قال : هل خلقهم الله لعبادته لاحتياجه ؟ ، فجاء الجواب فى هذه الآية المبينة غناه عن العالمين ، فهو لا يطلب منهم تحصيل رزق له ولا إصلاح قوت ولا تجهيز طعام له ، ولا تقديمه إليه ، لأنه هو الرزاق القوى المتين الغنى الحميد ، فهو منزه عما يحتاجه الأسياد من عبيدهم ومواليهم ، وعما يحتاجه الخلق لأنفسهم من تحصيل رزق أو الحصول على طعام .

سبب ذكر الرزق نكرة

وكلمة « رزق » نكرة فى سياق النفى ، ودخلت عليها « من » الجارة ، الزائدة من حيث الإعراب لا من حيث المعنى لأن وجودها يؤكد معنى الاستغراق ، وليس فى القرآن الحكيم حرف زائد ويستغنى عنه المعنى ، أى لا أريد منهم تحصيل أى رزق كان .

سبب ذكر الرزق إسما

وذكرت كلمة « رزق » اسما ولم تذكر فعلا مضارعا كالإطعام لأن المقصود بالرزق طلب المال بطريق التكسب ، والمال عين من الأعيان وليس فعلا ، أما الإطعام فهو فعل يقوم به العبد لخدمة سيده كطبخ الطعام وتهيئته وتقديمه إليه .

فالله تعالى خلقهم لعبادته وتعظيمه ، والمنفعة تعود عليهم هم ، أما هو فغنى لا يريد منهم عينا من الأعيان ولا فعلا من الأفعال كما يريده سادتهم وبعضهم من بعض .

سبب تكرار الإرادة

وذكرت الإرادة مرتين منفيتين لأن نفى الإرادة الأولى بمفعولها لا يستلزم نفى الإرادة الثانية بمفعولها فمن الأسياد من يطلب العبد لتحصيل رزق وكسب مال ، ومنهم من يطلبه للخدمة كحفظ ماله وقضاء حوائجه من طهى وتقديم طعام وتهيئة بيت وفرش ونحو ذلك لأن

سيده غنى وذو مال كثير موفور فهو فى غنى عن تحصيله رزقا أو كسبه مالا له .

فنفى الإرادة الأولى لا يستلزم فنفى الثانية لما بينهما من تغاير ، **فكأن** الله يقول : ﴿ **ماأريد من خلقى هذا وماأريد منهم ذلك لغناى عنهم ، وإنما أريد منهم العبادة لمصلحتهم ونفعهم : وربك الغنى ذو الرحمة** ﴾[1] .

سبب تقديم الرزق

وقدم نفى إرادة الرزق على نفى إرادة الإطعام مبالغة فى إظهار غناه عن خلقه كأنه يقول : لا أطلب منهم رزقا أيا كان ولا ما هو دونه ، إذ الرزق أعم من الإطعام .

سر ذكر الإطعام دون غيره

وذكر الإطعام دون غيره لأنه أغلب ما يطلبه السيد من عبده ، ولأن نفيه يستلزم نفى غيره من باب أولى ، إذ نفى الأدنى يقتضى نفى الأعلى .

ويجوز أن يكون المعنى : ماأريد منهم من رزق : أى أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يرزق بعضهم بعضا كما قال فى سورة النحل : ﴿ **والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت أيمانهم فهم فيه سواء** ﴾[2] ، وما أريد أن يطعمون : أى أن يطعموا خلقى ، ويكون الكلام على حذف مضاف ، فكأنه تعالى يقول : ﴿ **ماأريد منهم أن يرزقوا أنفسهم ولا أحدا من خلقى ، وماأريد أن يطعموه لأنى قد تكفلت بذلك فأنا أرزق ولا أرزق وأطعم ولا أطعم** ﴾

وأسند الإطعام إلى الله فى الآية لأن الخلق عياله وفقراء إليه ،

---

(١) سورة الأنعام ١٣٣ .   (٢) سور النحل ٧١ .

ومن أطعم عيال أحد فكأنما أطعمه[1] ، ويكون معنى الآية كالمعنى الوارد فى الحديث القدسى الذى رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : ياابن آدم مرضت فلم تعدنى ، قال : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ ، قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لوعدته لوجدتنى عنده ؟ ، ياابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى ، قال : يارب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ ، قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ ، ياابن آدم استسقيتك فلم تسقنى ، قال : يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ ، قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندى »[2] .

لا تنافى بين المعنيين

والآية الكريمة تحتمل المعنيين معا ولا تنافى بينهما فهما معنيان صحيحان حقيقيان .

﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ :

وهذه جملة تعليلية للآية السابقة ، وكأن الله يقول : ما أريد منهم من رزق لأنى أنا الرزاق ، وما أريد من عمل لأنى ذو القوة المتين ، فالله مستغن بذاته عن خلقه ، فليس فقيرا محتاجا حتى

---

(١) أنظر مجمع البيان للطبرسى جـ ٩ ص ٢٤٤ ، ومعالم التنزيل للبغوى ولباب التأويل للخازن جـ ٦ ص ٢٤٨ ، وكتاب البغوى مطبوع بهامش كتاب الخازن .

(٢) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى كتاب البر والصدقة والآداب باب فضل عيادة المريض جـ ٥ ص ٤٣٣ .

يطلب منهم رزقا ، وليس عاجزا أو ضعيفا حتى يحتاج منهم عونا وسندا وعملا وعضدا .

في الآيات التفات

وفى الآيات الكريمة التفات من التكلم إلى الغيبة حيث ذكر هنا لفظ الجلالة صريحا ، والاسم الظاهر يعد فى باب الالتفات من قبيل الغيبة ، وفائدة الالتفات هنا : الإشعار بعظمة الله وجلاله ، وغناه عن خلقه وكماله ، وتربية المهابة منه فى القلب ، والرغبة فيه واللجوء إليه سبحانه .

فائدة ذكر صيغة المبالغة

وفى ذكر صيغة المبالغة « الرزاق » دلالة على سعة رزقه وخزائنه ، وواسع كرمه وفضله على خلقه ، وأن رزقه إليهم كثير غامر دائم ، وخزائنه لا تنفد ولا تنقص .

فى الآية الكريمة قصر

وفى ذكر ضمير الفصل « هو » تأكيد لقصر الرزق عليه ، إذ القصر مستفاد من تعريف الطرفين ، وهو قصر صفة على موصوف ، فالرزق هو مالكه ومقصور عليه وحده لا يتجاوزه إلى غيره لا اشتراكا ولا استقلالا .

فبانتفائه عن غيره اشتراكا يكون القصر قصر إفراد ، وبانتفائه عن غيره استقلالا يكون القصر قصر قلب .

معنى القوة

ومعنى « القوة » : القدرة ، ومعنى « المتين » : الثابت الشديد القوة الذى لايطرأ عليه عجز ولا ضعف .

وقال : « ذو القوة » ، ولم يقل « القوى » للدلالة على عظمته فى ذاته وعظمة قوته وقدرته التى لا تتناهى .

ماورد فى « المتين » من قراءة وتوجيهها

وقرأ جمهور القراء لفظ « المتين » بالرفع ، وقرأها بالجر الأعمش سليمان بن مهران ويحى بن وثاب والنخعى وهى قراءة

شاذة[1] .

فعلى قراءة الرفع يكون صفة أخرى ، أو خبرا بعد خبر ، أو خبرا لمبتدأ محذوف .

وعلى قراءة الجر يكون صفة للقوة ، وجاء مذكرا لأن « القوة » مؤنث غير حقيقى ، أو هى بمعنى : الاقتدار أى ذو الاقتدار المتين ، أو صفة للفظ « الرزاق » وجر بالمجاورة كقولهم : « هذا جحر ضب خرب »[2]

بلاغة الآية

وذكر فى الآية الكريمة لفظ الجلالة ، وجاءت الجملة اسمية ، وأكدت بمؤكدات لقطع أوهام الخلق فى أمور الرزق ، وتخفيف أوهاق الحياة وأثقالها عنهم ، وتقوية اعتمادهم على الله وحده وتوكلهم عليه .

المعنى العام

فالله عز وجل ينبه المغمورين فى الظلمات والضلالات ، المنغمسين فى الكفر والمعاصى ، إلى أنه لم يخلق خلقه عبثا ، ولم يتركهم سدى وهملا ، يأكلون ويشربون ، ويلهون ويلعبون ، ويفعلون ما يشاءون ، ويقولون مايرغبون ، فيصفون الله بما لا يليق ، ويرمون رسله بما لا يصح وليس فيهم ، وإنما خلقهم لعبادته ، وأنزل إليهم رسله مبشرين ومنذرين ، ومذكرين ، لئلا يكون لهم عليه حجة بعد الرسل ، فمن اتبع هداه فلا يضل ولا يشقى ، وحظى بالجزاء الأوفى ، ومن أعرض عن هداه كانت معيشته ضنكا ، وعاقبته وخيمة

---

(١) أنظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ص ٦٢٢٦ ، وإتحاف فضلاء البشر للدمياطى ص ٤٠٠ .

(٢) أنظر مجمع البيان للطبرسى جـ ٩ ص ٢٤٢ ، والبحر المحيط لأبى حيان جـ ٨ ص ١٤٣ .

ألية ، فعبادتهم له يعود جناها وثمارها إليهم هم ، أما الله فهو غنى عنهم غنى كاملا ، ولو أن الخلائق جميعا من أولهم إلى آخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منهم مانقص ذلك من ملك الله شيئا ، ولو كانوا جميعا من أولهم إلى آخرهم على أتقى قلب رجل واحد منهم مازاد ذلك فى ملكه شيئا ، وهم جميعا لن يبلغوا نفعه فينفعوه ، ولن يبلغوا ضره فيضروه ، ولو قاموا جميعا فى صعيد واحد وسأل كل واحد مسألته فأعطيها مانقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر — كما ورد فى الحديث القدسى —[1] ، لأنه غنى حميد يطعم ولا يطعم ذو قوة ومتانة غير مفتقر إلى شىء ، فهو كامل الذات والصفات والأفعال ، ليس كمثله شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، جل وعلا .

وقد ورد فى بعض الكتب الإلهية :

« يقول الله تعالى : ابن آدم : خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فتك فاتك كل شىء ، وأنا أحب إليك من كل شىء »[2] .

---

(١) أنظر الحديث فى صحيح مسلم بشرح النووى كتاب البر والصدقة والآداب باب تحريم الظلم وهو مروى عن أبى ذر رضى الله عنه جـ ٥ ص ٤٣٩ ، وهو حديث قدسى عظيم ، وكان أبو إدريس الخولانى الراوى عن أبى ذر إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه كما يجثو الإنسان فى الصلاة لعظمة هذا الحديث ، وملك الله لا ينقص شيئا بإعطاء كل واحد مسألته فيد الله ملأى سحاء لا يغيضها نفقة بالليل ولا بالنهار ، وخزائنه لاتنفد ولا تنقص ، وذكر المخيط — الإبرة — لتقريب المعنى إلى أفهامنابما نشاهده ونعرفه ، ولأن الإبرة أقصى ما يضرب به المثل فى القلة والصغر ، وهى صقيلة لا يعلق بها ماء .

(٢) أنظر تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير جـ ٤ ص ٢٣٨ .

وروى الترمذى وابن ماجه وأحمد بأسانيدهم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : ياابن آدم : تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإن لاتفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك »[1] .

وروى الترمذى بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له »[2] .

ثبت الله قلوبنا على دينه وحبه وطاعته ، وجعل الآخرة همنا ورزقنا حسن التوكل عليه ، والإنابة إليه .



(١) أنظر سنن الترمذى أبواب صفة القيامة باب ١٤ جـ ٤ ص ٥٨ وقال : حديث حسن غريب . وسنن ابن ماجه كتاب الزهد باب الهم بالدنيا ص ١٣٧٦ ، ومسند أحمد جـ ٢ ص ٣٥٨ .

(٢) أنظر سنن الترمذى فى الموضع السابق ص ٥٧ ، وروى ابن ماجه وأحمد بسنديهما عن زيد بن ثابت نحوه أنظر سنن ابن ماجه فى الموضع السابق ص ١٣٧٥ ، ومسند أحمد جـ ٥ / ١٨٣ .

قال الله تعالى :

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

صلة الآيتين بما قبلهما

وهاتان الآيتان متصلتان بما قبلهما اتصالا لفظيا ومعنويا ، إذ الفاء فى قوله « فإن » للفصيحة أفصحت عن جواب شرط مقدر علم من الآيات السابقة أى : إذا علمت موقف كفار الأمم السابقة المذكورين فى السورة من رسلهم وعاقبتهم وهم : قوم لوط ، وقوم فرعون المرسل إليهم موسى، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم نوح ، وعلمت عظمة الله واستحقاقه للعبادة ، وأنه خلق خلقه لعبادته وأنه غنى عنهم : فاعلم بعد هذا البيان أن للكافرين من هذه الأمة — وعلى رأسهم مشركوا مكة — نصيبا كبيرا من العذاب مثل نصيب سابقيهم ونظائرهم الكافرين فى الأمم السابقة .

ففى الآيتين وعيد شديد لمشركى مكة ومن على شاكلتهم من

كفرة هذه الأمة .

المراد بالظلم

وليس المراد بالظلم هنا : مطلق ظلم ، وإنما المراد به ظلم خاص وهو الشرك لقوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **والكافرون هم الظالمون** ﴾[1] ، وقوله فى سورة لقمان حكاية لكلامه ونصحه لابنه ووعظه : ﴿ **يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم** ﴾[2] ، وتفسير رسول الله ﷺ الظلم المذكور فى آية سورة الأنعام بالشرك حين سأله بعض الصحابة عنه ، والآية هى قوله تعالى : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**[3] .

وهذا من تفسير القرآن بالقرآن ، وبالسنة .

فكل كفر ظلم ، وليس كل ظلم كفرا .

معنى الذنوب وبيان مافى الآية من أوجه بلاغية

والذنوب لفظ يذكر ويؤنث ، وجمعه : أذنبة ، وذنائب ، مثل : قلوص ، وقلائص ، وهو الدلو الكبيرة الممتلئة ماء أو القريبة الامتلاء ، ولا يقال لها ذنوب وهى فارغة ، وكان سقاة العرب يستقون الماء ويقتسمونه بها ، قال الشاعر :

لنا ذنوب ولكم ذنوب ۞ فإن أبيتم فلنا القليب

---

(١) سورة البقرة ٢٥٤ . (٢) سورة لقمان ١٣ .

(٣) سورة الأنعام ٨٢ ــ وأنظر الحديث فى صحيح البخارى كتاب الإيمان باب ظلم دون ظلم جـ ١ صـ ١٦ وكتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى واتخذ الله إبراهيم خليلا جـ ٤ ص ١٧٢ ، وكتاب التفسير تفسير سورة الأنعام جـ ٦ ص ٧١ ، وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب الإيمان باب صدق الإيمان وإخلاصه جـ ١ ص ٣٢٩ ، وسنن الترمذى أبواب تفسير القرآن ــ تفسير سورة الأنعام جـ ٤ ص ٣٢٧ وقال :حسن صحيح ، ومسند أحمد جـ١ / ٣٧٨ / ٤٢٤ / ٤٤٤ وراويــه من الصحابة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

ويقال للفرس الطويل الذنب : ذنوب[1] .

وبطلق الذنوب على النصيب ، كما يطلق السَّجْل عليه ، سواء كان خيرا أو شرا ، والذى يعين معناه هو القرينة ، ففى الكلمة استعارة حيث شبه النصيب من الخير أو الشر بالذنوب الممتلئة ماء بجامع مطلق حصول الاستيفاء فى كل ، ثم حذف المشبه واستعير المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية لأنه صرح بالمشبه به ولأنها فى اسم جامد .

والمراد بالذنوب هنا : النصيب الكبير من العذاب الأليم ، فالعذاب يعم أبدان الكفرة ويأتيهم من كل مكان فى جهنم وفى أجسامهم لقوله تعالى فى سورة الحج : ﴿ **يصب من فوق رءوسهم الحميم** ﴾[2] ، وقوله عن الكافر فى سورة ابراهيم عليه السلام : ﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان وماهو بميت** ﴾[3] أى يأتيه أسباب الموت وهى العذاب المتنوع ، فهو عذاب لا يقادر قدره .

ولتقريب تغطية العذاب لهم وعمومه لأبدانهم إلى أذهاننا صور بصورة المحسوس أى شبه المعقول وهو العذاب العظيم المغطى لهم بالمحسوس وهو الذنوب الممتلئة ماء .

وفى الآية الكريمة تشبيه مرسل مجمل حيث حذف وجه الشبه وهو شدة العذاب وغلظته على الكفار .

---

(١) أنظر غريب القرآن للسجستانى ص ١٥٨ ، والصحاح للجوهرى صـ ١٢٨ ـــ ١٢٩ والمفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ١٨١ والمصباح المنير للفيومى ص ٢١٠ ، والقاموس المحيط للفيروزابادى جـ ١ صـ ٦٩ والكشاف للزمخشرى جـ ٤ ص ٣٣ ، ومجمع البيان للطبرسى جـ ٩ ص ٢٤٢ .

(٢) سورة الحج ١٩ . (٣) سورة إبراهيم عليه السلام ١٧ .

وجاءت الكلمة — ذنوبا — منكرة لإفادة عظم العذاب وهوله وفظاعته وشدته .

معنى الاستعجال

والاستعجال من العجلة وهى مقابل البطء ، وفعله الماضى : عجل من باب : فرح ، يقال : أعجله ، واستعجله ، أى استحثه على العجلة .

المعنى العام

فالله ينهى الكافرين الظالمين لأنفسهم بالكفر عن استعجالهم العذاب ويرد على سؤالهم الذى فيه استبعاد واستخفاف واستهزاء لوقوعه بقولهم : ﴿ **متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** ﴾(١) ، وقولهم : ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ (٢)، وقول الله عنهم :﴿ **ويستعجلونك بالعذاب** ﴾(٣) ، ويبين أن عذابهم آت لا ريب فيه ، ووقوعه متحتم كما قال فى صدر السورة : ﴿ إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع ﴾ ، وكما قال فى أول سورة النحل : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ ، فالله تعالى جعل لعذابهم موعدا لا يخلف وبين أنه جد قريب ، ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب(٤) ، و ﴿ **لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا** ﴾(٥) ، وما أخر الله عذابهم وما عافاهم من عذاب الإبادة والاستئصال فى الدنيا إلا إكراما لرسوله محمد ﷺ وبيانا لفضله ومكانته عنده ، وإكراما للمؤمنين به : ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** ﴾(٦) .

---

(١) سورة يونس عليه السلام ٤٨ وغيرها من السور .
(٢) سورة الأنفال ٣٢ .
(٣) سورة الحج ٤٧ وسورة العنكبوت ٥٣
(٤) سورة العنكبوت ٥٣ .
(٥) سورة الكهف ٥٨ .
(٦) سورة الأنفال ٣٣

صلة الآية بما قبلها

« **فويل** » هذا تفريع على الآية السابقة واستكمال لوعيدهم ، كأن الله يقول : إن لهم عذابا هائلا يوم القيامة فويل لهم من هول هذا اليوم القريب الوقوع .

المراد بالويل وفائدة تنكيره

والويل : شدة العذاب ، وقيل إنه واد من أودية جهنم لو قذفت فيه الجبال لماعت وذابت من شدة حره ولهبه .

ولا تعارض بين الرأيين والآية الكريمة تحتملهما معا ..

ونكر الويل للإشعار بالتعظيم والتهويل ، ووضع الاسم الظاهر وهو « الذين كفروا » موضع الضمير : لتسجيل الكفر والتشنيع عليهم وبيان أنه سبب استحقاقهم لذلك العذاب العظيم .

اليوم الذى يوعدون

واليوم الذى يوعدونه هو يوم القيامة بدليل قوله تعالى فى صدر السورة : ﴿ **إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع** ﴾ فعاد آخرها إلى أولها ، ورد عجزها إلى صدرها ، وهو محسن بديعى ، وقوله فى الآية السابقة : ﴿ **فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون** ﴾ أى لهم عذاب عظيم يعمهم ويغمرهم وهو عذاب يوم القيامة ، وقوله فى صدر سورة الطور بعدها : ﴿ **إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع ، يوم تمور السماء مورا ، وتسير الجبال سيرا** ﴾[1] ، وقوله عنهم وعن يوم القيامة فى سورة المعارج : ﴿ **فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ، يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون** ﴾[2] .

---

(١) سورة الطور ٧ — ١٠

(٢) سورة المعارج ٤٢ — ٤٤ .

وقيل إن المقصود باليوم : يوم بدر فإن السورة مكية وأوعدت للمشركين بهزيمتهم هزيمة ساحقة ، ويكون المقصود بالذنوب : عذاب الدنيا ، وكان بهزيمتهم وقتل من قتل من صناديدهم ، وأسر من أسر من عظمائهم ، ونصر الله لدينه ورسوله وأتباعه .

الرأى المختار

والظاهر فى الآية هو القول الأول بدليل المماثلة فى قوله تعالى : ﴿ **ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم** ﴾ ، وما وقع لهم فى يوم بدر لا يماثل ما حل بكفار الأمم السالفة من عذاب وهلاك ، إلا إن قلنا إن المماثلة لا يشترط فيها توافرها وتحققها من كافة الوجوه فيكون القولان مرادين معا ولا تنافى بينهما ، فالله عاقبهم فى الدنيا بعقاب مالى وبدنى ونفسى حيث خسروا كثيرا من أموالهم وغنمها المسلمون فى الغزوات والسرايا ، وقتل الكثير منهم وأسر من أسر منهم ، ورأوا عظمة الإسلام والمسلمين وعزتهم ، ويعاقبهم الله فى الآخرة بإدخالهم جهنم ودعهم فيها دعا وتخليدهم فى ذلك العذاب الأليم المتعدد الأنواع والأشكال ، كما قال تعالى فى سورة الرعد : ﴿ **ولايزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله إن الله لايخلف الميعاد** ﴾[1]، وقال سبحانه فى سورة السجدة : ﴿ **ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون** ﴾[2] ، وقال جل شأنه ـــ فى سورة الأنفال : ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون** ﴾[3] .

المعنى العام

فهاتان الآيتان يتوعد الله فيهما مشركى مكة ومن لف لفهم

---

(١) سورة الرعد ٣١ . (٢) سورة السجدة ٢١ .

(٣) سورة الأنفال ٣٦ .

وسار فى ركابهم من كفرة هذه الأمة الذين يجحدون نعم الله عليهم ويغمطونها ويكفرون به وبرسوله محمد ﷺ ويحاربون دينه ويصدون عن سبيله ، يتوعدهم بالانتقام الشديد منهم فى الدنيا ، وبالعذاب الأليم فى الآخرة الذى يرونه بعيدا ويراه الله قريبا ، وهو عذاب كعذاب سائر كفار الأمم السالفة المعادين لرسلهم الكافرين برسالاتهم لأن الكل مجموع فى جهنم ، والكفر كله ملة واحدة .

وفى هذا الوعيد الشديد المستمر بشارة ضمنية مستمرة للمؤمنين ، فما يؤذى الكافرين يفرح المؤمنين ويسرهم ويشفى صدورهم ، وبشارة بإعزاز دينهم ، ونصرهم ، ومعية الله تعالى لهم فى الدنيا والآخرة ، وحسن مآبهم ، وجزيل ثوابهم .

جعلنا الله بفضله وكرمه من عباده المخلصين ، ومن زمرة المتقين المحسنين ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .



مراجع الكتاب

١ ـــ **القرآن الكريم .**

٢ ـــ **إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر .**

للشيخ أحمد بن محمد بن أحمد الدمياطى الشافعى الشهير بالبناءت ١١١٧ هـ ، بتحقيق الشيخ على محمد الضباع ، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفى بالقاهرة ١٣٥٩ هـ .

٣ ـــ **إحياء علوم الدين .**

لحجة الإسلام الإمام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى الطوسى ت ٥٠٥هـ ، وبذيل صفحاته كتاب : « المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار فى تخريج مافى الإحياء من الأخبار » للإمام زين الدين أبى الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقى ت ٨٠٦ هـ ، مطبعة دار الشعب بالقاهرة .

٤ ـــ **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم .**

لقاضى القضاة الإمام أبى السعود محمد بن محمد العمادى الحنفى ت ٩٨٢ هـ ، وقيل ٩٥٢ هـ ـــ مطبعة دار إحياء التراث العربى ـــ بيروت .

٥ ــ **الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به .**

للقاضى أبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى ت ٤٠٣ هـ ، بتحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى ، مؤسسة الخانجى للطباعة ، الطبعة الثانية ١٣٨٢ هـ ١٩٦٣ م .

٦ ــ **البحر المحيط .**

للعلامة أبى حيان محمد بن يوسف الأندلسى الغرناطى ت ٧٤٥ هـ ، وبهامشه كتاب آخر له يسمى : « النهر الماد من البحر » ، وهو تلخيص واختصار لكتابه : « البحر المحيط » ، وبهامشه أيضا كتاب : « الدر اللقيط من البحر المحيط » لتلميذه : تاج الدين أحمد بن عبد القادر الحنفى النحوى ت ٧٤٩ هـ دار الفكر للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م .

٧ ــ **التسهيل لعلوم التنزيل .**

للعلامة ابن جزى الكلبى محمد بن أحمد الأندلسى الغرناطى ت ٧٩٢ هـ ، مطبعة دار الفكر .

٨ ــ **تفسير القرآن العظيم .**

للحافظ ابن كثير عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى ت ٧٧٤ هـ ، مطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة .

٩ ــ **الجامع لأحكام القرآن .**

للإمام القرطبى أبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى الأندلسى القرطبى ت ٦٧١ هـ ، بتصحيح الشيخ إبراهيم

أطفيش ، مطبعة دار الشعب بالقاهرة .

١٠ ــ جامع البيان عن تأويل آى القرآن

للإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ت ٣١٠ هـ ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م .

١١ ــ حجة القراءات

للإمام القاضى أبى زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة المقرىء المالكى من علماء النصف الثانى فى القرن الرابع الهجرى ، بتحقيق سعيد الأفغانى، مؤسسة الرسالة للطباعة بيروت ، الطبعة الرابعة ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م .

١٢ ــ الدر النظيم فى مباحث من علوم القرآن الكريم

للمؤلف ، مطبعة دار الوفاء بالمنصورة ، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م .

١٣ ــ روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى

للعلامة السيد محمود الألوسى البغدادى ت ١٢٧٠ هـ مطبعة دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م .

١٤ ــ سنن أبى داود

الإمام سليمان بن الأشعث السجستانى ت ٢٧٥ هـ ، بتحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد . مطبعة دار الفكر .

١٥ ــ سنن ابن ماجه

الإمام أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ت ٢٧٥ هـ ،

بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، مطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة .

١٦ ــ سنن الترمذى

الإمام أبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة ت ٢٧٩ هـ ، بتحقيق شيخنا عبد الوهاب عبد اللطيف والشيخ عبد الرحمن محمد عثمان ، مطبعة المدنى ، ومطبعة الفجالة بالقاهرة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م .

١٧ ــ سنن الدارمى

الإمام أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام ت ٢٥٥ هـ ، مطبعة دار الكتب العلمية بيروت .

١٨ ــ سنن النسائى

الإمام أبى عبد الرحمن أحمد بن شعيب ت ٣٠٣ هـ ، وعليها شرح يسمى : « زهر الربى على المجتبى » لجلال الدين السيوطى ت ٩١١ هـ ، وعليها حاشية أخرى للعلامة أبى الحسن محمد بن عبد الهادى الحنفى المعروف بالسندى ت ١١٣٨ هـ ، مطبعة دار إحياء التراث العربى ــ بيروت .

١٩ ــ شرح البيجورى على الجوهرة ، ويسمى : تحفة المريد على جوهرة التوحيد »

للعلامة الشيخ إبراهيم بن محمد البيجورى ت ١٢٧٧هـ و « جوهرة التوحيد » نظم للشيخ العلامة إبراهيم اللقانى ت ١٠٤١ هـ مطبعة محمد على صبيح بالقاهرة ١٣٧٤ هـ ١٩٥٤ م بتصحيح وتعليق الشيخ حسين عبد الرحيم مكى .

٢٠ ــ الصحاح : « تاج اللغة وصحاح العربية »

للإمام اللغوى إسماعيل بن حماد الجوهرى ت ٣٩٣ هـ تقريبا ، بتحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، مطابع دار الكتاب العربى ، الطبعة الأولى ١٣٧٦ هـ ١٩٥٦ م .

٢١ ــ صحيح الإمام البخارى

أبى عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ت ٢٥٦ هـ ، مطبعة دار الشعب بالقاهرة .

٢٢ ــ صحيح الإمام مسلم

ابن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى ت ٢٦١ هـ ومعه شرح الإمام النووى أبى زكريا يحى بن شرف ت ٦٧٦ هـ ، بتحقيق عبد الله بن أبى زينة ، مطبعة دار الشعب بالقاهرة .

٢٣ ــ العقد الفريد فى مباحث من علوم القرآن المجيد

للمؤلف ، مطابع الوفاء بالمنصورة الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م .

٢٤ ــ غرائب القرآن ورغائب الفرقان

للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمى النيسابورى ت ٧٢٨ هـ ، وقيل فى تاريخ وفاته غير ذلك ، بتحقيق الشيخ إبراهيم عطوة عوض ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ ١٩٧٠ م .

٢٥ ــ غريب القرآن

للإمام أبى بكر محمد السجستانى ت ٣٣٠ هـ ، المطبعة

العربية الحديثة بالقاهرة ١٣٩٧ ١٩٧٧ م .

٢٦ ـــ فتح البارى بشرح صحيح الإمام البخارى
لشيخ الإسلام الحافظ أبى الفضل شهاب الدين أحمد بن على بن محمد بن حجر العسقلانى الشافعى ت ٨٥٢ هـ ، بتحقيق الشيوخ : طه عبد الرءوف سعد ومصطفى محمد الهوارى والسيد محمد عبد المعطى ، شركة الطباعة الفنية المتحدة بالقاهرة ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م .

٢٧ ـــ فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير
للإمام محمد بن على الشوكانى ت ١٢٥٠ هـ ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة ١٣٨٣هـ ١٩٦٤ م .

٢٨ ـــ القاموس المحيط
للفيروزابادى مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى ت ٨١٧ هـ ، مؤسسة الحلبى وشركاه للطباعة بالقاهرة .

٢٩ ـــ قصص الأنبياء
للحافظ أبى الفدا عماد الدين إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى ت ٧٧٤ هـ ، دار الفكر للطباعة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م .

٣٠ ـــ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل
لأبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى الحنفى المعتزلى ت ٥٣٨ هـ ، وبذيل صفحاته كتاب : الإنتصاف فيما تضمنه الكشاف من الإعتزال لناصر

الدين أحمد بن محمد بن منصور المنير المالكى السنى الإسكندرى ت ٦٨٣ هـ و « حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقى الشافعى » ، و « مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف » للشيخ محمد عليان أيضا ، ويلى الكشاف كتاب : « الكافى الشاف فى تخريج أحاديث الكشاف » للحافظ ابن حجر العسقلانى ، مطبعة دار المعرفة — بيروت .

٣١ — كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال

للعلامة علاء الدين على المتقى بن حسام الدين الهندى البرهان فورى ت ٩٧٥ هـ ، بتحقيق الشيخين : بكرى حيانى وصفوت السقا ، مؤسسة الرسالة للطباعة بيروت ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .

٣٢ — لباب التأويل فى معانى التنزيل

للعلامة علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى الشهير بالخازن ت ٧٤١ هـ ، وقيل ٧٢٥ ، وبهامشه تفسير البغوى المسمى : معالم التنزيل ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ ١٩٥٥ م .

٣٣ — لباب النقول فى أسباب النزول

للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ت ٩١١ هـ ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة ، الطبعة الثانية .

٣٤ — لسان العرب

للإمام اللغوى جمال الدين أبى الفضل محمد بن مكرم بن

على بن أحمد بن منظور ت ٧١١ هـ ، مطبعة دار المعارف بالقاهرة .

٣٥ — **مجمع البيان فى تفسير القرآن**
لأبى على الفضل بن الحسن الطبرسى الطوسى ت ٥٤٨ هـ ، وقيل ٥٣٧ — وقيل ٥٥٢ — وقيل ٥٦١ — بتحقيق السيد هاشم الرسولى المحلاتى والسيد فضل الله الطباطبائى ، مطبعة دار المعرفة بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م .

٣٦ — **المسند**
للإمام أحمد بن حنبل الشيبانى ت ٢٤١ هـ ، وبهامشه كتاب : « منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال » للمتقى الهندى ت ٩٧٥ هـ . مطبعة المكتب الإسلامى بيروت ، الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م .

٣٧ — **المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير**
للعلامة الفيومى أحمد بن محمد بن على المقرى ت ٧٧٠ هـ ، والشرح الكبير كتاب فى فقه الشافعية للرافعى القزوينى عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم ت ٦٢٣ هـ ، بتحقيق الأستاذ الدكتور عبد العظيم الشناوى ، مطبعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٧ م .

٣٨ — **معالم التنزيل**
للإمام البغوى أبى محمد الحسين بن مسعود الفراء ت ٥١٠ هـ ، وقيل ٥١٦ هـ ، مطبوع بهامش لباب التأويل

للخازن .

٣٩ ــ مفاتيح الغيب ، ويسمى أيضا بالتفسير الكبير
للإمام فخر الدين الرازى أبى عبد الله محمد بن عمر بن الحسين ت ٦٠٦ هـ مطبعة دار إحياء التراث العربى ، بيروت الطبعة الثالثة .

٤٠ ــ المفردات فى غريب القرآن
للعلامة أبى القاسم الحسين بن محمد الشهير بالراغب الأصفهانى ت ٥٠٢ هـ ، بتحقيق محمد سيد كيلانى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة ١٣٨١ هـ ١٩٦١ م .

٤١ ــ الموطأ
للإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة ت ١٧٩ هـ ، بتحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباق ، مطبعة دار الشعب بالقاهرة .

٤٢ ــ النشر فى القراءات العشر
للحافظ أبى الخير محمد بن محمد الدمشقى الشهير بابن الجزرى ت ٨٣٣ هـ ، بتصحيح ومراجعة الشيخ على محمد الضباع ، مطبعة دار الفكر .

٤٣ ــ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار
للإمام الشوكانى محمد بن على ت ١٢٥٠ هـ ــ ومنتقى الأخبار للعلامة ابن تيمية الجد شيخ الحنابلة أبى البركات مجد الدين عبد السلام بن عبد الله الحرانى ت ٦٥٢ هـ ،

شرحه الإمام الشوكاني في كتابه: نيل الأوطار ....
مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
سر إضافة المال إلى الله تعالى ثم إلى الناس فى القرآن الكريم	٨٨
المراد بالسائل والمحروم ، وبيان الرأى الراجح	٨٩
سر تقديم السائل على المحروم ، المعنى العام .	٩٣
آيات الله عز وجل فى الآفاق وفى الأنفس :	**٩٥**
الآيات المشيرة إلى ذلك رقم ٢٠ ــ ٢٣	٩٥
بيان صلتها بما قبلها ، المراد بالأرض وآياتها	٩٥
سر ذكر الآيات مجموعة ومنكرة ، وبيان بلاغة الآية الكريمة	٩٨
معنى الموقنين ، وسر ذكرهم دون غيرهم	٩٩
بيان المخاطبين بقوله « وفى أنفسكم ... » ، والمراد بالأنفس والرأى الراجح	١٠١
الغرض من الإستفهام وبيان مرجعه	١٠٤
لا تعارض بين الآيات القرآنية والكونية	١٠٥
المراد بالسماء ، وبالرزق ، والتوفيق بين الأقوال ، وبيان مافى الآية الكريمة من بلاغة	١٠٦
المخاطبون بالآية ، وبيان متعلق الوعد	١٠٧
الرزق نوعان ، الفرق بين الحق والصواب	١٠٨
إعراب « مثل » وبيان ما فيها من قراءات ، والحكمة من ذكر النطق دون غيره	١١٢
المعنى العام ، والغرض من الآيات	١١٣
إبراهيم الخليل وضيوفه عليهم السلام :	**١١٨**
الآيات التى تكلمت عنهم رقم ٢٤ ــ ٣٧	١١٨
صلتها بما قبلها ، معنى « هل » وبيان بعض فوائد ذكر القصص فى القرآن الحكيم	١١٩
سر البدء بقصة إبراهيم عليه السلام	١٢١

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

وآخر دعوانا أن الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنتهدى لولا أن هدانا الله وصلى الله تعالى وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين .



رقم الإيداع بدار الكتب ٨٦٣٨ / ٨٧

الترقيم الدولى ٠ ـ ٥٣ ـ ١٤٢١ ـ ٩٧٧

مطبعة جزيرة الورد

المنصورة ـ [illegible] البحر

تليفون ٤٤١١٩١